المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

المسافرون الإنجليز

الجزء الثاني

رواية

تأليف: ماثيو نيل

ترجمة: د. علي محمد سليمان

مراجعة: د. علي العنزي

المسافرون الإنجليز - الجزء الثاني

رواية

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

كامل سليمان العبدالجليل

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

أ. د. عيسى محمد الأنصاري

د. زبيدة علي أشكناني

د. ليلى عثمان فضل

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

د. سعاد عبدالله العنزي

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamiya@gmail.com

ISBN: 978-99906-0-658-4

المسافرون الإنجليز

رواية

العنوان الأصلي

English Passengers

By: Matthew Kneale

©Matthew Kneale, 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2020م

إبداعات عالمية - العدد 435

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

الفهرس

مقدمة المترجم 9
الجزء الثاني 13
الفصل التاسع
الدكتور توماس بوتر، نوفمبر 1857
29 نوفمبر 15
القبطان إيليام كويليان كيولي، نوفمبر - ديسمبر 1857 19
الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857 39
الفصل العاشر
بيفاي، 1831 - 1835 45
كاثرين برايس، مستوطنة السكان الأصليين،
في جزيرة فليندرز، 1835 - 1838 63
بيفاي، 1838 85
ويليام فرامبتون، حاكم أرض فان ديمن، 1838 93
بيفاي، 1838-1847 109
الفصل الحادي عشر
الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
مصير الأمم (موجز) 115
الكابتن إيليام كويليان كيولي، ديسمبر 1857 117
الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857 121
تيموثي رينشو - ديسمبر 1857 127
القبطان إيليام كويليان كيولي، ديسمبر 1857 133
تيموثي رينشو، ديسمبر 1857 139
الفصل الثاني عشر 149
باجرلي، ديسمبر 1857 153
السيدة جيرالد دنتون - زوجة حاكم تاسمانيا، سبتمبر-
ديسمبر 1857 157
الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857 163

بيفاي، ديسمبر 1857 171
السيدة جيرالد دنتون - زوجة حاكم تاسمانيا، ديسمبر 1857 179
السيدة إيميلي سيتون، ديسمبر 1857 185
الكولونيال تايمز، ديسمبر 1857 193
الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
19 ديسمبر 195
بيفاي، ديسمبر 1857 197
الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
25 ديسمبر 205
الفصل الثالث عشر
الكاهن جيفري ويلسون، يناير 1858 207
بيفاي، يناير 1858 211
الدكتور توماس بوتر، يناير 1858
19 يناير 215
الكاهن جيفري ويلسون، يناير 1858 217
الدكتور توماس بوتر، يناير 1858
19 ديسمبر (يُتبع) 235
تيموثي رينشو، يناير 1858 237
الدكتور توماس بوتر، يناير – فبراير 1858
20 يناير 241
الكاهن جيفري ويلسون، فبراير 1858 247
الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير 251
القبطان إيليام كويليان كيولي، يناير- فبراير 1858 257
الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير (يُتبع) 263
بيفاي، فبراير 1858 265

الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير (يُتبع) 271
بيفاي، فبراير 1858 275
الفصل الرابع عشر
تيموثي رينشو، يناير - مارس 1858 279
الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل أعراق البشر 285
مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل
أعراق البشر (تصويب) 287
القبطان إيليام كويليان كيولي، إبريل 1858 289
الدكتور توماس بوتر، إبريل 1858
مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل أعراق البشر (تصويب) 297
قواعد جديدة للسيطرة على سفينة الإخلاص 299
بيفاي، فبراير - أبريل 1858 305
القبطان إيليام كويليان كيولي، إبريل - يونيو 1858 309
الكاهن جيفري ويلسون، يونيو 1858 315
الدكتور توماس بوتر، يونيو 1858 317
القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1858 319
الفصل الخامس عشر
تيموثي رينشو، مارس - إبريل 1858 335
السيد پ. ت. ويندرش، 1865
عجائب جزيرة وايت:
الفصل السادس: جزيرة غرائب الأطوار (مقتطفات) 339
بيفاي، 1858 - 1870 341
القبطان إيليام كويليان كيولي، 1858 - 1859 343

مقدمة المترجم

تصل سفينة المسافرين الإنجليز في الجزء الثاني من هذه الرواية إلى شواطئ جزيرة تاسمانيا، أحد المستعمرات البريطانية في أستراليا، إلى الفردوس المفقود وجنة عدن التي ابتكرتها مخيلة الكاهن المأزومة بخرافات الفتوحات الأخلاقية لحضارة تحمل إرثا ثقيلا من دماء الضحايا وعذابات المضطهدين. وبوصولها يترجل ركابها إلى اليابسة ليبدؤوا رحلة أخرى في مجاهل الجزيرة المنكوبة تحت راية بعثة مقدسة لاكتشاف جنة عدن. ومعهم تأخذنا الرواية في آفاق فضاءات شاسعة من الحكايات والتواريخ المدماة بسيرة شعب أستراليا الأصلي الذي أباده الاستعمار البريطاني في حملات بحثه الدامية عن جنان الذهب في تلك الأرض البعيدة.

تقطع السفينة مسافات شاسعة وتجتاز نصف العالم محملة بأحلام ومشاريع ركابها، مهربات القبطان السرية وأسفار الكاهن ونظريات الطبيب عالم الأعراق، رموز حضارة كاملة، وربما أساطيرها التي ستحولها أرض تاسمانيا الوعرة إلى مجرد أضغاث أحلام بعد أن تعريها وتطوح بها مع جثث بغال الرحالة التائهين من أعالي جبالها الشاهقة. تلتقي في فصول هذا الجزء حكايات

وشخصيات من أزمنة وجغرافيات متعددة ومتناحرة لتجمع المسارات التي تكشفت عبر رحلة السفينة الطويلة لتضعنا كقراء في موضع يجمع بين التشويق الدرامي والإثارة من جهة، وبين التبصر والمعرفة بتناقضات التاريخ الحديث من جهة أخرى.

نبقى هنا مشدودين إلى الأحداث ننتقل بين فصل وآخر لا تفارقنا الدهشة والأسئلة، ولا تتخلى الرواية حتى كلماتها الأخيرة عن قدرتها على السخرية حتى في أكثر الأحداث هولا ودموية. لكن رغم ما يتكشف من حجم الجرائم التي ارتكبها الاستعمار البريطاني في حق السكان الأصليين لأستراليا ورغم كشف الرواية عن تفاصيل إبادة ذلك الشعب، فإن الصوت الأعلى يبقى لصوت الضحية، حكاية الإنسان في مغامرة الحياة والصراع من أجل البقاء.

في سيرة الشخصيات على جزيرة تاسمانيا تعيد الحكايات المتشابكة كتابة الماضي في رحلة جديدة تكمل أسفار البحر، ومنذ صيحات البحارة «إنها اليابسة» وإلقاء المرساة في المرفأ الأخير نتعرف على المعنى الحقيقي لكل تلك الأحداث واللغات والثقافات التي رسمت عوالم بشر ضاعت ملامحهم وأودت حروب الإبادة بهوياتهم القومية والفردية. وهنا يبدع الروائي في خلق شخصياته، لا كمحض نماذج تاريخية تخلو من نبض الحياة وإشراقاتها، بل كأفراد تحلق بهم الأحلام ويفيض بهم التوق إلى الجمال والحب بقدر ما تمزق حيواتهم وأوطانهم الحروب والنكبات. ولعل أهم ما تضيفه الرواية كما يتضح لنا في جزئها الثاني ذلك التصوير العميق للحياة اليومية لإنسان أستراليا الأصلية بكل ما فيه من تنوع بيئي وطبيعي وثقافي.

نكتشف في تفاصيل السرد لوحة تضج بألوان وأنماط الحياة واللغات والعادات والثقافات والمعتقدات والأساطير التي تشكل عمق الهوية الإنسانية للقبائل الأصلية في تلك البلاد؛ كل ذلك من خلال معرفة تاريخية وعلمية بخصائص البيئة المحلية والثقافات واللغات القومية. وكأننا نقرأ ملحمة تعيد إلى أولئك البشر الحق في كتابة سيرهم ونصوصهم التاريخية الخاصة حتى بعد أن تحولوا إلى هياكل عظمية يجمعها الدكتور بوتر كعينات يستخدمها في مختبره العلمي لإثبات نظريته حول التفوق العرقي.

كما تدهشنا الرواية بآفاق جديدة لتوظيف الوثائق والنصوص والرسائل التي جمعها الكاتب بدراية وحرص لتكون مفردات في ذلك الصراع الطويل الذي نشأ بين الثقافات في سياق الظاهرة الاستعمارية الأوروبية. فمن جهة تغزو ثقافة مدججة بالأسلحة والسفن وأسفار الكهنة ونظريات العلوم الحديثة ونصوص التاريخ وأصل الأعراق أرضا لا تفقه لغتها، ومن جهة أخرى تقاوم الثقافة المستباحة كل ذلك عزلاء إلا من أغنيات شعبها وحكاياتهم وسهام صيدهم. جبروت حضارة تواجهه مجموعات اعتادت أن تصطاد قوتها من الطبيعة وترقص ابتهالا لما تجود به الأرض من أرزاق لتنام بعدها تحت سماء تشتعل بالنجوم. لكن هذا تخلف وهمجية يجب القضاء عليهما كما تنص عليه كتب العلماء وأسفار الكهنة القادمين من وراء المحيطات. وهكذا تسلب القوة تحت شعارات التنوير والإصلاح من ذلك الشعب الأرض والسماء والأغنيات والحياة نفسها.

لكن الأدب يتيح لكفاح البشر المنسيين آفاقا جديدة في الجزء الثاني من هذه الرواية عبر منحهم حكاياتهم وأصواتهم الخاصة، وهو بذلك ينتصر لقيم الحق والعدالة. إنه يضع تلك الحضارة المدججة بعتاد الحروب واستغلال التطور العلمي وتراكم الثروات أمام أزمتها الأخلاقية التي ستودي بها في النهاية إلى التداعي. وبهذا يحيك الراوي بمهارة نسيجه السردي ويكشف عن الأسس والعوامل التي سترسم المصائر والمآلات في رحلة عودة المسافرين الإنجليز على متن سفينتهم نحو إنجلترا ليكتشف القارئ مفاجآت جديدة ويواجه مزيدا من الأسئلة.

د. علي محمد سليمان

الجزء الثاني

الفصل التاسع
الدكتور توماس بوتر، نوفمبر 1857
29 نوفمبر

رأينـا اليابسـة هـذا الصبـاح بعـد 46 يومـا والكثـير مـن العواصـف والأمطـار. تهليـل وغنـاء مـن البحـارة إلـخ... ويلسـون أدى صلـوات الشـكر.

لسـوء الحـظ اكتشـفنا أنهـا لم تكـن الأرض التـي نقصدهـا. راقـب القبطـان الشـمس بجهـاز السـدس[1]، وأعلـن أنهـا ليسـت أرض فـان ديمن بـل أسـتراليا. قـال إن السـبب هـو الطقـس وتيـارات البحـر. شـخصيا لم أكـن أعـرف أن التيـارات قويـة إلى تلـك الدرجـة! قالـوا يجـب التوقـف في مالبـورن ومرفـأ فيليـب للتـزود بالميـاه. هـذا جيـد... ف. قريـب. ويلسـون = ف. مسـتاء + يريـد بدايـة الاستكشـاف بسرعـة + نظـر إلي شـزرا كأنني أنـا المسـؤول عـما جـرى. في الحقيقـة تغيـير الخطـة فائـدة كبـيرة لي. يمكـن جمـع عينـات جديـدة. بالإضافـة إلى ذلـك يمكـن زيـارة زميـلي ج نـاو وسيسـاعدني. أحتـاج للمزيـد مـن صناديـق التخزيـن.

أشـعر بالأسـف لأني أهملـت اليوميـات منـذ وصلنـا إلى مسـتعمرة كاب بسـبب انشـغالي. كنـت مشـغولا بدراسـة المفاهيـم. الحقيقـة أن

---

(1) آلة فلكية قديمة كانت تستخدم لقياس الزاوية بين جسمين أو نجمين. (المترجم).

ذلك الوقت مفيد جدا. بالتأكيد شعرت بشيء من الإلهام وازدادت أفكاري وضوحا وتحديدا، مع مرور الوقت. من مجرد أفكار إلى مفاهيم واضحة. اكتشفت أن أهم إنجاز يعود إلى المصادفة وجود بحارة أيل أوف مان معي على السفينة.

حدث اكتشافي بهذا الشكل: أجلس على سطح السفينة ثم أسمع رئيس البحارة برو يصرخ على أحد أفراد طاقمه. وصفه بكلمة فايكينغ! أثار فضولي. سألت لماذا؟ برومتكتم، لكنه أجاب بتردد أن أهل أيل أوف مان كان يحكمهم النرويجيون من الساكسون.

بدأت أسأل جميع البحارة. كلهم متحفظون ومتكتمون، لكني حصلت على معلومات. اكتشفت أن جزيرة مان رغم صغرها كانت مسرحا لصراع قوى خارجية. تحديدا سكان مدينة بيل سخروا من كل المناطق الأخرى.

عينات:

مدينة رمزي: يصفون أهلها بأنهم متبجحون. مدينة دوغلاس: غوفاجس. السبب غير معروف.

النتيجة: في الشكل معقدة لكنها في الجوهر بسيطة؛ أهل أيل أوف مان ليسوا شعبا واحدا، بل هم اثنان: ساكسوني وكلتي. قد تُنسى الأحداث التاريخية ولغة الساكسون النرويجية لكن تبقى حقيقة الانقسامات حاضرة في عقول البشر. واستمرت الحرب بين أهل أيل أوف مان الكلتيين والساكسون، تستمر دون أن ينتبه أحد. بعد أن انتبهت إلى هذه المسألة صرت ألاحظ وأراقب ما يجري بين فئتين من شعب مان. مشاحنات دائمة بين أفراد الطاقم وضغينة لدى القبطان. النوع الكلتي شاينا كلوكاس قوي وصريح.

النتيجة مهمة جدا وتفيد بأن الأقوام المختلفة لا يمكن أن تندمج مع بعضها. والمهم أيضا، أني توصلت إلى استنتاج: دراسة أصول الأقوام والأجناس ليس مهما لفهم الحاضر فقط، بل يفيد في دراسة المستقبل ومصير تطور الإنسان. وهنا يمكن اعتبار ثورة 1848 تجلٍّ مهم لتطور الأحداث. لذلك أنا أرى المستقبل صراعات بين الأمم وصدامات لا يمكن حلها إلخ... سينفد صبر الساكسون الباردي الأعصاب في نهاية المطاف، وسيلقى النورمانديون عقابهم بعد انكشاف ضعفهم. أما الأمم الأضعف مثل السود والهنود والشرقيين فمصيرهم الاضمحلال وسيبدأ عصر جديد. هكذا قد يبزغ فجأة بعد تلاشي الضعفاء.

قراري أن أراجع هذه الملحوظات وأطورها للنشر.

عنوان أولي: مصائر الأمم. دراسة في خصائص وميزات الأعراق والأقوام المختلفة والنتائج المتوقعة لصراعاتهم. لدي شعور بأن الدراسة ستثبت أهميتها في فهم تطور الإنسانية.

القبطان إيليام كويليان كيولي، نوفمبر - ديسمبر 1857

يا لغرابة ميناء فيليب هذا! خليج عريض يتسع رغم كثرة المضائق فلا تكاد ترى الشاطئ على طرفيه. توقعت في منطقة كهذه أن أرى حركة كثيفة لزوارق تتجول هنا وهناك، لكن ما لفت نظري وجود بيت صغير يتخفَّى في منطقة محجوبة عن البحر. على مقربة منه رأيت أكثر ما يمكن أن يثير اهتمامي في وقت كهذا، زورق اعتراض كان قد رفع أشرعته وأخذ يمخر عباب البحر قاصدا مناطق لن يطول بنا الوقت حتى نجد نحن أنفسنا فيها. مركب رائع كان، يتألق بكامل عتاده، مدفعان في المقدمة وستة جنود بزيهم الأحمر الزاهي يقفون على سطحه، وضابط من مرفأ فيليب، ما إن شعر أنه قريب منا حتى رفع صوته مناديا علينا. أراد أن يصعد إلى سفينتنا ليقوم بواجب الترحيب بنا. وبالطبع، لم أكن بحاجة إلى من يعلمني من يكون ذلك الضابط.

يا للسخرية! المفارقة المذهلة أن رجلا مثلي يستطيع أن يقود سفينة ويجتاز نصف العالم، لا لشيء إلا ليجد نفسه من جديد أمام طقوس الترحيب ذاتها التي لقيها في بداية رحلته. وما كان يثير مخاوفي في الحقيقة أن تكون وشاية ما، قد سبقتنا إلى هنا من مستعمرة كاب. كنت قد فكرت بالتخلص من تلك الأواني الفضية

ورميها في البحر، لكني لم أستطع تبديد تلك الثروة، ويبدو أنه قد فات الأوان الآن.

«أوراقك يا كابتن»، قال خصمنا الجديد السيد روبنز، ضابط الجمارك من مستعمرة فيكتوريا. كان متجهما ينظر إلينا شزرا كأننا قطعنا كل تلك المسافة من الجهة الأخرى من الأرض خصيصا لإفساد ظهيرة يومه هذا.

«ليس لدينا في العنابر سوى المؤونة وبعض العتاد. فالسفينة مستأجرة من قبل هؤلاء السادة من أجل بعثتهم الاستكشافية». أشرت إلى فيكار الذي أشرق وجهه كأنه رحالة حقيقي، ثم أضفت «والدكتور بوتر أيضا». كنت قد انتبهت من فوري إلى أن حارس السواحل ذاك له نفس الطريقة المتعجرفة في الكلام التي يرطن بها مسافرونا الإنجليز من أطراف أنوفهم. لكني لا أعرف بالفعل ما الذي أصابه ليتغير فجأة بمجرد أن وقعت عيناه على أناس من بني جلدته إلى درجة جعلتني أحمد الله على وجود هؤلاء الإنجليز على متن سفينتي. أشرق وجه روبنز كمصباح أضيء فجأة وانخرط في حديث عجيب مع الكاهن، أقاويل عن أقارب وجيران ومعارف مشتركين وأصول عائلات وأسماء وأشخاص، صدف أولم يصدف لقاؤهما بهم، وأراهن أنهما لم يسبق لأي منهما مجرد سماع أسمائهم. تلا ذلك ثرثرة انضم إليها بوتر عن أخبار ومشكلات الأمراء وأبناء العائلة المالكة، وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن طويل.

«هل ترغب بإلقاء نظرة على العنابر إذن؟» شعرت بأنه من الأفضل عرض ذلك عليه فاستغللت أول برهة صمت في حديثهم. لم يبدُ على الضابط أنه مهتم بالفعل، ولم يكلف نفسه أكثر من

إلقاء نظرة سريعة على أحد المخازن، ليعود بعدها إلى الحديث مع أصدقائه الإنجليز. وعندما شعر السيد روبنز أنه نال جرعة كافية من الثرثرة ألقى تحية وداع مترددة على أصدقائه ثم نادى على جنوده لينصرف عنا ويدعنا وشأننا. لم أكن أحلم بتفتيش أفضل من هذا.

فوجئت باتساع المدينة عندما وصلنا إلى مالبورن بعد يومين. مساحة من العمران امتدت على بقعة تمددت بسرعة تلوح في بعض أطرافها أبراج كنائس انتصبت في محاولة لاستعادة أمجاد غابرة. أي ظلم هذا، تتجاوز مساحة تلك المدينة ضعفي مساحة مدينة بيل التي لا تزال هناك منسية على شاطئ لا يعبأ به أحد. لكن من جانب آخر كان ذلك بشرى خير بالنسبة لنا. فإن كان هناك ما يكفي من أموال لبناء مدينة كبيرة بهذا الشكل خلال وقت قصير، فلابد لنا من العثور على سعر جيد لحمولتنا السرية. لكننا عندما اقتربنا أكثر رأيت تلك السفن، العديد منها يرسو على رصيف المرفأ الضيق تحت غمامة كئيبة من أسرارها القاتمة، وقد تدلت أشرعتها البالية. انصرفنا للبحث عن مكان للإقامة، بينما انخرط ركابنا في رثاء تلك السفن المتداعية. وخلال تجوالنا رأيت حمالا كهلا يفرغ بعض البراميل ويجمعها على الرصيف. سألته عن قصة تلك السفن المهجورة.

«الذهب»، قال بتهكم. «أو أحلام الذهب». أخبرني كيف ترك البحارة سفنهم وذهبوا للتنقيب عن الذهب. «قمة الجنون. فرغت المدينة. الجميع ذهبوا وراء الذهب وتركوا كل شيء وراءهم ولم يعد بمستطاع أحد في هذه المدينة أن يجد حتى خادما يساعده في طهو طعامه أو حتى في تنظيف ملابسه الداخلية».

«وهل لا يزال بالإمكان العثور على الذهب؟» سأل برو.

هز العجوز كتفيه: «لا يزال التنقيب مستمرا، ولا أحد يستطيع التنبؤ بما يمكن أن تتعثر به وأنت تحفر، والإشاعات كثيرة على أية حال».

نظرت إلى برو وأومأت إليه كمن يتلمظ، وبادلني إيماءة موافقة. ذهب ذهب... الآن فقط أشعر بالسعادة. لم تكن مستعمرة كاب سوى ميناء فقير لا شيء فيه. أما هنا فالذهب في كل مكان وسنحصل على ما يملأ سبعة عنابر منه لقاء ما نحمل من كنوز. لكن ذلك لم يجعلني أشرد وأنسى ما عليَّ القيام به. لدينا الكثير من العمل، وكما يقال ميناء جديد يعني عملا جديدا. قمت على الفور بتكليف البحارة مهمات متنوعة منها إفراغ السفينة مما فيها من خزانات المياه، لعلهم ينشغلون عن المطالبة بالمال لصرفه على ما يشتهون في المدينة، بينما انصرفت أنا لإنجاز المعاملات الورقية التي استدعت زيارة أخرى من الجمارك. لكن هذه المرة كان الزائر متساهلا كالذي سبقه. اسمه بولز، رجل بدين تكسو وجهه لحية سوداء كثيفة لا تترك من وجهه ظاهرا سوى العينين، حتى لتخاله متخفيا وراء قناع أسود. لم يبال بولز هذا بأننا من أيل أوف مان، وهذا ما فاجأني وأراحني صراحة، ثم إنه لم يكلف نفسه عناء سؤالنا إن كنا قد أحضرنا أي حمولة من مستعمرة كاب. اكتفى بالنظر سريعا وبدا له من ظاهر الأشياء أننا لا نحمل شيئا بالفعل. وهكذا تركنا نمضي بيسر كأننا نصحو من غفوة عابرة. ولا أنكر أني بدأت وقتها أحب رجال جمارك مستعمرة فيكتوريا أولئك، رجال بسيطون متساهلون يجب إرسالهم ليعلموا الكابتن كلارك كيف يحسن التصرف.

لم يكد بولز يغادرنا حتى رأينا رجلا ضئيلا يصعد إلينا بابتسامة غطت كل وجهه. تقدم ومد لي يده التي بدت كبيرة جدا مقارنة ببقية أعضاء جسمه. كان من المعتاد أن نرى الكثير من المتطفلين والسماسرة الذين يعرضون خدماتهم من بيع الكحول وتوفير فتيات الليل إلى أمكنة الإقامة وغيرها. لذا لم أبال به وهو يقترب.

«هاري فيلدز»، قدم نفسه مصافحا. «وصلتم للتو، أليس كذلك؟»

«من الكاب كما أعتقد؟»

«وماذا إن كنا؟»

بدا أن نبرتي المتشككة قد أبهجته. «أنا أعقد الصفقات وأسهل عمليات البيع والشراء. أنا في خدمتك إن كان لديك أي شيء للبيع».

«أي شيء مثل ماذا؟»

رمقني بنظرة خبيثة متواطئة: «ومن يدري؟!»

لم نكن نريد في الحقيقة سوى ذلك، لكن كنا بأمسّ الحاجة إلى مشترٍ من نوع خاص. حتى تلك اللحظة كنت أنوي البحث عن رجال من أيل أوف مان، فهم بحارة شجعان، ولا بد من العثور على معارف أو حتى أقارب هنا من بني جلدتنا. لكني تنبهت إلى أن ذلك قد يتطلب وقتا طويلا، وربما لا نعثر على أحد منهم في نهاية المطاف. لا بد أنه في الاعتماد على فيلدز هذا مخاطرة، لكن ما من شيء يؤكد أنه لم يكن ذلك الرجل الذي نحتاج إليه. تبادلنا برو وأنا النظرات، ولم يكن أفضل من أن تكون من أيل أوف مان في لحظة كهذه، إذ بوسعك قول ما تريد بلغتك دون أن تخشى من الآخرين. فبينما الإنجليز مثل بوتر وفيكار يتبادلون الهمسات والنظرات، فإنك تستطيع مع أصدقائك التحدث بما

تشاؤون بلغتكم الأم، من دون أدنى خشية أو حساب لما يمكن أن يفهم أو يسمع الآخرون. يمكن للأيرلنديين أو الإسكوتلنديين فهم بعض الكلمات بصعوبة، لكن بالنسبة إلى الإنجليز لن يكون ما يسمعونه أوضح من رطانة باللغة الصينية. لذا لم نبال أنا وبرو حتى بخفض صوتينا ونحن نتحدث، بل ناقشنا كل ما يتعلق بالرجل، من دون أدنى حرج.

«يبدو لي أنه وغد محتال»، قلت لبرو وأنا أبتسم للرجل الذي ابتهج وبادلني ابتسامة أكثر حرارة.

«لكن أليس هذا هو النوع الذي نحن بحاجة له؟!» قال برو.

«ألا يمكن أن يكون جاسوسا للجمارك؟»

هز برو كتفيه «المخاطرة ذاتها مع أي أحد، يمكن لنا أن نجده».

أجل، برو على حق ولم يكن أمامنا سوى أن نجرب هذا السبيل، وعلى أية حال لم يحن الوقت بعد لكشف أوراقنا. «لكن كيف نجدك إن غيرنا رأينا؟»

لم يبدُ عليه أنه استاء من ذلك، بل رحب وأعطانا اسم حانة يقضي فيها أوقاته في الليل. وعندما استدار وغادرناديت على كينفيغ الذي بدا لي أفضل من يستطيع الاختفاء بين الجموع وطلبت منه أن يتبعه.

بعد ظهيرة ذاك اليوم قررنا التجول وذهبت أنا وبرو للتفرج للمرة الأولى على مدينة أسترالية. شعرنا بالتعب ونحن نمشي في شوارع مالبورن الطويلة المستقيمة بهوائها العابق برائحة الجنون الذي يسبب لك شعورا يشبه الظمأ يحرضك على العنف. مدينة متناقضة كأنها رقع مختلفة، تخال أن الذهب أمطر على أجزاء منها

وأغرقها بالثراء وترك أجزاء أخرى مقفرة وعارية كهيكل عظمي. ترى بناء فخما، بني بحجارة بيضاء كقصر روسي، يجعل جسمك يرتعش وأنت تمر من أمامه لفرط ترفه، وإلى جانبه، مسكن بائس من العوارض وألواح الخشب أو كومة كبيرة من القمامة تتعفن تحت الشمس. عبرنا بأحد الأحياء التي لم تهطل فيها قطرة واحدة من الذهب فيما يبدو، بيوتها عبارة عن أكواخ صغيرة لا يستر جدرانها عن الشارع سوى أسمال أو ستائر أو بقايا صناديق يمكن من خلالها رؤية ما بداخل البيوت، أطفال في الغالب يصرخون وينظرون شزرا إلى من يعبر.

لم يكن الذهب يفرق بين أبنية المدينة فقط، بل بين سكانها أيضا. بعض المحظوظين، من المنقبين كما أظن، يتنعمون بخير المناجم، يتجولون بمظهرهم الغريب وفي كل إصبع من أصابعهم خاتم ذهبي. كانت لهجاتهم تدل على أنهم خليط أتى من كل أنحاء العالم، أيرلنديون وأمريكان وأصول أوروبية متنوعة، بل وكان هناك صينيون بضفائر أيضا. والوحيدون الذين لم أرهم، كانوا سكان أستراليا الأصليون. أذهلني ذلك، وكنت أتوقع أن أرى المكان يعج بهم.

أما من وقف يقتنص فرصة الحصول على قطرات من الذهب، فكُنَّ الفتيات المتبرجات اللواتي رأيناهن بكثرة. كن متأنقات تحسبهن سيدات حقيقيات لولا تسكعهن هنا وهناك. وما إن حل المساء حتى بدأ النشاط يدب في حركتهن وأخذن يدخلن أو يخرجن من البيوت مع استسلام المدينة كلها لغواية الشراب وضجيج المتعة، كأنها لا تريد سوى نسيان نفسها حتى الفجر. كنا نمشي في منطقة صعبة بالنسبة لغريبين مثلنا، لكني تنفست

الصعداء، عندما رأيت الحانة التي نبحث عنها؛ بناء خشبي كبير من ثلاثة طوابق وكينفيغ ينتظر عند الزاوية المقابلة له.

«لم يغب فيلدز عن ناظري طوال اليوم»، أخبرنا بفخر.

«نعم؟»

«لم أره يتحدث إلى أي أحد في زي رسمي أو عسكري. لم يذهب سوى إلى الحانات أو متاجر الخمور. حاولت أن أسأل رجلا عجوزا عنه لمحته يتحدث إليه، لكن كل ما حصلت عليه، كان صراخا ووعيدا وتهديدات: وما شأنك أنت به؟».

«تبدو لي أخبارا جيدة. وهل اكتشفت وجود أي رجال من أيل أوف مان هنا؟».

«أخبرني أحدهم أنه رأى البعض، لكنه ليس متأكدا إن كانوا من مان أم أيرلنديين. وعلى أية حال قال إنهم رحلوا للتنقيب عن الذهب».

لا جدوى... رحلة التنقيب بعيدة وتستغرق زمنا طويلا. نظرت عبر نافذة الحانة فلمحت فيلدز يجلس على إحدى الطاولات. لا يبدو لي أنه جاسوس للجمارك. فلنجرب... على الأقل نسأله أي سعر يدفع؟

ولم يتأخر الجواب، بل كان السعر أفضل مما حلمنا. قال فيلدز إن هناك إقبالا كبيرا على البراندي الفرنسي، خصوصا من المنقبين الذين كانوا في غالبيتهم أصحاب ذائقة مترفة. سيدر علينا ذلك أموالا حقيقية إذن، وفرة من الجنيهات وليس مجرد ما يسد الرمق من البنسات. ما يكفي لإرضاء إيليساد بعد سنوات طويلة من العبوس والشكوى. ولحسن الحظ لم أتردد في المساومة وطلب المزيد، إذ لم يكن الأمر صعبا على الإطلاق، وكل ما فعلت أني سألت وحصلت على

ما أريد. لا بد أني كنت سأقتل نفسي ندما لو لم أفعل ذلك. حديث وبضع كؤوس من الخمرة المحلية وعقدنا الصفقة. هذا كل شيء.

«عظيم، الأمور تسير كما نريد وأكثر»، قال برو ونحن نسير في الظلام بعد أن خرجنا وهو يبتسم كمن عثر على كنز.

لا أستطيع القول إني لم أكن راضيا مثله، لكن رجل أيل أوف مان دائما يتوجس بطبعه، من أي فرح زائد عن المعتاد. وكما يقال، كله كلام إن لم أقبض المال في يدي. قلت ذلك لبرو وحذرته أن علينا أن نتروى لنرى فيما إن كان كل ذلك الكلام المعسول سيتحول إلى واقع بالفعل.

عادت الجدية فجأة إلى وجه برو. «نعم، أنت على حق. وكما يقول أجدادنا، رب تلة تبدو لك خضراء عن بعد وجرداء قاحلة عن قرب».

«كل مد يليه جزر»، أضاف كينفيغ وهو ينضم إلينا.

«لكنه سعر جيد بالفعل، أليس كذلك؟» قلت محاولا استعادة مزاج الرضى ثانية.

«أجل بالتأكيد»، قال برو وقد عادت الابتسامة إلى وجهه.

«بل سبعة أضعاف الجيد»، قال كينفيغ.

«هل تتعطف علي ببنس أو اثنين»، فوجئنا بصوت رجل ضخم ثمل يتكئ على جدار، لهجة لا يمكن أن نخطئها. لغة أيرلندية تنتمي إلى قاع المجتمع في دبلن. أظن أنه كان علي رمي أي قطعة نقود أجدها لدي وأمضي، لكن مزاجي لم يكن مؤاتيا للمتسولين.

«لا، ليس لدي»، قلت بصوت متهكم وأنا أتجاوز الرجل.

«آه، من أيل أوف مان! أعرف كيف يتفوه رجالها بهراء كهذا. من أي مدينة بالضبط إذن؟»

لعب كينفيغ دور المهرج وقال: «من مدينة بيل. كنت هناك، بقعة بائسة لا يمكن للص أن يجد فيها ما يسرق، وكل ما فيها يفوح برائحة السمك البائت من عام سبق. رائحة كريهة!».

توقد وجه الرجل بابتسامة خبيثة. «سمك أم نساء جزيرتكم؟»

استفز ذلك كينفيغ فقطّب حاجبيه وقال: «يبدو أنه بحاجة إلى من يلقنه درسا. اذهب أنت يا قبطان وسأهتم أنا بأمره».

آخر ما يريده رجل ينتظر لحظة المد الملائمة أن يتورط في عراك. «دعه وشأنه. لا يستحق أن توسخ يديك في قذارة كهذه. كما أن علينا العودة إلى السفينة».

وليتني لم أتفوه بكلمة، فما إن سمع الرجل حتى تلقف سؤالا جديدا: «وإلى أين تبحرون؟».

«إلى مكان هادئ قرب مرفأ فيليب». امنح ثقتك لأيرلندي وانظر إلى أين يقودك، كما يقول المثل! لحسن الحظ كان المكان مظلما ومقفرا من أي عابرين. لكن الرجل لم يسكت بل استمر في الصياح: «اذهبوا إلى سفينتكم القذرة وأبحروا إلى أي مكان نتن تريدون. لا يهمني ما تفعلون. وحاذروا من أي رصاصة طائشة تفتت جماجمكم من سجين سافل أو من أي محكوم فار يهيم على وجهه في الأحراش، فهم يملؤون الشواطئ هنا ويتضورون جوعا. لن يترددوا في التهام رجل من أيل أوف مان على وجبة فطور».

هاربون في الأحراش؟ لم أفهم بالضبط عما يتكلم، لكني حدست أنه أمر سيئ.

المشكلة أن كلمات كهذه لا تنسى بسهولة وكثيرا ما تسبب القلق. وبالفعل، تركنا المتسول وقتها ومضينا تحت جنح الظلام.

لكن سرعان ما أصابنا القلق والتوتر بعد ليلتين فقط إلى درجة جعلت كينفيغ يلجأ إلى تمارين الملاكمة على متن السفينة ويقف في الظلام مسددا ضرباته إلى الهواء. كنا قد أقلعنا باتجاه المكان الذي حدده لنا صديقنا فيلدز على الخريطة، وهو شاطئ رملي على بعد بضعة أميال من المدينة. شيء ما جعل قلبي يخفق على غير العادة ونحن في طريقنا إلى هناك، ربما ترقبي لضوء القنديل، الإشارة المتفق عليها مع فيلدز. نوسان القنديل إلى الجانبين يعني أن كل شيء على ما يرام، أما اهتزازه شاقوليا فيعني أن هناك مشكلة وأن علينا أن نبحر مبتعدين بأقصى سرعة ممكنة. إشارة تعود إلى العصر الذهبي لبحارة أيل أوف مان. تذكرت ونحن ننساب مع مياه النهر باتجاه خليج فيليب في ضوء القمر الشاحب جدي الأكبر الذي لا بد أنه أبحر مثلنا مع رجاله في الليل بحثا عن قنديل مرتقب في تلك الأيام الغابرة. ارتعشت وأنا أتساءل في خاطري، ترى هل تشعر روحه بالفخر وحفيده يعيد أمجاده اليوم؟

استمرت الرياح خفيفة لكن نشطة، وبعد ساعتين لمحت ضوءا خافتا ينوس في جهة الشاطئ. إنها الإشارة! أمرت الرجال بإلقاء المرساة ثم إنزال القارب وانطلقنا نحو الشاطئ. تركت برو في السفينة لحمايتها، وطلبت منه إخراج إحدى بنادق مسافرينا الإنجليز زيادة في الحرص ومضيت مع كينفيغ ورجلين آخرين للتجذيف. كان الضوء شحيحا إذ لم يبلغ عمر القمر أكثر من يومين، لكننا استطعنا تبين ظلال من ينتظرنا على الشاطئ وسط تكسر الأمواج الخفيف. كانا اثنين؛ أحدهما يحمل المصباح، وبديا لي في غبش الليل ذاك أبعد ما يكونان عن مجرمين متربصين. عندما

نزلت من القارب اقترب أحدهما ورفع القنديل فتبينت أنه فيلدز. «قبطان كيولي، وصلت في موعدك تماما».

«نعم، لحسن الحظ». ناولته زجاجة براندي فرنسي كنت قد جهزتها معي فتشممها على الفور ثم رشف منها.

«مذاقها جيد». لكن إعجابه بالتبغ كان أقل وقال إن فيه نكهة رطوبة. ثم أخبرني أنه سيأخذه مع ذلك. «هل بقية البضاعة كلها في السفينة».

«أجل، كلها في السفينة».

«وأين أخفيتها بالضبط؟».

أسئلة عن أسئلة تختلف، لكن فضوله الشديد هذا أزعجني فأخذت البراندي والتبغ من يده ووضعتهما في الكيس ثم ألقيتهما في قاع القارب. «أين الذهب الذي أحضرته؟»

«هناك في الخلف»، قال ثم أخذ يمشي، لكن القنديل في يد رفيقه الذي تبعه لم يكشف سوى عن ظلال تتراقص على الرمل وظلمة حالكة تحيط بكل شيء.

أثار ذلك ريبتي. «ألم يكن من الأفضل أن تحضره إلى هنا».

أجاب بصوت متشكك بدوره: «أتريد الذهب أم لا؟»

كان سؤالا واضحا، لكنني لم أملك إجابة سوى أن أتبعه. أشرت لكينفيغ ورفيقيه في القارب أن يراقبا بحذر، ثم مضيت وراءه في الظلام وقدماي تغوصان في الرمل. تراقص القنديل في يد الرجل فلمحت صفا من الأشجار، وسمعت حفيف أوراقها في الهواء الخفيف، ثم ما لبثت أن تبينت ما يشبه مكمنا أو ملامح بناء ما وأمامه شبح رجل ضخم بحمل ثقيل على ظهره. لم يقلقني الأمر للوهلة الأولى، لكن ما إن تقدمت بضع خطوات أخرى حتى

لمحت رجلا آخر يخرج من بين الأشجار. لم أرَ في الأمر ما يثير الريبة حتى رأيت سبطانة بندقية في يده تلتمع تحت ضوء القمر الشاحب، وقد سُددت مباشرة نحو صدري. وما زاد من هلعي أن الرجل كان دون رأسي. لكن ذلك لم يكن سوى خديعة الظلام حولنا، فالرجل كان بلحية سوداء كثيفة تغطي كل وجهه ولا تترك سوى بريق عينيه الشاحب.

«أليس هذا القبطان كيولي؟» قال بولز من جمارك ميناء مالبورن.

أي حظ عاثر هذا! كنت أفضل أي لص أو مجرم من الشاردين في الغابات على قذارة رجال الجمارك أولئك. لا بد أنه شك في أمرنا منذ اللحظة التي وطئت قدماه فيها السفينة وأرسل وراءنا جواسيسه ليوقع بنا. ولقد نجح بالفعل بعد كل تلك المسافات الشاسعة التي قطعناها! هكذا، نصل إلى آخر العالم لنقع في شباك هذا النتن. لماذا؟ ألم يكن من الأفضل أن نختصر كل ذلك ونقع في يد الكابتن كلارك منذ البداية؟

انتبهت رغم توتري لحظتها إلى أمر غريب في تصرف بولز. فهو لم يشهر في وجهي أي قيود عندما خرج من بين الأشجار، ولم يصرخ آمرا باعتقالي كما توقعت، بل اكتفى بالوقوف والتحديق بي صامتا. لكنه تكلم أخيرا: «لا يستطيع أحد أن يفلت مني بما يخفيه أو يهرّبه على هذه الأرض». كلام غريب، لم أعتد على سماع مثله من رجال الجمارك. ولأن الحياة علمتني أن ما من شيء يجعل الرجل يتحفز لاقتناص فرصة جديدة أكثر من خشيته من خسارة كل ما يملك انتبهت إلى تفاصيل المشهد. نظرت جيدا فرأيت أن بولز لا يرتدي زي الجمارك الرسمي، بل مجرد معطف قديم.

ألم يراقب كينفيغ فيلدز جيدا. لم يره يتحدث أو يجلس إلا مع الحثالة واللصوص والمشبوهين. لا بد أن كل شيء قد حُبك جيدا، وأن فيلدز هذا هو المايسترو الذي يقود اللعبة كلها.

«آه، لقد قبضت علينا أخيرا يا سيد بولز»، قلت متصنعا الحزن.

«كان يجب أن أحجز سفينتك وأصادر حمولتها لصالح أملاك جلالة الملكة».

لم يرن من كلماته بكل ما فيها من حدة سوى كلمة «يجب». تلفظها بطريقة جذبتني وفضحت ما في دخيلته. «معك كل الحق يا سيد بولز، لكن ما يؤسفني فيما ستفعله أن جلالة الملكة لديها ما يكفي من البراندي والتبغ الفاخر، أليس كذلك؟» وبدلا من أن يضربني لتطاولي هذا، رق صوته وخفت نبرته الحادة.

«هل هذه زيارتك الأولى لميناء فيليب؟»

«أجل، إنها كذلك».

«امممم..».، أبعد سبطانة بندقيته عني وأسندها إلى الأرض. «يتوجب علي اعتقالك من جراء فعلتك هذه، لكني لا أحب أن أكون قاسيا على من يخطئ للمرة الأولى، ولا يبدو لي أن الأوان قد فات لإصلاحك».

جاريته في نبرته: «أنت على حق يا سيد بولز. أجل، لكن هل كان أي منا ليفعل هذا لولا الحاجة، ولولا أن عائلاتنا تعاني الفاقة وتكابد تجوع». قلت وأنا أفكر ما الذي يريده مني بالضبط. المال؟ سيكون هذا مشكلة، لم يتبق معي بنس واحد.

«لكن حتى لو عاملتك بكرم وتساهل يبقى السؤال، ماذا سنفعل بحمولتك. هذا واجبي كما تعلم، ولا أستطيع التقصير به».

هـذا مـا يريـد إذن، الحمولـة. ربمـا يكـون هـذا أخـف وطـأة. «آه، مـاذا سـنفعل؟»

«المشـكلة أن الأوان قـد فـات للتصريـح بشـكل رسـمي عنهـا، فقـد تـم إصـدار الأوراق الرسـمية وتوقيعهـا. لكنـي مـع هـذا أريـد مسـاعدتك للخـروج مـن هـذه الورطـة».

«سـيكون أولادي في غايـة الامتنـان لـك عـلى هـذا المعروف وسـتغرق عيونهـم بالدمـوع وهـم يبتهلـون من أجـل أبيهم المسـكين».

بـدأ في تلـك اللحظـة بهـز رأسـه كـما يفعـل الإنجليـز عندمـا ينتحلـون هيئـة المفكريـن. «أعـرف شـخصا يمكنـه أن يقـدم لنـا هـذا المعروف ويسـاعدك في التخلـص مـن الحمولـة بطريقـة هادئـة تجنبـك السـجن وتخلصنـي مـن موقفـي الحـرج أيضـا.

هـا قـد بـدأت المسـاومة، وكل مـا قالـه لم يكـن سـوى مقدمـة لم تطـل، حتـى طـرح سـعره، فشـعرت أني أخطـو عـلى أرض صلبـة للمـرة الأولى. لم يكـن سـعرا جيـدا عـلى كل حـال، وأقـل مـما جعلنـا فيلـدز نحلـم بـه، لكـن لم يكـن بالـغ السـوء، مـع ذلـك إذن هـو قريـب مـما توقعتـه في مالـدون. لا بـد أن البرانـدي والتبـغ رفاهيـات مرغوبـة هنـا.

«لكـن عـلي تحذيـرك أن ذلـك الشـخص لا يقبـل المسـاومة عـلى الإطـلاق».

لم أشـأ أن أستسـلم للطمـع. «كـما تريـد يـا سـيد بولـز». وهكـذا اتفقنـا. وبينـما كنـا نمـشي نحـن الخمسـة نحـو القـارب وظلالنـا تتراقـص عـلى الرمـل عنـد أقدامنـا رحـت أفكـر بالذهـب الـذي سـنقبضه ثمنـا لكنزنـا المخبـوء. أجـل، كان أقـل مـما حلمنـا بـه، إلا أنـه يكفـي ليسـد حاجـة كل البحـارة عـلى متـن السـفينة ولـكي يوفـر لنـا مـا نشـتهي لوقـت طويـل وفوقـه مـا يكفـي مـن المدخـرات. ولأنـه لا نفـع مـن

سفينة دون حمولة أخذت أفكر فيما يمكن أن نحمله من هذه الفيكتوريا من بضائع مربحة، حتى ولو كانت قانونية.. الحبوب مثلا. لم لا؟

لكن خواطري تلك لم تستمر طويلا، فبعد قليل فوجئنا بمجموعة رجال ينبثقون من الظلام وينقضّون علينا فجأة، وشعرت بشيء طويل أشبه بالمجذاف يمر بجانبي ويصيب بولز في رأسه ليسقط على الأرض مع بندقيته. بعد ذلك سقط فيلدز بنفس الطريقة أيضا. ولم أرَ شيئا سوى القنديل يهوي على الأرض وينطفئ ثم سمعت أصوات خطوات تركض مبتعدة.

«هل أنت بخير يا قبطان؟» كان صوت كينفيغ. لا يمكن أن أخطئ ذلك، وكان صوته مفعما بالفخر والثقة.

إلا أن فرحته لم تدم طويلا. «أيها المعتوه، ماذا فعلت؟!»

تجمد من الذهول ككلب تلقى ضربا مبرحا لأنه عاد بالعصا. «لكنهم كانوا من الجمارك، أليس كذلك؟ ذلك الرجل ذو اللحية السوداء. وكان يحمل بندقية..».

يا له من أحمق! نظرت حولي في الظلام وسألت «أين ذهب الاثنان الآخران؟»

أجاب فارتن كليغ رفيق كينفيغ في تلك المأثرة البلهاء: «لقد فرا».

يا لحظي المنحوس! كل ما يجري يبدو لي مجرد مزاح ثقيل. لقد فرا إذن؟ الرجلان، الذي كان يحمل القنديل وذلك الذي كان يحمل حقيبة محشوة بالذهب؟!

فوجئ كينفيغ كأنه يسمع أخبارا لم يتوقعها.

«ذهب؟»

«نعم ذهب كان بولز سيعطينا إياه قبل أن يتفتق ذهنك النيِّر عن الفكرة العبقرية بأن تضربه على رأسه». رفعت القنديل الملقى على الأرض وحاولت النظر حولي فلم أرَ شيئا. «لا بد أنهما ابتعدا كثيرا عن هنا».

«كنت أحاول حمايتك»، قال كينفيغ كولد اتُّهم بما فعله أخوه الصغير. «ألم تقل لي أن أراقب ما يجري بحذر؟!»

ألقيت نظرة على بولز وفيلدز فوجدت أنهما يتنفسان لحسن الحظ، لكنهما في وضع لن يسمح لهما بمتابعة الصفقة، هذا إن تمكّنا من إسعافهما. فكرت أنه لا بد لنا من إخبارهما بأننا لسنا من فعل ذلك. «احضروا لي ماء».

ملأ كينفيغ دلوا من ماء البحر ودلقه فوقهما، لكن من دون جدوى. لم يغير ذلك من حالتهما شيئا سوى أنه بللهما.

«أظن أنه بإمكاننا الانتظار»، قال كليغ.

لكنني نظرت إليهما بتفحص فعلمت أننا في ورطة حقيقية. ماذا لو نهض بولز وأراد القبض علينا. هل بوسعنا ضربه مرة أخرى؟

«ربما علينا أن نذهب على الفور»، قال كينفيغ وقد بدأ الخوف يسيطر عليه. «يجب أن نمضي، نرفع المرساة ونرحل عن هذا المكان».

حتى هذا لا يبدو سهلا. ماذا سنقول للسيد روبنز الذي يرصد كل حركة في زورقه ذاك لو رآنا نغادر الميناء دون المسافرين الإنجليز؟!

لم يخطر شيء من هذا في بال كينفيغ الأحمق بالطبع. نحن في مأزق لا فكاك منه. ليس أمامنا سوى أن نجد ركابنا الإنجليز، ورغم أن ذلك قد يستغرق وقتا طويلا، إلا أنه ما من سبيل أمامنا سوا بالمحاولة.

حملنا الرجلين إلى المكمن الذي التقيت بهما عنده. مددناهما بجانب جدار صغير، لكنني أردت فعل المزيد كي لا أستعدي بولز ضدنا أكثر. طلبت من كينفيغ أن يضع قربهما ماء للشرب وكمية من البسكويت ثم كتبت لبولز رسالة وضعتها في جيبه قلت فيها إننا لسنا نحن من فعل به ذلك، بل بعض الأوغاد الذين هربوا. أسرعنا بعدها إلى القارب وانطلقنا عائدين إلى السفينة. وجدنا برو والآخرين ينتظرون قلقين ببنادقهم على درابزين السفينة.

«تأخرتم كثيرا يا قبطان. ما الذي جرى؟»

«علينا الإبحار فورا».

كنت في لحظة آمل أن بولز لن يقدم على مطاردتنا للانتقام منا لأنه كان متورطا بالخداع على أية حال، حتى لو تمت الصفقة. وكنت في لحظة أخرى أخاف من ردة فعله الغاضبة التي قد تحرره من أي حذر، وتمنيت لو أننا لم ندلق عليه ماء البحر بتلك الطريقة. لكن كل شيء سيان الآن، وأهم شيء نفعله أن نوسع المسافة التي تفصلنا عن هذا الرجل بضع مئات من الأميال. لم أكن أدري كم يمكن لرحلة أن تكون بهذا البطء عندما يمكن لبضع دقائق أن تحدد المصير بين خيارين، الحرية أو السجن. لكن أي عمل شاق رفع المرساة في لحظات كهذه. إنه عمل شاق حتى في الظروف العادية، الفعل لم يسبق أن كان شاقا كتلك الليلة. تطلب الأمر وقتا طويلا وصراخا وكثيرا من التوجيهات، كأننا كنا ننتشل المرساة من هاوية عميقة أو من جحيم بعيد غرقت فيه، ولم أكد أصدق عندما تحركت الإخلاص في النهاية. وكأن كل ذلك لم يكن كافيا حتى تعاكسنا الريح أيضا. كان علينا أن نسير بعكس اتجاه الرياح، بل وحتى القمر غاب وتركنا في ظلام دامس لا نتبين فيه طريقنا أو

جهتنا. وصلنا مع الفجر، ولحسن حظنا كانت مالبورن كلها غارقة في الصمت ونحن نقترب بالقارب من المكان الذي غادرناه سابقا دون أن ينتبه إلينا أحد. كنت أتوقع جمعا من رجال الجمارك والشرطة يعدون لنا استقبالا لائقا.

أخبرت كينفيغ أن عليه أن يتحمل كل ما في العالم من أعمال قذرة لقاء فعلته الحمقاء، من العثور على مسافرينا الإنجليز وإحضارهم، إلى إعادة الخنازير إلى حظيرتها وتنظيفها. «اذهب ولا تعد إلا وأولئك الإنجليز معك. اذهب إلى فندقهم وأيقظهم من نومهم لو تطلب الأمر». ركض مستجيبا بسرعة كمن تملكه الفزع.

لم يعد بعد ذلك من شيء أفعله سوى الانتظار، وبما أني قضيت الليل كله دون نوم، فقد فكرت أن أنزل إلى قمرتي وآخذ قسطا من الراحة. لكن ذلك لم يكن سهلا فالشمس كانت قد أشرقت وقتها وبدأ جوف السفينة يسخن كفرن. استلقيت ورحت أتقلب كسمكة ألقيت على سطح السفينة لكن ما من طريقة أفضل لطرد النوم أكثر من مطاردته. ربما غفوت للحظات لأني صحوت بعدها على خبط أقدام وضجيج، وأغراض خلتها للوهلة الأولى جلبة ركابنا الإنجليز، وهم يجرون متاعهم. تنفست الصعداء أنهم عادوا، لكن سرعان ما خاب ظني. انتبهت أن الأصوات كانت تأتي من جهة المهاجع ولا يمكن أن تكون من المسافرين. نهضت وأنا أتثاءب وأفرك وجهي ثم صعدت لأتحرى حقيقة الأمر. أول ما رأيته كان ريتشي مور صانع الأشرعة ومعه ثلاثة بحارة يقفون على سطح سفينتنا العتيقة التي ربطنا مصيرنا بها وأمتعتهم عند أقدامهم متأهبين للرحيل. لم يكن الأمر بحاجة إلى ذكاء العلماء لإدراك ما الذي يجري. كالفئران كانوا يريدون

الفـرار مـن المحنـة التـي كنـا نواجههـا جميعـا، بـل إنهـم تجـرؤوا عـلى تحريـض الآخريـن للانضـمام إليهـم. «لا تخافـوا، تعالـوا معنـا... بوسـعنا جنـي ثـروة مـن الذهـب».

«عودوا إلى أمكنتكم»، صرخت بهم.

اكتفـى ريتـشي مـور بهمهـمات غامضـة، لكـن المفاجـأة كانـت في بـرو رئيـس البحـارة الـذي وقـف بخيـلاء فـارس يتحـدر مـن سـلالة إمبراطـور. هكـذا وقـف ينظـر إلينـا صامتـا وكأن الأمـر لا يعنيـه. «لمـاذا لم تنبهنـي إلى مـا يحـدث بحـق السـموات السـبع؟».

لم يـرف لـه جفـن، ولم يظهـر أنـه شـعر بـأدنى حـد مـن الخجـل. «كنـت عـلى وشـك أن أفعـل يـا قبطـان».

لم يكـن مـن الصعـب علـي اكتشـاف مـا يـدور في رأس ذلـك المأفـون. أجـل، مـن الواضـح أنـه يفكـر بالانضـمام إليهـم والرحيـل. وهكـذا اكتشـفت في لحظـات أي مصـير يمكـن أن أواجـه هنا. سـأفقدهم جميعا إن لم أفعـل شـيئا، لأجـد نفسي أعـزل تمامـا وفريسـة سـهلة للإنجليـز في أسـتراليا حيـث مـا مـن شيء ينتظـرني سـوى أن أذوي في السـجون تـاركا الإخـلاص هنـا، مهجـورة تتعفـن كتلـك السـفن التـي رأيناهـا. لكـن لم يكـن بوسـعي رغـم كل شيء أن أتـرك الموقـف يمـر مـن دون عقـاب.

الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857

تطورت لدى القبطان عادة مزعجة للغاية؛ أن نغادر أي مرفأ نرسو فيه على وجه السرعة ودون سابق إنذار. وفي هذه المرة كان رسوله إلينا مساعد رئيس البحارة، وهو رجل ضئيل يدعى كينفيغ. وأي رسول كان! غاية في قلة الذوق والسلوك غير المتحضر. جاءنا في الليل وأخذ يقرع على أبوابنا بفظاظة مقيتة لإيقاظنا. قد يُبرر تصرفه الأرعن هذا مع بوتر ورينشو، ولكن ليس معي أنا الذي أصحو مع الفجر والذي كنت في تلك الليلة بالذات قد صحوت وارتديت ملابسي، بل وكنت قد كتبت بضعة سطور في يومياتي.

«ريح معاكسة، مرة أخرى..». هذا كل ما قاله ببرود لدى سؤالي عن طلبه المفاجئ بأن أجهز نفسي للرحيل فورا.

«وماذا عن الإفطار؟»

«لا وقت لذلك».

قد أكون رجلا لطيفا، ومتساهلا في أغلب الأحيان، لكن ليس في كل الأمور بطبيعة الحال. ومن بين هذه الأمور وجبة الإفطار، خصوصا عندما أكون قد دفعت ثمنها سلفا بصرف النظر إن تناولتها أم لا. لذا نهضت وحسمت الموقف وقلت إني غير مستعد للتضحية

بوجبة الصباح من أجل الرياح، ولا حتى من أجل السفينة ذاتها. تجاهلت إلحاحه وأخذت مكاني على مائدة الطعام ثم أخبرته أني سأطلب مزيدا من البيض إن لم يتركني أتناول طعامي بسلام.

لم يكن خبر رحيلنا المفاجئ -والحق يقال- سيئا تماما بالنسبة لي. فبعد ثلاثة أيام في مالبورن بدأت أشعر بالسأم من هذا الميناء، خصوصا أن تقلبات الطقس والرياح كما أوضح لنا بوتر ذات مرة لا يمكن حسابها بشكل دقيق في هذه البقعة من العالم. والحقيقة أن القلق استبد بي من فكرة أن نتأخر في رحلتنا أكثر بعد ما أضعناه من أيام، بل ومن أسابيع ربما. كل ذلك عدا أني وجدت مالبورن ذاتها مدينة تفتقر إلى أي بعد روحي؛ إذ إن كل من يعيش فيها لا يفكر إلا في شيء واحد. فكلما جربت أن أحدث من ألتقي من رجال على مائدة العشاء عن بعثتنا وأهدافها أواجه بالسؤال ذاته: لماذا لا أبقى هنا في مستعمرة فيكتوريا وأوظف معارفي الجيولوجية في التنقيب عن الذهب؟! كأنه ما من ثروة في حياتنا سوى المعادن. وعندما أخبرهم أن طموحاتي تنتمي إلى عالم آخر أكثر سموا ونبلا يتصرفون بقلة تهذيب، يرمقونني بنظرات متهكمة ثم يعودون إلى أحاديثهم عن الأسعار والتنقيب.

أما رفيقاي فقد فوجئت بأن المدينة أعجبتهما. اختفى رينشو كعادته منذ الليلة الأولى، وعندما تحدثت إليه في الأمر لاحقا قال لي إنه كان فقط يتفرج على معالم المدينة. لم يكن لدي دليل ضده بطبيعة الحال. ومثله كان بوتر غائبا طوال الوقت، لا أحد يعرف أين، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن طبيعة الأمور التي كانت تشغله، إلى أن جاء ذلك الصباح الذي قرع فيه كينفيغ أبوابنا طالبا منا الاستعداد للرحيل. كانت وجبة الإفطار قد أصبحت

أمامي عندما رأيت رينشو وبوتر ينزلان الدرج بتثاقل وقد شحب وجهاهما ببقايا النوم والنعاس وبدا عليهما الامتعاض الشديد لإيقاظهما هكذا على وجه السرعة. ثم بعد لحظات سمعت بوتر وكينفيغ يتجادلان.

«لكن هذا مستحيل. لدي على الأقل ست حقائب كبيرة يجب إحضارها، كلها دفعت ثمنها. ثم هناك خادمي هوبر، أحتاج لساعة على الأقل كي أستدعيه إلى هنا».

«ماذا؟» لا أنكر أن الرجل أغاظني بالفعل. هكذا عادة بوتر دائما، يقرر ويفعل أشياء دون الرجوع إلي واستشارتي، أنا قائد هذه البعثة. كنا قد اتفقنا في لندن على الاستغناء عن الخدم خلال إبحارنا، فلا الميزانية تسمح برفاهية كهذه، ولا حتى حجم السفينة. وها هو يفعلها دون أن يرف له جفن!

«ألم نصل إلى أستراليا؟ انتهت رحلتنا في البحر. ثم لا تقلق يا فيكار، سأدفع نفقات هوبر من جيبي الخاص».

لو كنت أعلم أنه سيفعل ذلك لقمت بالبحث عن خادم لي أنا أيضا، على الأقل للحفاظ على هيبتي كقائد للبعثة. لم يتبق وقت لذلك. «لكن قد لا يكون له مكان على متن السفينة. لا بد لي أولا من طرح الموضوع على القبطان كيولي».

قطب الدكتور حاجبيه، لكن لم يكن بوسعه فعل شيء، وقد بدا للجميع أنه على خطأ. أُرسلت في هذه الأثناء عربة لإحضار الرجل وحقائب بوتر مما جعل كينفيغ يتململ غضبا، إذ إن ذلك تطلب وقتا لم يكن بالقصير. توقعت أن المتاع المنتظر لن يكون أكثر من بضع حقائب تحتوي على حاجيات بوتر الشخصية، لكني فوجئت بوصول ستة صناديق خشبية غاية في الضخامة.

«لمَ كل هذا بحق السماء؟!»

«عيناتي الطبية».

نفد صبري وأنا أنظر إليه. «كان يجب عليك أن تأخذ موافقتي قبل أن تقوم بشرائها. قد تكون عنابر السفينة مليئة ولا نجد مكانا لها».

«كلنا نعلم أنها فارغة»، قال وهو يضرب بقدمه الأرض في حركة تخالف أدنى قواعد اللياقة والتهذيب.

«حسنا، سنرى إذن»، قلت وأنا أكظم غيظي وكلي إصرار على ألا أسمح له بابتزازي.

وصلت بعد قليل عربة تحمل هوبر، الخادم الجديد. حاول بوتر أن يصور خادمه ذاك عبر المديح كرجل ذي خبرة مرموقة اكتسبها من عمله مع طبيب مشهور في مالبورن. لكني وجدته في الواقع رجلا رث الثياب، فظّا ولا يدل مظهره سوى على أنه كان أحد الفاشلين في التنقيب عن الذهب. استطعنا العثور على عربة كبيرة يمكن أن تقلنا جميعا إلى المرفأ، لكن مع الخادم وحمولتنا الكبيرة من الصناديق لم تكن كافية. عمل كينفيغ والحوذي والخادم على تحميل الأمتعة، ورغم كل ما بذلوه من جهد لترتيبها كانت تلك الرحلة غاية في الإزعاج، حشرنا كلنا مع المتاع وطوال الطريق ظهري يحف بأحد الصناديق الخشبية ولم نصل إلى حيث ترسو الإخلاص إلا وجسدي كله يؤلمني.

وجدنا الإخلاص جاهزة للإقلاع، بل وكان قاربا القطر قد أُعدّا لسحبها خارج المرسى. لكني عجبت لأمر الريح التي لم تكن قوية كما قال كينفيغ، بل هادئة لا يمكن ملاحظة سوى نسمات خفيفة منها. ربما كان القبطان يتوقع تغير الأنواء في الأيام المقبلة ويخشى أن تتلاشى حركة الرياح بشكل كامل. وجدته في حالة من

التوتر والشرود، وعندما أخبرته بأمر بوتر وصناديقه والخادم الذي أحضره لم يبدُ أنه سمعني، وأشار إلى بحارته أن يفرغوا من تحميل المتاع سريعا. كان سلوكه في الحقيقة يخلو من اللباقة. أما بوتر فكان يراقب وقد أشرق وجهه عندما رأى القبطان يتجاهلني.

لم يخلُ الصباح من المنغصات، ولأني كنت متعبا، لم أقف مع الآخرين على سطح السفينة وهي تتحرك ببطء عبر مجرى النهر باتجاه المحيط، بل نزلت إلى قمرتي أنشد بعض الراحة والهدوء. لم يمض وقت طويل حتى ابتعدت الإخلاص أميالا جعلت المدينة وراءنا تبدو كمعالم غامضة في الأفق. صعدت إلى السطح ثانية وبينما كنت أتأمل المشهد وأفكر كم من الوقت نحتاج للوصول إلى تاسمانيا، انتبهت إلى أمر غاية في الغرابة. كان البحارة منخرطين كالعادة في رفع الأشرعة وتوجيهها، لكن الغريب أن عددهم لم يكن يتجاوز الخمسة وبينهم برو رئيس الطاقم الذي لم يكن من عادته أن يعمل بنفسه هكذا. والأغرب أني عندما نظرت إلى قمرة القيادة ورائي رأيت أن من يوجه الدفة ليس أحد البحارة كما اعتدنا، بل القبطان نفسه.

«ما الذي جرى؟ هل أصيب بعض الرجال بالمرض؟»

«ليسوا مرضى»، تجهم وجه القبطان وهو يجيبني. «تركنا بعضهم وراءنا».

صدمني الجواب ولم أستوعب شيئا. «ما الذي تعنيه؟»

«لسنا بحاجة لهم»، قال وهو يشيح بوجهه عني وينظر إلى الأفق.

«ولما لا نحتاجهم؟»

هز بكتفيه ثم قال: «في السفينة أشرعة وحبال وعتاد إضافي نحمله للاحتياط. وبالمثل، أولئك لم يكونوا سوى طاقم إضافي».

الفصل العاشر
بيفاي، 1831 - 1835

لم أعتد أن أكون قريبا من رجل أبيض بهذا الشكل، أمشي معه وأستطيع لمسه إن شئت، وكل ما رأيته من قبل كان خلال انقضاض أولئك القتلة علينا أو خلال رميهم بالسهام. ها هو روبسون، يقودنا هنا وهناك بنشاط وسرعة كأنه لا يكل ولا يمل، رجل بدين، وكغيره من البيض يرتدي جلدا قذرا يسميه ثيابا. كان يضحك على الدوام ولا يكف عن الحديث عن الرب.

«من خلقك؟» يسأل بنظرته الغريبة تلك، وعندما لا أجيب يفعل هو بصوت مفعم بالحزن كأنه يتكلم مع من يعاني من محنة ما: «الرب خلقك». وبعد لحظات يعيد الكرَّة كأنه لم يكتف أو لم يحقق غرضه. «من خلقك يا بيفاي؟» ولكي لا أجعله يتسربل بالحزن مرة أخرى، ويعيد السؤال تلو السؤال أجيبه بسرعة: «الرب خلقني»، فيبتسم عندها راضيا.

أول مرة أسمع فيها عن إله الرجل الأبيض الذي يسمونه الرب كانت مع روبسون.

بالطبع لم أكن أعتقد أن إله ذلك الرجل هو من خلقنا، بل آلهة أخرى سرية وحدنا من يعرفها. لكني لم أشأ أن أقول ذلك

لروبسون فأسبّب له الكرب بينما يعمل هو بكل لطف على إنقاذنا، عدا عن أنه لا يصح إفشاء أسرار كهذه للأغراب. وفي الحقيقة كان رب روبسون لغزا محيرا بالنسبة إلي. فبينما نحن نعرف أين آلهتنا ونستطيع رؤيتها في الليل تشع في أعالي السماء يجيبني روبسون كلما سألته أين ربه أنه في كل مكان، بل ويقول إنه في داخل كل إنسان. أي أحجية هذه! شعرت بالنفور عندما قال لنا إننا إن لم نؤمن بأن الرب في كل مكان فإنه سيغضب منا ويرسلنا إلى مكان فظيع نحترق فيه. آلهتنا لا تفعل ذلك، بل ولا تبالي أصلا إن كنا نعرف مكانها أم لا، فهي في السماء، وهذا كل شيء.

عدا جدالنا في موضوع الرب ذاك كانت أمورنا تتحسن في تلك الأيام. فبعد أن خطف منا داء السعال ثلاثة أشخاص توقف الموت عن زيارتنا ونجا من تبقى منا بمن فيهم أمي، وهذا أكثر ما أراحني، رغم أن المرض تركها عليلة واهنة القوى وتحتاج إلى من تستند عليه حين تمشي مما جعل مسيرنا دائما بطيئا. كانت الوحيدة التي تحقد على روبسون ولا تزال تريد منا أن نقتله بسهامنا، وتعيد تكرار طلبها هذا مع كل نفَس أو وجبة طعام أو شربة ماء. كنا نعرف أنها تتحين الفرصة لتقتله بنفسها حال استردادها لقوتها، لذا حرصنا على مراقبتها ومنع السهام عنها.

كنا قد بدأنا نحبه ونشعر أنه واحد منا. صحيح أن رائحته غريبة وكالرجال البيض يرتدي ذلك الجلد الميت، لكنه لم يكن يشبههم في شيء آخر، بل كان يجيد التحدث بلغتنا رغم بعض الأخطاء الغبية التي لا يمكن إلا أن تثير الضحك. لم نرَ من قبل رجلا أبيض مثله. كان يشاركنا في كل شيء، يأكل ويشرب معنا ويرقص أيضا ويعزف في مزمار طويل يسميه الفلوت. قال إنه

قـضى صيفـين في البحـث والتجـوال حتـى وصـل إلينـا بغيـة إنقاذنـا، وإن الكثـير مـن أبنـاء جلدتنـا قـد رحلـوا إلى المـكان الآمـن الـذي حـدده. ومـا كان يثير دهشـتنا حقـا أنـه عندمـا يتحـدث عـن الرجـال البيـض يفعـل ذلـك بغضـب وبـازدراء وضغينـة كأنهـم ليسـوا مـن أبنـاء جلدتـه البتـة، بـل كثـيرا مـا وصفهـم بالقتلـة والأشرار وبـأن قلوبهـم مليئـة بالحقـد، تمامـا كـما يشـعر أي واحـد منـا. أجـل كنـت أحـب روبسـون في أيـام رحلتنـا تلـك صـوب البحـر، ولطالمـا شـعرت بـأني أخـوه الصغـير. «أهـلا يـا صديقـي الصغـير»، هكـذا كان يقـول لي وهـو يربـت عـلى رأسي. كنـت صغـيرا حينهـا وتخيلـت أن خطـأ مـا قـد حـدث وأن هـذا الرجـل هـو أبي الحقيقـي، بـل إننـي حلمـت أن قلـب أمـي صفـا مـن ناحيتـه ولم تعـد تريـد قتلـه وأصبحـت تقـف معـه وتشـاركه في الحنـو عـلي ورعايتـي.

هـا هـو روبسـون، ذلـك الرجـل الـذي أحببـت، يمـشي معنـا الآن، يرشـدنا إلى الطريـق ويخبرنـا أن ننعطـف هنـا ونغـير مـن جهتنـا هنـاك، يسـألنا عـن اسـم شـجرة أو حيـوان ويضحـك كلـما انزلـق في الوحـل وسـقط أرضـا. كل مـا كان يفعلـه مـن أجـل إنقاذنـا، وكثـيرا مـا أردت أن أخـبر الجميـع أن وجـود هـذا الرجـل معنـا إنمـا بسـببي أنـا حـين أوقـدت النـار في الغابـة فجعلتـه يكتشـف مكاننـا.

بـدأت المتاعـب عندمـا وصلنـا إلى إحـدى بلـدات البيـض. لم نكـن قـد رأينـا مكانـا كهـذا مـن قبـل عـدا أولئـك الذيـن سـبق أن رافقـوا روبسـون قبلنـا مثـل أخـت كورديـف. وحتـى هـؤلاء تملكهـم الرعـب عندمـا وقفنـا عـلى تلـة قريبـة ونظرنـا إلى بيـوت البيـض الضخمـة.

«ماذا لو لم يتذكروك؟» سأل هيديك.

«بل سيتذكرونني»، قال روبسون ضاحكا.

وهكـذا تابعنـا سـيرنا. لم يكـن أولئـك البيـض يعرفوننـا، لكنهـم تذكـروا روبسـون بـلا شـك ووقفـوا أمـام منازلهـم ينظـرون إلينـا كأننـا كائنـات غريبـة تثـير الفـزع، وحتـى روبسـون ذاتـه بـدا أنـه يخيفهـم. لكـن الحقيقـة أنهـم هـم مـن كانـوا مخلوقـات بغيضـة بـكل مـا في قلوبهـم مـن حقـد ومـا في وجوههـم مـن قسـوة وبأصواتهـم التـي تشـبه طيـورا تزعـق. تنفسـت الصعـداء عندمـا وصلنـا إلى بنـاء حجـري كبـير يسـمونه السـجن حيـث قـال روبسـون إننـا سـنكون فيـه بمأمـن مـن أعـين أولئـك المتربصـين بنـا. لم يبـق روبسـون معنـا، بـل تركنـا برفقـة بعـض البيـض الذيـن لا نعرفهـم وذهـب. عـاد بعـد فـترة ليقـول مـا أصابنـا جميعـا بالذهـول.

«عليكـم أن تبقـوا هنـا لبضعـة أيـام. أنـا آسـف، فالسـفينة ليسـت جاهـزة بعـد».

أربكتنـا المفاجـأة ولا أدري كيـف تكلمنـا وسـألناه: «ألـن تـأتي معنـا؟».

«طبعـا لا»، أجابنـا روبسـون وهـو ينظـر إلينـا كمـن لا يسـتطيع أن يصـدق أننـا لا نعـرف ذلـك بعـد. «هنـاك الكثـير مـن إخوتكـم وأخواتكـم لا بـد لي مـن إنقاذهـم. لكـن لا تقلقـوا، سـأعود وألتحـق بكـم عندمـا أفـرغ مـن ذلـك، وسـيكون لدينـا الكثـير مـن الوقـت لنبتهـج».

وهكـذا ذهـب وتركنـا وحدنـا في مـكان مـليء برجـال بيـض لا نعرفهـم وفي مـكان حجـري مغلـق، في غـرف صلبـة الجـدران لا نـدري مـا الـذي نفعـل فيهـا وأبوابهـا موصـدة علينـا بإحـكام. بقينـا هنـاك لعـدة أيـام في البنـاء الـذي يسـمونه السـجن، نـأكل مـن طعـام البيـض المقـرف الـذي كان قطـع بسـكويت يابسـة ولحـما مالحـا كميـاه البحـر.

أصابتنا عيون الرجال حولنا بالخوف فحافظنا على السهام جاهزة في أيدينا متأهبين على الدوام، وبالتدريج أخذت الهمهمات تعلو بأن روبسون هو من قادنا إلى هنا ليقدمنا فريسة سهلة وجاهزة للقتل بين أيدي المجرمين. أمي كانت أول من تكلم.

أخيرا وصل رجال بيض جدد يسمون الجنود في أزياء حمراء وكل واحد منهم يحمل بندقية. قادونا عبر البلدة إلى مكان فيه سفينة كبيرة كتلك التي رأيتها ذات يوم في عرض البحر ترفع فوقها جلودا ضخمة تدفعها الريح. كان المركب ذاك سريعا وما إن انطلق بنا حتى بدأت اليابسة تبتعد وتتلاشى إلى أن اختفت في النهاية. كل من على المركب من البيض يحمل البنادق، وكانوا ينظرون إلينا كأننا أعداء مما جعلنا نتساءل فيما إن كان ذلك كله ليس سوى مجرد حيلة لقتلنا ورمينا في البحر دون أن يدري أحد بأمرنا. بقينا متيقظين، لكن شيئا مما تخيلناه لم يحدث ولم ينقض أحد علينا في الليل لقتلنا، وبدا أن المركب ليس خديعة للإيقاع بنا. لم يتعرض لنا الرجال على متن المركب بالأذى، وكل ما كانوا يفعلونه مراقبتنا ورفع تلك الجلود الضخمة وتصغيرها أو تكبيرها لتدفعها الرياح. لا، الخديعة كانت تلك الجزيرة التي وصلنا إليها.

كم كان ذلك مؤلما. كنت أعلم أنه ما من خير يأتي من البيض، وأنهم لا يستحقون سوى القتل بالرماح. لكن روبسون، وحده الذي لم أتوقع أن يخدعنا ويضللنا بالأكاذيب. ألم يعش معنا ويتحدث بلغتنا حتى أحببناه ووثقنا به! أخبرنا أننا ذاهبون إلى أرض جميلة، لكني ما إن لمحت تلك الجزيرة حتى أدركت كم هي ضيقة، كل ما فيها تلة واحدة وما من فسحة تكفي لصيد الكناغر أو من نهر نعبره أو نسبح

فيه، ولا حتى أرض نركض فيها، أقل ما نحتاجه لنكون على قيد الحياة. اقتربت السفينة من الشاطئ فرأيت أكواخا كثيرة مكتظة بأبناء جلدتنا، مشهد لم أرَ مثله من قبل. أنزلوا بعد ذلك قوارب صغيرة تدفعها عصي في الماء لتنقلنا، وما إن وطئت أقدامنا اليابسة حتى رأينا ذلك الفراغ الموحش في عيون من كان ينتظرنا من رفاقنا بصمت، وكأنه ما من شيء يقال لنا في استقبال كهذا. وهكذا تكشّف لي الأمر على حقيقته. لم يكن هذا سوى مكان ننتظر فيه الموت.

قادنا الجنود والريح تلفح وجهي بالرمال إلى قائدهم الذي يدعى العريف ويلكس، وهو رجل تنضح عيناه بالحقد وكأن السم يجري في عروقه، يحمل بين يديه كلبا صغيرا بحجم أرنب. لم يكلف نفسه حتى عناء إلقاء التحية علينا، واكتفى بأن طلب من جنوده أخذنا إلى أكواخ فارغة تفوح منها رائحة كريهة. كل ذلك والجنود لا يرفعون أعينهم عن نسائنا كأنهن لسن سوى أطباق طعام شهية.

لم يكن هناك أكثر مرارة من أن نُخدع بهذا الشكل المريع، وما زاد من غيظي أنني أنا المسؤول. أجل، أنا من أوقد النار في الغابة وأرشد روبسون إلى مكاننا. روبسون، ذلك اللعين الذي عاد ليحضر المزيد من أبناء قومي إلى هذه المقبرة، ذلك الرجل الذي لا يمكنني الآن حتى أن أقول له: أنت كاذب ووضيع. كل واحد منا في جماعة أمي كان يفضّل الموت على البقاء في ذلك المكان حيث ما من شيء يمكن فعله سوى انتظار وجبات طعام البيض المقرفة أو إحصاء من يقتلهم داء السعال.

«قلت لكم يجب أن نقتله»، قالت أمي وقد انتشت بندمنا

الـذي يعنـي أنهـا عـلى حـق. تحـب أن تكـون عـلى حـق دائمـا. «كان ينبغـي عليكـم أن تصغـوا إلي وتنفـذوا مـا طلبتـه منكـم».

لكـن لم يكـن لليـأس أن ينـال مـن أمـي في أي حالـة مـن الأحـوال، بـل لم تزدهـا محنتنـا إلا إصرارا عـلى المقاومـة. كنـت أنظـر إليهـا في أقـصى حـالات حزننـا وبؤسـنا فأجـد في عينيهـا مـا يوحـي بأنهـا تعـد العـدة لفعـل شيء مـا، ومـا إن اسـتردت جـزءا مـن عافيتهـا حتـى بـدأت تـزور مـن يتكلـم لغتنـا في الأكـواخ المجـاورة وتسـتغرق معهـم في أحاديـث سريـة. سـألتها مـرارا عـما كانـت تنـوي فعلـه لكنهـا لم تجبنـي بكلمـة واحـدة.

«البيـض أصدقـاؤك. اذهـب وتحـدث معهـم». هـكـذا كانـت تقـول بغيـظ.

كنـت أتحـرق لفعـل شيء مـا بعـد كل مـا تعرضنـا لـه مـن خـداع روبسـون. فكـرت أن أردي ويلكـس ذاك بضربـة رمـح، وأقتـل أيضـا كل مـن حولـه مـن رجـال بيـض. تملكنـي هـذا الحلـم، أن أفعـل ذلـك ونتخلـص مـن هـذا المـكان النتـن. لكـن هيديـك هـو مـن أقنـع أمـي بـأن أنضـم إليهـم. قـال: «أحتـاج إلى بيفـاي معـي». لم يكـن ذلـك حقيقـة سـوى كلام.

قطبـت حاجبيهـا: «لـو أفسـد الأمـر فسـأحمّلك المسـؤولية». وافقـت في النهايـة عـلى انضمامـي، وهـكـذا تعرفـت عـلى كل مـن انضـم إليهـا وأصبـح مـن أتباعهـا في تلـك الجزيـرة وقـد سـموا أنفسـهم بـالاوا. كانـوا كـثرا، تقريبـا كل مـن سـألته وافـق عـلى الانضـمام، البعـض كرهـا لمـكان المـوت ذاك، والبعـض الآخـر انتقامـا مـن الجنـود الذيـن كانـوا يبتـزون نسـاءنا بالطعـام لاسـتدراجهن إلى أكواخهـم، أو يقتادوهـن خفيـة عـن عينـي الرقيـب.

ذهبت مع هيديك في اليوم التالي إلى الجهة المقابلة من الجزيرة لأرى مع آخرين كيف ستسير خطة أمي. سبقنا البعض إلى هناك وجلسوا يصنعون سهاما حول نار صغيرة علمتهم أمي كيف يشعلونها بطريقة لا يمكن للريح أن تحمل روائح دخانها فيكتشفها البيض. انضممت إليهم ورحت أعد السهام الحادة وبقينا هناك حتى غروب الشمس ثم قمنا بدفن ما تبقى من النار في الرمال، لكي لا يعثر لها البيض على أثر. عدنا بعدها إلى الأكواخ ونحن نحمل السهام بطريقة خفية حتى لا ينتبه إليها أحد، إلى أن وصلنا إلى دغل صغير فأخفيناها مع كثير غيرها كانت مخبأة هناك. قال لي هيديك إننا سننتظر قدوم مركب البيض التالي. عندها ستكون كمية السهام التي لدينا قد أصبحت تكفي لقتل كل أولئك البيض الأوغاد، ثم نقوم بعد ذلك، بالإجهاز عليهم بالاستيلاء على السفينة والعودة بها إلى عالمنا. بالطبع كما كل خطة سرية كانت خطتنا هشة كعود حطب يابس، أي سوء طالع أو مصادفة غير مواتية تكفي لانهيار كل شيء.

كانت ظهيرة اليوم التالي حارة وخانقة، الجنود يجلسون في الخارج يلعبون بأوراق ملونة تجعلهم يصرخون بينما انصرف بعضنا إلى صناعة تلك السهام السرية. قالت أمي إنه يجب ألا نذهب كلنا دفعة واحدة خشية أن نثير ريبة الجنود، لهذا كنا نتناوب الذهاب في مجموعات، وكان يومها دوري لأبقى في الأكواخ. وهكذا جلست في الكوخ البائس محاولا قتل الوقت باللعب بحجر أقذفه على الجدران ورحت أحلم بأني بطل مقدام أنقذ أمي من بين أيدي عشرين من البيض السفلة. إلا أن الذباب تكاثر في فضاء الكوخ الضيق فخمدت أحلامي، وعندما فقدت الحجر

الـذي كنـت ألعـب بـه أصابنـي الضجـر وتلاشـت بطـولاتي فتحولـت فيهـا إلى قتيـل تـارة وإلى أسـير لـدى السـفلة البيض تـارة أخـرى. لم أحتمـل أكـثر فانطلقـت خـارج الكـوخ نحـو تلـك التلـة الصغـيرة حيـث يصنـع الآخـرون السـهام إلى جانـب النـار، وعندهـا عـادت الحيويـة إلي وأنـا أراقـب ذلـك المشـهد المثـير. وبينـما أنـا واقـف هنـاك رأيـت الرقيـب ويلكـس يمـشي مـع كلبـه. كان هـذا أمـرا معتـادا، فقـد كان يمـشي مـع كلبـه عـدة مـرات في اليـوم. كان يحـب ذلـك الحيـوان الـذي يسـميه فرنانـدو ويمنحـه كل مـا لديـه مـن عطـف واهتـمام لأنـه كان يكـره الجميـع، نحـن وجنـوده وكل مـن حولـه. لا أحـد يعـرف سر ولعـه بذلـك المخلـوق الـذي لم يكـن يشـبه سـوى فـأر، وكان ينبـح عـلى الـدوام كمـن يريـد أن يدعـي أنـه خطـير حتـى لـو كان نباحـه عـلى مجـرد درفـة بـاب تحركهـا الريـح. هكـذا كان الكلـب يركـض ويقفـز هنـا وهنـاك في تلـك الظهـيرة، وينبـح عـلى الزهـور حولـه.

لم يكـن للحيـوان أن يثـير حفيظتـي وأنـا أنظـر إليـه مـن أعـلى التلـة لـولا أنـه اقـترب مـن ذلـك المـكان الـسري الـذي نصنـع فيـه سـهامنا مسـتدرجا وراءه الرقيـب ويلكـس. تحـرك هنـا وهنـاك، تـارة يقـف رافعـا قائمتـه ليبـول، وتـارة أخـرى يقفـز إلى الجهـة المعاكسـة لينبـش في الرمـل أو يركـض باتجـاه دغـل صغـير عـلى مقربـة. راقبتـه بتوتـر كلـما اقـترب مـن جهـة مكاننـا الـسري، وكل شيء كان محتمـلا، إلى أن توجـه مـرة أخـرى إلى الدغـل الصغـير وأصبـح في مخبئنـا تقريبـا. تسـارعت أنفـاسي وكاد قلبـي يقفـز مـن مكانـه وأنـا أترقـب الكارثـة في أي لحظـة بينـما وقـف الرقيـب ينتظـر كلبـه بصـبر وهـدوء. أمـا الحيـوان نفسـه فقـد اقـترب أكـثر وتـبرز في المـكان تمامـا فـوق البقعـة التـي دفنّـا فيهـا الرمـاح. كل ذلـك كان مـن الممكـن أن يمـر لـولا أن الكلـب بعـد أن فـرغ

أقعى على الأرض ليحك مؤخرته بالتراب وسرعان ما أطلق نباحا قويا مستغيثا. ركض الرقيب باتجاهه وأخذ يفتش المكان، ولم أدر بعدها كيف عاد إلى الأكواخ وهو يصرخ على جنوده غاضبا متوعدا.

لم يسمح لي الوقت بفعل شيء سوى التلويح من بعيد لمن كان عند النار لتحذيرهم. لكن في النهاية وقع ما كنا نخشاه. أمر الرقيب ويلكس، أن نقف أمام أكواخنا لوقت طويل وهو يطلق علينا شتائمه ويصفنا بالقتلة الهمج والسود الخونة بينما وجه جنوده بنادقهم إلى صدورنا. جمعوا كل ما صنعناه من سهام خلال أيام طويلة في حفرة وأحرقوها. اقترب الرقيب بعد ذلك منا وأخذ يحدق في وجوهنا واحدا واحدا وهو يسأل: من الذي خطط لكل هذا؟

أعتقد أنه لم يكن يتوقع أن ينطق أحد منا بكلمة واحدة، لكن الذي حدث أن أمي تقدمت وقالت بصوتها القوي وكأنها لا تخشى شيئا: «أنا أيها الوغد». قالت ذلك بلغة البيض وهي تنظر بجسارة في عينيه.

احتقن وجه ويلكس غضبا وأشار إلى جنوده أن يأخذوها باتجاه الشاطئ. انقضوا عليها وجروها وهم يتحرشون بها ويلمسون وجهها وصدرها بينما كانت هي تقاوم وتحاول ضربهم، وبلغوا من الشراسة أنهم دفعوها بقوة في القارب الذي وصلوا إليه مما أصابها بجروح في ساقها. كم كان ذلك بغيضا ومؤلما لي. تمنيت أن أنقض عليهم بالسهام وأرديهم قتلى واحدا واحدا كما حلمت ذات يوم في الكوخ. لم يأخذوها وحدها، بل وضعوا معها أربعة آخرين، ليس من المقربين منها بل مجرد أشخاص كانت تلقي عليهم

التحية. لا أستطيع وصف مدى الألم والقهر الذي اجتاحني وأنا أرى القارب يبتعد بها وأتخيل كيف يمكن لهم أن يقتلوها ويلقوا بها في البحر. لكن ما فعلوه بها كان أسوأ مما تخيلت. فما إن وصل القارب إلى مكان دفعت فيه الرياح شراعه كورقة شجر تطير حتى رأيناه يرسو في مكان لم ننتبه إليه من قبل. صخرة جرداء في وسط البحر. أنزلوهم وتركوهم في ذاك المنفى. نظرت إلى البعيد والحزن يكاد يفتك بي. اختفت أمي ومن معها، ولم أستطع أن أرى منهم سوى نقاط أو أشكال صغيرة في البعيد. لكننا لوحنا لهم بأيدينا، وبقينا نلوح دائما رغم أننا لم نكن متأكدين أن بوسعهم أن يرونا من تلك المسافة البعيدة.

انقضى ذلك اليوم وبدا على الرقيب أنه نسي أمر أمي ومن معها ولم ينظر إلى جهة البحر إطلاقا، بل صرف الوقت في الصراخ على جنوده وإلقاء الأوامر والإيعازات عليهم لتأدية حركاتهم الغريبة. أما نحن فاستمررنا في النظر إليهم، وحدهم هناك تحت الشمس على تلك الصخرة الجرداء. ذهب هيديك وآخرون إلى الرقيب في آخر النهار وطلبوا منه إعادتهم، فما كان منه سوى أن انفجر غاضبا في وجوههم، وأنذرهم أنه سيرسلهم ليموتوا هناك أيضا، إن لم يبتعدوا عنه في الحال. ومع انقضاء النهار علمت أن ويلكس كان في الواقع يهدف إلى قتل أمي ومن معها ببطء بتلك الطريقة الرهيبة. لو أطلق النار عليهم لكان أرحم، وبالفعل كان الموت مصيرهم المحتوم لولا أن سفينة كبيرة محملة بطعام البيض المقرف عبرت بالصخرة في طريقها إلينا. رأيناها في صباح اليوم التالي كيف توقفت قرب الصخرة وأنزلت قاربا صغيرا لإحضار أمي ومن معها. لا بد أنهم اعتقدوا أن وجودهم على الصخرة

ليس سوى حادث أو شيء ما من هذا القبيل. وعندما وصلوا إلينا لم يفعل الرقيب ويلكس شيئا بل اكتفى بالنظر إلى أمي بحقد. لكن المسكينة ورفاقها لم يقووا على المشي. كانوا في حالة يرثى لها من الوهن، أجسادهم جريحة كأنهم سقطوا بين الصخور وعيونهم جاحظة وأفواههم يغطيها زبد أبيض من شدة العطش.

تغير الكثير بعد ذلك. قمنا هيديك وأنا بوضع أمي في أفضل الأكواخ التي لدينا كي تشعر برعايتنا، ومع أنها تماثلت للشفاء واستردت عافيتها مع مرور الوقت إلا أنها استسلمت للصمت ولم تعد تتكلم أبدا وهي تجلس أمام الكوخ. ظلت تكره البيض وتحلم بقتلهم، لكنها أصبحت تتحدث عن ذلك بصوت خافت. أجل، شيء ما من روح المقاتل مات فيها، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ وزنها يزيد إلى أن أصبحت بدينة في نهاية المطاف. تغير كل شيء، حتى أنا نفسي تغيرت. بدأت أكتشف في تلك الأيام أنه لا يمكن قتال الرجل الأبيض بالسهام والرماح وحدها، فهو سيهزمنا دائما. لا بد من طريقة أخرى. لا بد من وسيلة أخرى للنجاة.

كل أمر صعب لا يحتاج سوى إلى معرفة سر ما. ما إن تتمكن من حل ذلك اللغز الصغير حتى يتكشف كل شيء لك وتنحل العقد ويبدو الطريق واضحا أمامك. وهكذا كان. في أحد الصباحات وصلت سفينة إلى شاطئنا ونزل منها ضابط ومجموعة من الجنود البيض. كان ويلكس في استقبالهم، لكن ما أثار فضولي أنه كان على غير عادته عندما يستقبل أحدا متجهم الوجه ومتوترا. والأغرب من ذلك أن الضابط الزائر لم يصافحه، بل لم يلق التحية المعتادة عليه. أشار إليه ثم ذهبوا إلى أحد الأكواخ، وهذا ما جعلنا نكتشف أن ذلك الضابط في مرتبة أعلى وأقوى من ويلكس. تبعناهم خفية

إلى ما وراء الكوخ حيث فتحة صغيرة في الجدار استطعنا من خلالها معرفة ما كان يجري. سمعنا الضابط يتحدث بصوت مرتفع ويوبخ ويلكس كأنه جندي عادي وليس قائد الجزيرة. قال له أشياء فهمنا من بينها أنه مفصول من عمله. في ذات اليوم غادر ذلك العجوز البغيض المحتقن بسموم الحقد والكراهية الجزيرة، أقله مركب من شاطئها ومضى إلى غير رجعة ليحل محله ضابط أبيض آخر عرف بلقب القائد دارلينغ. لكن المذهل حقا ما حدث بعد ذلك. كان هيديك قد تعلم بعض كلمات البيض كما فعلنا نحن لاحقا فذهب في أحد الأيام إلى دارلينغ ذاك وسأله لماذا رحل ويلكس بتلك الطريقة. فوجئنا بأن قائد الجزيرة الجديد أجاب على السؤال ببساطة. قال إنه عوقب وطرد من الخدمة لأنه حاول قتل أمي بتلك الطريقة، وأضاف أنه خالف التعليمات، وأنه كان عليه إرسالها للتحقيق والمحاكمة بدلا مما فعله. أجل، هكذا يفكر الرجل الأبيض، ليست المشكلة في قتلها، بل في طريقة القتل. ممنوع قتلها بتركها على صخرة جرداء وسط البحر، لكن لا بأس من شنقها! أثار الأمر حيرتي وأمضيت وقتا أتفكر فيه، لكني وصلت في النهاية إلى استنتاج كان له أثر عظيم في حياتي. هؤلاء البيض لهم طرق وأساليب يتبعونها، مثلنا تماما. صحيح أنها غامضة ومعقدة وغير مفهومة أحيانا، لكني اكتشفت يومها أن علي إدراكها وتعلمها، لا لشيء إلا لأنجو، وأتمكن من مقاومة الرجل الأبيض بوسائله ذاتها. لم يعد من المجدي قتالهم برماحنا، بل لا بد من المقاومة بأسلحتهم البغيضة ذاتها.

بعد فترة من قدومه نقلنا القائد دارلينغ بالقوارب إلى جزيرة أخرى تسمى فليندرز. كانت أكبر يستغرق المشي بين طرفيها

يومين كاملين، فيها حيوانات وطرائد للصيد وجبال عالية ومدببة كالرماح يمكن النظر إليها وتأملها من البعيد، لكنها مع ذلك لم تكن بالنسبة لنا أكثر من مكان موحش تعصف به الرياح ولا تشبه وطننا الأصلي حيث كنا نعرف كل صخرة كصديق حميم. حاول الضابط الجديد التقرب منا وعاملنا بطريقة ودية، بل إنه كان يدعونا في بعض الأحيان لتناول طعامه الغريب في كوخه. أخذنا نرتاح إليه ونتحدث معه، ومرة أهديناه ببغاء أمسكنا به فوضعه في كوخه وأسماه شكسبير. طلب منا ارتداء الملابس كما يفعلون، وكان الأمر غريبا وغير مريح في البداية. حاول أيضا أن يعلمنا كيف نزرع الحبوب والخضار لنأكل منها فأعجبنا الأمر واستجبنا له، ولم يمض وقت طويل حتى أتقنا ذلك وبرعنا فيه. ومضى الصيف وتلاه صيف آخر ونحن على جزيرة فليندرز تلك دون أن يحدث شيء يستحق الذكر سوى أن داء السعال حصد أرواح الكثيرين منا. اتسع المكان الذي أقمنا فيه والذي أصبح يُعرف بـ «وايبالنا»، وتكاثرت أكواخه وبنيت فيه بضعة مخازن وكثر زوارنا من البيض. أحد هؤلاء يدعى سميث وقد قال إن على جميع الأطفال أن يذهبوا إليه في كوخه ليحدثهم عن الرب. كان رجلا قصيرا بشعر أملس وعينين خبيثتين نفر منه الأطفال وكرهوه وكانوا يهربون منه كلما رأوه. أما أنا فذهبت إليه لأستمع وأتعلم كل ما يتفوه به البيض من خزعبلات لأكتسب ما يلزمني في حربي معهم. سُرّ هو لذلك وقال إن استمعت إلى كلام الرب فإنه سيخلصني. لم أصدقه بالطبع لأنني تعلمت جيدا من روبسون البدين ألا أصدق كلام أي رجل أبيض. وكنت أتحدث إلى الجنود أيضا وأتعلم منهم كلمات مثيرة تعرفها أمي مثل حقير وقواد وغائط وعاهرة وغيرها.

جربت هذه الكلمات على سميث، وبالفعل كان مفعولها سحريا، فقد غضب مني وطلب أن لا أدخل كوخه لمدة أسبوع. أما أمي فقد أغاظها ما كنت أتعلمه.

«لماذا تذهب إليهم؟» سألتني. «أتحب أولئك القتلة؟»

«أريد أن أتعلم أساليبهم لأحاربهم بها».

«الأفضل أن تقتلهم وكفى. لو تورطت كثيرا في معرفتهم فقد تحبهم».

لكني لم أستمع لها، فقد كان حلمي بأن أصبح بطلا في عيون الآخرين وفي عيونها هي تحديدا، لقد تملكني وسيطر على روحي تماما. حلمت بأن أفعل ما لم يتمكن الآخرون من فعله وأن أقود مسيرة العودة إلى وطننا المفقود. كان حلمي السري الذي لا يفارقني.

ومرت الأيام، ومر صيف وتلاه صيف آخر. كبرت وازداد طولي وبدأت الأشواق والشهوات تفور داخلي تجاه النساء. صرت أنظر إليهن، وإلى أجسادهن بطريقة جديدة. وحتى بعض النساء البيضاوات كن يثرن رغبتي رغم الجلود السميكة الميتة التي يرتدينها والتي يسمينها ثيابا، إلا أن عيونهن القاسية ونظراتهن الحادة جعلتني دائما أفضّل نساءنا اللاتي لم يكن يسمحن لي بالاقتراب منهن، فقد كنت في نظرهن لا أزال صغيرا. لكنهن في بعض الأحيان وعندما لا يرانا أحد يسمحن لي بتقبيل شفاههن ولمس أجسادهن البضة. كانت أيام موت رغم كل شيء. حصد الوباء الكثيرين منا، واحدا واحدا كنا نتلاشى، وكأن الفناء أقام بيننا. أي رعب أن تموت محموما والسعال يمزق صدرك! لم يقترب الموت من البيض، وكانوا ينظرون إلينا كأن ما يحدث لنا أمر طبيعي في حياة السود كما

كانوا يسموننا. كنت أكره هذه التسمية من أعماقي. وأسوأ ما في تلك الأيام حين مات صديقي هيديك وكان علي أن أشهد كيف يحملونه ويذهبون به إلى حيث تتم طقوس حرق جثمانه.

لم يكن من السهل في تلك الأيام العصيبة على أي أحد فعل شيء. البعض استسلموا وأصبحوا يقضون الوقت كله مستلقين بانتظار الموت، وبالفعل ماتوا بسرعة. حاول البعض الآخر أن يتجول في أنحاء الجزيرة لصيد الطرائد كما في الأيام الخوالي وكأن شيئا لم يتغير. هؤلاء عاشوا فترة أطول. رفاق أمي اعتادوا أن يذهبوا في الليل ليقضوا سهراتهم قرب الغابة وهم يثرثرون، وتحدثت النساء عن روبسون وقلن إنه لا بد سيعود وينقذنا من هنا. لم أصدق هذا أبدا، فلو كان يريد لنا الخير لما أحضرنا إلى هذا المكان من الأساس. بحث بعض النساء عن بطل آخر ينقذنا وعثرن على راغيروبار، وهو شقي اعتاد أن يختبئ لنا في الظلام بين الأشجار ويفزعنا. لم يكتفين بالثرثرة والهمسات، بل أصبحن يغنين ويرقصن في الليل لاسترضائه، بل قال البعض إنهن كن يدعنه يضاجعهن. ولم لا؟ فما الذي يتبقى أمامك عندما توصد أمامك كل السبل ويحاصرك الموت من كل جانب سوى أن تستعين بأي أحد، حتى بأعدائك؟ ألم يكن ذلك الشقي أفضل من بعض من توهمنا أنهم أصدقاء؟! أليس أفضل من روبسون ذاك الذي قادنا إلى هذا المصير الحالك؟

لم تخلُ حياتنا في تلك الفترة من القتال. فقد استثار الضيق والانتظار والوحشة ضغائن قديمة وأعاد إلى السطح أحقادا وثارات منسية. كنا جمعا يتحدر من أربع قبائل، وبسبب تناقص أعدادنا اختلطنا وكادت الفوارق والعصبيات تزول، على الأقل ظاهريا.

غير أن السهام فعلت فعلها في بعض الأحيان، وكثيرا ما توقعت اندلاع حرب بيننا في أية لحظة. لكن ذلك لم يحدث في نهاية المطاف، ويبدو أن الموت وحد الجميع في مصير مشترك.

وصلت أعداد إضافية منا إلى الجزيرة، لا بد أن روبسون أرسلهم. وفي إحدى المرات كان مونغانا وأمه باجرلي بينهم، أمر أبهجنا رغم أنه مصيبة بالنسبة لهم. كان لقاؤنا غريبا وشعرنا أن حياة كاملة قد انقضت وأخذت معها زمنا كنت أعرفهما فيه حين كانا يكرهاني ويعاملاني بجفاء. لكنهما تغيرا أيضا، وحل محل الضغينة خوف جعلهما ينسيان. لم يكن لديهما سوى الأخبار السيئة. أخبراني أن كل من نعرفهم ماتوا إما بوباء السعال أو بأسلحة البيض، وأكثر ما فجعني خبر موت تارتوين وجدتي. كنت حتى تلك اللحظة آمل بأن يكونا على قيد الحياة وأني سألتقي بهما ثانية لأستمع إلى حكايات تارتوين وأراقب كيف تجلس جدتي بأصابعها الطويلة النحيلة على شاطئ البحر.

أذكر الآن تلك الأيام. رغم قسوتها لم تكن تخلو من بعض المباهج الصغيرة. فبعد وصول مونغانا لم يكن بوسعه أن يكتشف حياتنا الجديدة وحده. أخذ يعتمد عليَّ في الكثير من الأمور، كأن أرشده إلى أماكن الصيد والتجوال في جزيرتنا الصغيرة وإلى الأماكن التي نحصل فيها على طعام البيض المقرف. كذلك أخبرته عن الرجال البيض والجنود، أيهم جيد وأيهم يكرهنا وأيهم عليه تجنبه أو الحديث معه. كان كل ذلك يثير بهجة غامضة داخلي ويجعلني أحس بأهميتي وتفوقي، خصوصا مع مونغانا الذي تحول من عدو الأمس اللدود إلى صديق اليوم الحميم. حتى أمه أصبحت صديقة لأمي، تقضي معها أغلب الأوقات وتصغي إلى ما تقوله

عن كرهها للرجال البيض وعن أحلامها بتهشيم رؤوسهم. في الحقيقة تحولت مع الوقت إلى صديقة أمي الوحيدة. كانت أمي في الحقيقة تثير الخوف في الآخرين، ورغم أن الناس كانوا يبتسمون في وجهها ويحضرون لها الطعام في بعض الأحيان، إلا أنهم كانوا في دواخلهم يخافونها.

تعاقبت الأيام والفصول دونما أحداث تذكر. واظبت أنا على الذهاب إلى كوخ سميث لأصغي إليه وأتعلم متحاملا على نفسي وأنا أجاهد لاحتمال كل شيء. سمعنا أقاويل عن نهاية خدمة القائد دارلينغ وأن ضابطا جديدا سيحل محله. لم نتخيل أن البديل سيكون ممن نعرفهم.

لم يكن القادم الجديد سوى روبسون.

كاثرين برايس، مستوطنة السكان الأصليين، في جزيرة فليندرز، 1835 - 1838

علمت لتوي أن السفينة القادمة من لونسيستر قد وصلت أخيرا عندما رأيت عبر ستائر غرفة الجلوس بستاني الكنيسة مع زوجته والخياط السيد دون والخباز يركضون مع غيرهم باتجاه المرفأ وعيونهم تفضحها لهفة من ينتظر رسالة من بلاد بعيدة. لم يتأخر زوجي لويس كعادته عن اللحاق بهم، بينما فضلت أنا البقاء في البيت بسبب صداع ألمّ بي منذ الصباح. لكنه لم يطل به الوقت حتى عاد. سمعته يغلق باب البيت وراءه ويدخل مسرعا.

«هل سمعت الأخبار يا كاثرين؟»

«بالطبع لا، ومن أين لي أن أسمع؟»

«حاكم أرض فان ديمن قادم إلينا في زيارة مع زوجته». قال بصوت رقيق لم يصدر عنه منذ وقت طويل. منذ أن عرفته وهو شغوف بفكرة اللقاء مع رجال مسؤولين أو أصحاب نفوذ وكان دائم الحديث عن سعيه لذلك وعن أهمية العلاقات مع أولي الأمر في تحسين أوضاعه ومستقبله المهني. لكني في الحقيقة لم أرَ أنه استفاد من ذلك في أي يوم من الأيام. «تخيلي»، قال بصوت تملؤه الحماسة من الممر. «يقطع كل تلك المسافة هو وزوجته ليزورنا

هنا. أتعلمين أنه كان رحالة من مستكشفي القطب الشمالي؟»

بالطبع كنت أعلم، فالجميع لم يكن لديه سيرة أخرى عن هذا الرجل، وكأن ما من شيء يستحق الذكر في حياته سوى ذلك. لا أنكر أني شعرت بأن زيارته تكريم لنا بعد أن تجاهلنا الحاكم السابق، إلا أن حماستي لم ترقَ إلى ما أبداه زوجي من انفعال وفرح. لم ينتظر لويس طويلا، فوصول السفينة، يتطلب عملا إضافيا في المخزن لذا انصرفت أنا إلى تعليم الأطفال. لكني لم أستطع منع نفسي من النظر، من خلال النافذة، بين حين وآخر، لأرى نساء المستوطنة يتنقلن بين الأكواخ ذهابا وإيابا وقد نالت منهن حمى أخبار الزيارة، وعلمت أنهن لا بد مشغولات بإعداد ما سيرتدين خلال الحدث المنتظر. رغبت أنا نفسي بالقيام بزيارة أو زيارتين، لكن رداءة الطقس حالت دون ذلك.

دعانا السيد روبسون في ذلك المساء إلى اجتماع في الكنيسة، وهناك على ضوء قناديل الزيت الشاحب حدثنا عن تحضيراته لاستقبال الحاكم. لم أكن قد رأيت وجهه منذ أسبوع على الأقل، وقد بدا عليه الإرهاق بشكل يثير الشفقة، لكنه مع ذلك تحدث بطلاقة كعادته. قال إن علينا أن نبذل جميعا كل ما في وسعنا لتقديم صورة لائقة عن مستوطنتنا خلال الزيارة. بدت لي تحضيراته موفقة وصائبة، إذ إن الحاكم بالإضافة إلى صيته الذائع كمستكشف في القطب الشمالي عرف عنه اهتمامه الفائق بالتفاصيل وبأنه يحكم على الأمور بمظاهرها. كان علينا خلال الأسبوعين المتبقيين أن ننظف كل شيء في المستوطنة، من البيوت والشوارع والمخازن والكنيسة إلى أكواخ السكان الأصليين. سيقوم الضيف بجولة عامة، وإن ساعد الطقس فسُتقام في المساء مأدبة

كبيرة على شرفه يدعى إليها جميع السكان بمن فيهم الأصليون، وسينهي اليوم بزيارة إلى الكنيسة.

لم يوفر الخباز السيد دون كعادته الفرصة لإطلاق تعليقاته الفكهة. سأل: «ما الذي سيُقدم للحاكم، ما يليق من طيور السمان وخنزير مشوي أم مجرد ما اعتدنا عليه من الإوز؟» أثار سؤاله الكثير من الضحك، فنحن لم نتناول سوى ما تيسر لنا من طعام متقشف منذ وصولنا إلى جزيرة فليندرز. أجاب السيد روبنسون وهو يضحك كالآخرين: «أعتقد أنه بعد ترحاله في القطب الشمالي سيجد ما لدينا كافيا». لم تفارق وجهه ابتسامته المعروفة خلال اللقاء، لكنني رأيت علائم القلق على محياه عندما خرجنا من الكنيسة في تلك الليلة المقمرة ومشينا تحت أنظار السكان الأصليين الذين كانوا يراقبوننا من أكواخهم. لم يفاجئني ذلك في الحقيقة، فالزيارة المرتقبة شرف كبير لا شك، لكنها لا تخلو من منغصات ومخاطر ليس آخرها ما الذي يمكن أن يقوله الحاكم أو يفعله.

مضى زمن طويل على وصول السيد روبسون إلى هذه الجزيرة كحاكم، واعتدنا على وجوده كأنما يعيش هنا منذ الأزل. لم يزرنا أحد منذ سنوات سبقت وصوله، فجزيرتنا رغم أنها توفر لأي زائر مشاهد طبيعية خلابة وفريدة، إلا أن موقع المستوطنة على الساحل الغربي الأقصى جعل المكان دائما عرضة للعواصف والأنواء المتقلبة التي يمكن لها أنت تقتلع الأشجار أحيانا أو أن تسفع الوجوه بالرمال. أضف إلى ذلك مشكلة السود لدينا، فعلى الرغم من بؤسهم وشقائهم وما تعرضوا له من الأوبئة في الفترة الأخيرة، إلا أن تاريخهم المشين في العنف ضد المستوطنين الأبرياء لا يمكن

نسيانه. فعلنا الكثير لتعليمهم، لكنهم لم يبدؤوا في ارتداء الملابس إلا مؤخرا، وحتى ما يضعونه على أجسادهم من خرق لا يكاد يستر عوراتهم. عندما أنظر إليهم وهم في أكواخهم أو في تجمعاتهم وهم يمضون إلى الصيد لا أستطيع سوى أن أرتعد أمام تلك الوحشية المتدفقة من عيونهم، بل إن مجرد التفكير بهم في الليل، وهم يتجولون قريبا أو يقتربون يجعل النوم يطير من عيني.

لم تكن حياتنا مريحة على الإطلاق، وما كان يزيدها شقاء ووحشة أن سفن المؤونة لا تأتي إلينا إلا كل ثلاثة أشهر، مما جعل مجرد وصول رسالة رفاهية ننتظرها بفارغ الصبر. السأم لا يولد إلا الضغائن والمكائد والنميمة. فعلنا لويس وأنا كل ما بوسعنا لتجنب ذلك في حياتنا الاجتماعية، لكن لم يكن الأمر دائما سهلا. فإما أن تزور الآخرين وتسمع الشائعات والنميمة، وإما أن تبتعد فتفرض على نفسك العزلة. وأكثر من عرف بولعه بالثرثرة ونقل الكلام والشائعات الواعظ السيد سميث. يقال إن طريقته الفريدة والطريفة في روي الأقاويل والحوادث لا تقاوم. كثيرا ما حاولنا منع الآخرين من زيارتنا، لكن دون جدوى، ففي مكان صغير كهذا، يصعب عليك إغلاق بابك في وجه الناس. حتى لويس زوجي الذي عرف عنه طبعه الجاد لم يكن يستطيع مقاومة براعة وفكاهة الواعظ في ثرثرته.

وسط كل تلك الأجواء كان للمفاجأة وقع الصاعقة علينا. وصلتنا الأخبار دون مقدمات أن الحاكم الحالي وزوجته سيُبعدان عن الجزيرة؛ ولم يتأخر الوقت حتى علمنا أن سميث لا غيره هو من يقف وراء ذلك. أعلم أن الرجلين كانا على جفاء منذ أن اتُّهم القائد سميث بتبذير موارد المستعمرة. قام الواعظ بإرسال شكاوى

واعـتراض إلى الحكومـة المركزيـة في هوبـارت، وموقفـه مـن الحاكـم لم يكـن خافيـا عـلى أحـد. أكـثر مـا كان يثير حفيظتـه تجاه دارلينـغ أنـه لم يكـن يوجـه أي عنايـة إلى التعليـم الدينـي للسـكان الأصليـين، أمـر لا يسـتطيع أحـد إنـكاره في الواقـع، فهـو لم يكـن يـولي اهتمامـا يذكـر لتطويـر الأصليـين وتدريبهـم ولا حتـى عـلى المهـارات اليوميـة التـي يحتاجونهـا في الزراعـة. لكـن في كل الأحـوال كان تـصرف الواعـظ مبالغـا بـه وغـير مـبرر، وقـد كان القائـد حـادا في ردة فعلـه وقـام بنعـت سـميث بيهـوذا.

حاولـت أن أتجاهـل الموضـوع وأتـرك تلـك الحادثـة المؤسـفة تمـر بسـلام، إلا أن لويـس تأثـر جـدا برحيـل القائـد دارلينـغ وقـال إنـه متأكـد مـن أنـه كان ينـوي ترقيتـه في العمـل. لهـذا صـب جـام غضبـه عـلى سـميث وطلـب منـه عـدم زيارتنـا مـرة أخـرى. وعوضـا عـن تفهـم الأمـر، لم يخـف الأخـير ضغينتـه، بـل أخـذ يعاملنـا كأننـا نحـن مـن أخطأنـا في حقـه لا هـو. صـار يصـوب إلينـا نظـرات حقـودة كلـما صـادف أن رآنـا، ومـا أثـار ذهـولي أن غضبـه كان موجهـا إلي شـخصيا أكـثر مـن لويـس نفسـه. لم يكـن يلمحنـي في الشـارع حتـى يبـادر إلى تغيـير وجهتـه بشـكل محـرج أو ينظـر في اتجـاه آخـر متجاهـلا إيـاي إذا مـا تصـادف وجودنـا في مـكان واحـد أمـام النـاس. مـع كل مـا أدى إليـه سـلوك سـميث مـن توتـر وضغائـن، إلا أن فعلتـه كان لهـا نتيجـة إيجابيـة واحـدة وهـي مجـيء السـيد روبسـون. كنـا قـد سـمعنا عنـه الكثـير قبـل أن يعـين محـل السـيد دارلينـغ. ذاع صيتـه بعـد أن قـام بالترحـال مـع السـود في كل أرجـاء أرض فـان ديمـن مـن أجـل إنقـاذ هـذا العـرق التعيـس، ولسـبب مـا غامـض تخيلـت أنـه رجـل ضخـم بملامـح عسـكرية صارمـة. لكنـي كـم كنـت مخطئـة، فالرجـل الـذي

رأيته في النهاية وهو يستقل القارب الصغير من سفينة المؤونة باتجاه شاطئ جزيرتنا لم يكن سوى رجل عادي، ممتلئ قليلا وتشي كلماته وطريقة حديثه بأصوله المتواضعة. لم يكن فيه ما يدل على أي قوة سوى عينيه. أما عن عائلته فأول ما ظهر منها نظرة زوجته المتعجرفة تجاه المستوطنة وابنه بعينيه الشاردتين.

«لديه عينان وديعتان». قلت لزوجي فأومأ موافقا وهو يشق طريقه ليكون من أوائل المرحبين. السود أيضا سرهم وصول السيد روبسون. تقدموا وقد تهللت وجوههم لدى رؤيته، فهو الذي أحضرهم من مجاهل أرض فان ديمن كما يفعل الآن وقد اصطحب معه المزيد منهم. وفي الحقيقة كان لقاء السود بأقاربهم وذويهم المفقودين العائدين فجأة مؤثرا للغاية. أم تشهق وقد رأت أولادها بعد فراق اعتقدت أنه نهائي، وإخوة وأخوات يتعانقون بعيون مغرورقة بدموع الفرح المثقل بذاكرة الشوق والغياب الطويل. تحلق السود حول السيد روبسون يرحبون به بلغتهم الغريبة التي كان قد تعلم الكثير من مفرداتها كما سمعنا متوقعين أن يبادلهم بمثلها، لكنه بدلا من ذلك أشار لهم بلطف لا يخلو من الحزم قائلا: «لكن عليكم الآن أن تتكلموا الإنجليزية. الإنجليزية فقط». كان هذا أول ما رأيناه من إرادته وعزيمته على الارتقاء بتلك المخلوقات التعيسة.

كان يصطحب معه صبيا بدا أنه فخور به جدا. اسمه جورج فانديمن، وقال إن أحد المزارعين عثر عليه ضائعا في أحد الحقول فتم إرساله إلى بريستول في إنجلترا حيث أقام وقتا ليس بالقصير وتمكن من تحصيل قدر لا يستهان به من التعليم. كان جورج هذا خجولا يلازم روبسون ويحاول دائما الاختباء وراء ظهره. أخبرنا أنه

وجده يعمل خادما في إحدى المزارع فعمل على تحريره من رب عمله بصعوبة بالغة وأحضره معه بعد أن أكتشف ما يتمتع به من مواهب وذكاء. أثارت حكايته فضولنا، وما إن وصلنا إلى أكواخ الأصليين حتى قال القائد الجديد إن بوسع جورج أن يرينا الكثير مما لديه من مهارات. لم يكن الأمر سهلا، فالصبي خجول، لكنه بعد التشجيع تكلم بضع عبارات إنجليزية بطلاقة أدهشتنا جميعا ولم نكن قد سمعناها من أي من السود من قبل. أثارت كلماته ترحيبا وابتسامات، خصوصا من النساء اللواتي تحلقن حوله، بل إن السيد دون الخباز أثنى على لهجته وقال إنها تشبه لهجة الريف الغربي. لكن العرض الشيق لم يستمر طويلا للأسف. فما إن بدأت الكلمات تنساب من بين شفتي الصبي بسلاسة بعد أن تملكته الثقة بنفسه حتى ارتعش صوته على حين غرة وأخذ يتلعثم لينخرط بعدها في نداء صارخ بكلمات لغته الأم. انطلق بعدها يشق طريقه راكضا باتجاه أحد الأكواخ القريبة. نظرت فرأيت ذلك المخلوق العجيب الذي يدعى والياريك، والذي كان يصنف كأنثى ينظر إليه نظرة غريبة. كان من الصعب تصديق أن تلك المرأة المتوحشة التي كانت ترد على أكثر الابتسامات لطفا بنظرات الحقد والكراهية هي أم جورج، لولا أني سمعت بأذني تلك اللهفة الموجوعة في صراخه. وكل ما عُرف عن تلك المرأة من جلافة وشر لم يمنعني من أن أستسلم لذهولي وأنا أراقب ردة فعلها. ركض الصبي نحوها مناديا إياها، لكن ما إن وصل إليها حتى نهضت وصفعته بقوة ثم أدارت ظهرها ومضت كأنه ليس ابنها الذي ضاع منها لسنوات. كاد جورج المسكين ينهار من وقع الصدمة، ورغم محاولاتنا أن نبقيه معنا ونخفف عنه إلا أنه رفض وأصر على البقاء وحده.

لم يمض وقت طويل حتى بدأ حضور السيد روبسون الذي كان يتجول بيننا بهمة وحيوية والابتسامة تعلو وجهه على الدوام يترك أثرا واضحا ويغير من مجريات حياتنا على الجزيرة. فلقد وجد الجميع أنفسهم في حمى نشاط البناء والتجديد بعد حقبة من الخمول والضجر. الكل انخرط في عمل ما. لويس انشغل تماما بإعادة تنظيم المخازن والمستودعات وما فيها من مؤونة وعتاد وبدأ بالتحضير للانتقال إلى مقرات وأبنية جديدة. حركة البناء اجتاحت عالمنا الراكد وجعلته يفور بالحياة. النجارون وعاملو البناء عادوا إلى العمل وقد انقضى زمن الكسل، وحتى الأصليون انضم بعضهم إلى ورشة البناء تلك، ولم يمض وقت طويل حتى أثمرت الجهود والخطط فتكاثرت الأكواخ الخشبية الجديدة وانتشرت في المكان كالفطر. تم تشييد واجهة حجرية لأحد الأبنية الجديدة لتأسيس مدرسة للأصليين، فرؤية السيد روبسون تقضي بأن من حق السود أن يعيشوا ويتعلموا في أبنية حديثة.

لم يكن هدف السيد روبسون في الحقيقة يقل عن إطلاق حملة شاملة من أجل تنوير وتحضر السكان الأصليين. وقد روى لي لويس الذي كان متحمسا جدا لكل ما يقوم به القائد الجديد كيف يتم إعداد وتدريب الأصليين، كل واحد منهم في مهنة محددة حسب إمكانياته؛ نجار أو حداد أو مربي ماشية، ومن كان يفتقر إلى الإمكانيات تُناط به أعمال بسيطة مثل جني وجمع البطاطا أو حفر القبور لمن تخذله الحياة من أبناء جلدته. كل ذلك كان في الحقيقة يملأ أيامنا حماسة وغبطة ونحن نرى كيف لرهط من الأشقياء أن يتحول إلى مجموعة يمكن لها أن ترتقِي إلى تنظيم القرويين الإنجليز. والأكثر من ذلك فقد قام السيد

روبسون بتنفيذ فكرة غاية في العبقرية. قال إن على كل من أولئك الأصليين أن يجني ثمار تعبه بشكل مادي محسوس، وتم إنشاء سوق شهري لهذا الغرض حيث يمكن لهم أن يشتروا بما كسبوه سلعا صغيرة مثل التبغ أو قبعات القش. كان في الحقيقة يسعى من كل ذلك إلى هدف أكثر عمقا، هو تعريف تلك المخلوقات على أحد الأعمدة التي ينهض فوقها كل البناء الحضاري للإنسانية، ألا وهو التجارة والتبادل السلعي. لكن كما في كل تجربة لم يخلُ الأمر من المشككين، فقد اشتكت بعض النسوة في جلسات القهوة من أن ذلك السوق لم يلق أي إقبال، وأنه في الحقيقة لا جدوى منه. لكني لم أتردد في معارضة تلك الأقاويل وقلت إن السوق وكل ما نقوم به ليس سوى أمثلة نقدمها للسكان الأصليين وعلينا دعمها وتطويرها على الدوام.

أما أكثر الإنجازات جرأة في التجريب فكان تأسيس صحيفة خاصة بالمستعمرة أطلق عليها أخبار جزيرة فليندرز، وأُنيط بالأصليين تحريرها. لم يكن من السهل تنفيذ هذا المشروع بسبب افتقار الجزيرة إلى مطبعة مما تطلب كتابة النسخ يدويا من قبل بضعة أصليين يتقنون أبجدية لغتهم، ولم يكن في الحقيقة الكثير من الأخبار فاقتصرت محتويات الأعداد الأولى على مجريات الحياة اليومية في المستعمرة وخصوصا أخبار الوفيات المتكررة بين السود. كل ذلك كان بالنسبة لنا لويس وأنا، مثالا حيا على مدى التعقيد في مسيرة التحضر والتنوير التي تنتظر مستوطنتنا الصغيرة. وأذكر حتى الآن الأصداء الجيدة التي أحدثتها التجربة، فقد كتبت صحيفة كولونيال تايمز في هوبارت عن تجاربنا وأثنت على المطبوعة المحلية على وجه الخصوص بعد أن كتب السيد

روبسون شارحا مجريات العمل في حملة التنوير. لم أتخيل من قبل أن أنخرط أنا نفسي في حملة القائد الجديد حتى جعلتني المصادفة ألتقي به ذات صباح وأنا أعبر بالمستودعات حيث كان زوجي يشرح له كيف تسير أمور البناء.

«كاثرين، انظري من هنا». نادى زوجي علي، فتقدم السيد روبسون وحياني بابتسامة لطيفة.

«زوجك يقوم بعمل رائع هنا».

«إنك تغير حياتنا كلها هنا يا سيدي». قلت له بصوت مرتعش. «ما الذي ستقوم به في الخطوة القادمة؟ هل ستبني سكة حديد أم مصنعا؟»

ضحك بحماسة ثم قال: «أخشى أني سأخيب آمالك يا سيدة برايس، إذ إن اهتمامي من الآن فصاعدا لن يكون منصبا على البناء، بل على تعليم الأصليين، وخصوصا تأهيلهم الروحي، فالتربية الدينية لدى هؤلاء التعساء أهملت بما يكفي».

«ألم تقومي من قبل بتعليم الأطفال يا كاثرين؟ ما رأيك أن تساهمي؟» هكذا كان لويس أول من أثار فكرة عملي الجديد.

فوجئت بالأمر. «لم يكن تعليما بما تعنيه الكلمة في الحقيقة. مجرد دروس أعطيتها للأطفال في الكتابة والقراءة».

«وهذا ما نحتاج إليه يا سيدة برايس. ستكونين خبرة مهمة فيما نسعى إليه، فنحن بحاجة إلى كل جهد، وسأقوم أنا نفسي بتدريس أحد الصفوف».

«هيا يا كاثرين، لا تترددي. لن تكوني مطالبة بتعليم ما هو صعب» قال لويس بنبرة مشجعة بينما ابتسم السيد روبسون وقال: «سنقدر لك جهودك».

وهكذا باشرت في الأسبوع التالي. أي أيام مثيرة كانت تلك وأنا أترقب اللحظة التي سأقف فيها وحدي أمام جمع من الأطفال كلهم ينتظرون كلماتي. وقف السيد روبسون إلى جانبي وكان لتشجيعه دور كبير في نجاحي. «لا تقلقي، وتذكري أنهم أقل اعتيادا على التعليم من اعتيادنا نحن أنفسنا على مهنة التعليم. ما عليك سوى أن تأخذي الأمور ببساطة. يكفي أن تسألي أي واحد منهم عما يؤمن به من وصايا لتجدي أن كل شيء ينساب بعدها بسلاسة». وهكذا فعلت، واكتشفت كم كان روبسون هذا خبيرا بعوالم السود وطرق تفكيرهم، وبفضل تشجيعه ومتابعته وجدت نفسي أنسجم مع عملي الجديد، بل وأحبه كمهنة جديدة، كان لها أن تغير حياتي في تلك الجزيرة بعد فترات من الاستسلام ليوميات الضجر والروتين المقيت. كان المعلمون خليطا غير متجانس، بينهم سميث والابن الأكبر للسيد روبسون واثنتان من زوجات الضباط. أما بالنسبة للسود فقد لاحظت أمرا أدهشني. إذ إن خشيتي وتوتري المعتادين من تلك المخلوقات بدأا يخفتان مع الوقت. توالت الأيام الأولى بسرعة إلى أن جاء يوم فتح فيه السيد روبسون باب الصف ودخل علينا أثناء انخراطي في أحد الدروس ليجلس على مقعد في الخلف. وجدت نفسي أجاهد لأكمل ما كنت أقوم به وأكاد أتلعثم وأنا أفكر بمدى فقر أدائي تحت العيون المراقبة والمتفحصة. لكن ما إن أنهيت الدرس حتى رأيت ضيفي ينهض من مكانه ويتجه نحوي باسما. ربّت على يدي وقال بصوت مفعم حماسة: «ألم أقل لك إن جهودك ستكون موضع تقدير كبير؟».

أكثر ما كان يمتعنا في العمل تحت قيادة السيد روبسون حالة التشويق والإثارة، لم يكن من الممكن أن نتوقع ما الذي يخبئه لنا

في الخطوة التالية. وهكذا كان فيما يتعلق بقضية أسماء السكان الأصليين. تلك الأسماء الغريبة الصعبة التي اكتشفنا أن السيد روبسون كان يعمل على تغييرها، ولكن كيف؟ فعل ذلك بطريقة تثير الإعجاب حقا. دعانا ذات يوم إلى اجتماع وأعلن أن كل واحد من السود سيُمنح اسما جديدا. بدت الفكرة غاية في الجرأة كأنها مغامرة، لكنني امتلأت إعجابا به عندما رأيته ينادي عليهم واحدا واحدا ويمنحهم الأسماء مثل قائد يوزع الميداليات على جنوده. لم يكن مقصده خافيا عني. كان يعطي لكل فرد منهم فرصة الولادة الجديدة ككائن مسيحي متحضر. أما الأسماء ذاتها فقد اختيرت بما يبهج حقا. أعطي كبار السن من السود أسماء تقليدية ذات بعد تاريخي مثل الملك ألفا والملكة أديليد والأميرة كليوباترا، بينما خصصت أسماء ذات طابع رومانسي للبعض الآخر مثل سميراميس وأكيليس ونبتون. لم يخلُ كل ذلك من مداعبات طريفة برع فيها السيد روبسون، فقد عمد إلى اختيار أسماء ترتبط بحياة أصحابها من الأصليين. فرجل ذو طبع متجهم مثلا مُنح اسم كيتو وامرأة تتميز بالحزن والشرود مُنحت اسم أوفيليا. لم يكن هذا مسليا وحسب، بل جعل تذكر الأسماء أكثر سهولة بالنسبة لنا.

كان يوما رائعا. لكن لم يطل الوقت حتى حلت خيبة الأمل من كل ذلك. فمع مرور بضعة أسابيع اعتقدنا أن السود قد اعتادوا أسماءهم الجديدة وأنها أصبحت جزءا من حياتهم. كان إصرار السيد روبسون على المعلمين وجميع من في المستعمرة أن لا ينادوا الأصليين إلا بأسمائهم الجديدة، واستجابة الجميع لذلك جعلتني بالفعل أعتقد أن الأسماء قد اكتسبت حياتها في النهاية، لكن لم يطل الوقت بي حتى اكتشفت أن أولئك الهمج لا يزالون ينادون

بعضهم البعض بأسمائهم القديمة عندما يتحدثون بلغتهم التي أخذوا يطعّمونها ببعض المفردات والتعابير الإنجليزية. قد يبدو الأمر لغيري بسيطا، ولكن ليس بالنسبة لي أنا الذي أعرف كم بذل السيد روبسون من جهود لأجل السود. ليس ذلك في الواقع سوى خيانة لما فعله هذا الرجل من أجلهم.

عندما أستعيد تلك الأيام أستطيع الآن أن أرى كيف تحولت مجريات الأمور وكيف تلاشى التفاؤل والأمل بنجاح حملة التعليم لتحل مكانه الخيبة والشكوك. ولا بد من القول إن جزءا من ذلك الفشل يعود إلى المعلمين أنفسهم الذين لم يقدموا للسيد روبسون -والحق يقال- ما يستحق من الدعم والمساندة. فالسيد سميث كشف عن تقاعس في عمله وفظاظة في كلامه دفعت السيد روبسون لتوبيخه علانية، بينما اتضح بالتجربة أن ابن القائد الجديد لم يكن يتحلى بأي خبرة أو إرادة، وأن زوجته المتأففة على الدوام من الحياة على جزيرة فليندرز، لم تكن على استعداد لتقديم أية مساعدة. أما زوجتا الضابطين فلم تفعلا سوى الثرثرة والشكوى من ضيق المدرسة. كل ذلك عدا ما أبدته السلطات في هوبارت من تقصير في دعم جهودنا بعد أن قيل الكثير عن عزمها على المساندة في كل ما يلزم. قُوبلت طلبات السيد روبسون المتكررة بمزيد من الكتب والمعلمين بسلسلة من التسويفات والتبريرات، وفي النهاية لم نتلق أي دعم مادي ملموس. لكن الأسوأ صدر عن صيادي عجول البحر، ولا أتردد في القول إن هؤلاء من أكثر رجال أوروبا إجراما وانحطاطا. رهط من الأجلاف العتاة الذين كانوا يعيشون في الجزر المحيطة، يخطفون نساء من السكان الأصليين ويرتكبون بحقهن أشنع الموبقات. بعضهم

كان يعيش في الجوار، بل وكانوا يزورون المستوطنة ويترددون على مخزن لويس لشراء بعض الحاجيات وهم يتلفظون بأفظع العبارات والكلمات الفاحشة. كان السود يعلمون أن أولئك الأشرار يحتجزون نساء من بينهم وكانوا يتأملون في وعود السيد روبسون في إنقاذهن، لكن رغم كل الرسائل والمناشدات التي وجهها هذا الأخير إلى السلطات في هوبارت لم يفعل أحد أي شيء. قالوا إن النساء أنجبن الكثير من المواليد ولم يعد بالإمكان نقلهن أو تحريرهن من أسر أولئك الرجال. لم يكن هذا القرار بعدم التدخل تجسيدا للظلم وغياب العدالة فقط، بل كان طعنا في مصداقية السيد روبسون ومشاريعه فيما يخص السود.

كل ما سبق يجب ألا يشتت الأنظار عن جوهر المشكلة الحقيقية التي واجهت حملتنا. ففشل الحملة لا يعود إلى البيض رغم كل ما ارتكبوه من أخطاء، بل إلى السود، فهم الذين يتحملون المسؤولية الكبرى. أعلم أن ما سأقوله قاسٍ وصعب بالنسبة للكثيرين، لكن الحقيقة أن الأصليين لم يفعلوا ما يتوجب عليهم للاستفادة من المساعي الكبرى لإصلاحهم. رفضت قلة محدودة منهم حضور الدروس في البداية كتلك المتوحشة ماري، لكن عدد الرافضين ازداد مع الأيام إلى أن تحول إلى أكثرية، وكأن حضورهم لم يكن بداية الأمر سوى بدافع الفضول أو ربما الضجر والرغبة في التغير، وما إن خبت شعلة الفضول حتى انفضّ الجميع عن المدرسة. وحتى أولئك القلة الذين تابعوا دروسهم لم يكونوا ليترددوا في الانقطاع لأيام من أجل رحلة صيد حمقاء. أدى ذلك إلى صعوبات كبيرة في تدريسهم وخصوصا بالنسبة لكبار السن الذين كانت ذاكرتهم تضمحل سريعا. وكم كان من الصعب تحمل

تلك الانقطاعات بعد أن نمضي أسابيع في تلقين الوصايا العشر ليأتي يوم ينقطع فيه الجميع فجأة وينسون كل شيء. هكذا كانت تضيع جهودنا سدى ونحن ننتظر عودتهم من رحلات صيدهم، لا لشيء إلى لنراهم من جديد لا شيء يشغل عقولهم سوى ما أصابته سهامهم من كناغر. لم يكن ولا حتى واحد منهم شغوفا بكليته بالتعليم، وجورج فان ديمن أكثر الطلاب نبوغا كان بين فترة وأخرى يشرد وينشغل بعوالمه الخاصة المجهولة أو يشكو من أنه يريد أن يتعلم الحساب رغم إيضاحاتنا المتكررة له بأن ما يسعى إليه لا جدوى منه. ومثله كرومويل أخوه غير الشقيق لم يكن أفضل حالا، فرغم إتقانه للإنجليزية بشكل ملفت وحفظه للوصايا العشر ولأكثر المفردات صعوبة وغرابة فإن ملامح وجهه المتجهم كانت تشي على الدوام بأنه لم يكن مؤمنا على الإطلاق بأي شيء مما كان يردده.

هنا تكمن المعضلة الكبرى في إصلاح السود. فعلى الرغم من تمكن العديد منهم من حفظ سطور الكتب المقدسة وترداده إلّا أن قلوبهم في حقيقتها مغلقة في وجه نور الإيمان في تلك الكتب. بعضهم يحضر صلوات الأحد في الكنيسة لكنه يغطي وجهه بمنديل يربطه عند جبينه فيحجب عينيه ليتمكن من النوم خلال القداس دون أن يراه الآخرون، وكأنهم يعتقدون أنه ما من تأثير يرجى من الدين المسيحي على حيواتهم. لكن الواقع وبشكل محزن أثبت العكس، فلطالما لاحقتهم الكوارث والأوبئة، ومنذ أن وصل السيد روبسون إلى المستعمرة خفّت أعداد الوفيات بينهم لفترة وجيزة ثم ما لبث أن حصد الوباء أعدادا كبيرة ومتزايدة منهم فانخفض تعدادهم من المئتين إلى ما دون المئة، وأكواخهم

التي أقلق ازدحامها القائد الجديد عند وصوله أصبحت الآن أكثر من كافية للأسف. بدأت المستعمرة مع الوقت تفرغ من ساكنيها لتزدحم المقابر بهم.

كثرت الأقاويل بين سكان المستعمرة عن أسباب محنة السود واضمحلالهم. قال الطبيب وهو رجل غير ملتزم بالتعاليم المسيحية إن ذلك يعود إلى كون السود تعرضوا لأمراض جديدة وصلتهم عبر احتكاكهم بالبيض وأجسادهم لا تمتلك مناعة ضدها، كما أن حجزهم في مكان ضيق يتناقض مع طبيعتهم التي تنزع إلى الترحال والتنقل في فضاءات رحبة أدى إلى إضعاف قدرتهم على مقاومة المرض. لا أستطيع إخفاء رأيي هنا رغم ما قد يبدو فيه من قسوة. أعتقد لو أن الأصليين قد حاولوا فتح قلوبهم بصدق أمام أنوار الكتب المقدسة لما تركهم الرب يتعرضون للوباء، ولعل كل ما جرى لهم ليس سوى جزائهم العادل لقاء خيانتهم للسيد روبسون. ألم يعرض حياته للخطر وهو يتنقل في البراري بحثا عنهم وسعيا إلى إنقاذهم؟ ألم يكرس كل دقيقة من وقته وكل إمكانية في حياته من أجل تعليمهم وإصلاحهم؟ وما الذي فعلوه هم؟ لم يبدر منهم سوى الجحود وإنكار الجميل. المسكين من جانبه لم يستسلم لليأس ولم يزده حزنه مع كل موت بينهم إلا إصرارا على متابعة الطريق معهم.

أذكر أنه أفضى لي ذات يوم بما كان يثقل صدره: «إن لم ننجح في إنقاذهم بطريقة ما فعلينا ألا نقنط وأن نسعى لاكتشاف طريقة أخرى تساعدهم».

بالطبع لم تكن لمرامي السيد روبسون أن تخفى عني هذه المرة أيضا. بدأ بعد فترة وجيزة حملته الأخيرة، ولم تكن معنية بتعليم

الأصليين بقدر ما هي معنية بتخليصهم من عاداتهم الوثنية. بدأ ذلك بسلسلة من الإعلانات توالت تباعا لمنع حلقات الرقص الليلية التي اعتادوا على ممارستها بين فترة وأخرى، وكذلك منع رحلات الصيد التي كانت تهدف أغلب الأحيان إلى تجاوز رقابة الموظفين المعنيين. كما طلب من السود التخلي عن الحلي التي يرتدونها حول أعناقهم وتتكون كما سمعنا من عظام موتاهم، تقليد بربري لا يمكن أن يتفق مع التعاليم المسيحية على الإطلاق. لكن للأسف كل تلك النوايا الحسنة لم يكن من السهل تطبيقها. فما إن توهم السيد روبسون أنه نجح نوعا ما في منع ارتداء الحلي حتى اكتشف أن رحلات الصيد لا تزال تحدث وبطريقة مفاجئة يتعذر منعها. كما أن حلقات الرقص التي قلَّت في البداية سرعان ما عادت إلى ليالي الأصليين لكن في أماكن أكثر بعدا أو خفية كما في الأدغال المجاورة. وكثيرا ما عثر المعنيون بمتابعة الموضوع على آثار حلقات الرقص في مخلفات النيران وما يتركه السود وراءهم في أماكن بعيدة عن الأنظار يصعب رصدها. وهكذا تعاقبت الأيام والأسابيع والشهور والأصليون بعنادهم وتصلبهم يرفضون كل المحاولات لتخليصهم مما أضفى على يوميات المستوطنة الصغيرة جوا من الحزن والكآبة إلى أن جاء ذلك اليوم الذي صدمنا بأخباره.

وصلت سفينة التموين بعد ظهيرة يوم خميس كالمعتاد، ولكن مع أخبار تخص السيد روبسون. كنا قد سمعنا أن مستعمرة جديدة تبنى على الساحل الأسترالي المقابل لجزيرة فليندرز في خليج فيليب. وعلمنا في ذلك اليوم أن السيد روبسون مرشح قوي لتولي منصب الحاكم المسؤول عن شؤون السكان الأصليين في تلك المستعمرة وأنه في الحقيقة لا يمانع. علمنا أيضا

أنـه إن تمـت الأمـور كـما هـو مخطـط لهـا فإنـه سيتسـلم مهامـه الجديـدة في غضـون بضعـة أشـهر. سررت مـن أجلـه بطبيعـة الحـال، فمعرفتـي التـي توطـدت بالرجـل عـبر علاقـة العمـل جعلتنـي أثمّـن مـا لديـه مـن خصـال. فهـو يتسـم بنبـل في طبعـه وسـمو في أخلاقـه، ويسـتحق كـما أعـرف عـن قـرب أن يكافـأ عـلى كل مـا قدمـه مـن خدمـات لمجتمـع المسـتوطنة وللسـكان الأصليـين، رغـم الواقـع المريـر الـذي آل إليـه حـال هـؤلاء. فرسـالته عـلى جزيـرة فلينـدرز وصلـت إلى خواتيمهـا الحزينـة بتضـاؤل عـدد السـود الذيـن بـدأ مسـتقبلهم المحبـط يلـوح في الأفـق.

أمـا بالنسبة للمستوطنين الأوروبيـين فلقـد كانـت ردة فعلهـم عـلى أنبـاء رحيـل السـيد روبسـون الوشـيك مخيبـة للآمـال حقـا. الأحقـاد والضغائـن التـي خلـت أنهـا تلاشـت مـع الوقـت عـادت لتطفـو عـلى السـطح مـن جديـد كـما اكتشـفت بنفـسي في أحـد الأيـام. ففـي بعـد ظهـيرة أحـد أيـام الشـتاء العاصفـة وبينـما كنـت في طريقـي إلى المدرسـة لأبـاشر في تحضـير دروس اليـوم التـالي وجـدت نفـسي أعـبر بجـوار الطبيـب والبسـتاني اللذيـن يقفـان عنـد المخـزن اتقـاء للريـح البـاردة.

«هـذا مـا يريـده عـلى أيـة حـال». سـمعت الطبيـب يقـول هـذا. «لقد حقـق لنفسـه نجاحـا مهنيـا كبـيرا مـن وراء اهتمامـه بأولئـك السـود».

«حـذارِ أيهـا الطبيـب»، توقفـت وقلـت لـه مبـاشرة. «يبـدو لي أنـك تتحـدث عـن السـيد روبسـون، وليـس مـن الإنصـاف أن تقـول هـذا بحـق مـن خاطـر بحياتـه مـن أجـل إنقـاذ الأصليـين».

صـوب الطبيـب نحـوي نظـرة سـاخرة: «أجـل وقـد جنـى مـن مهـمات الإنقـاذ تلـك الكثـير. خمسـة جنيهـات عـن كل رأس عـلى مـا أذكـر».

لم يكن بوسعي أن أدع تعليقا ينضح بكل ذلك الشر يمر مرور الكرام. «كسب شريف مقابل عمل نبيل، وليس من اللائق أن تحط من شأن رجل ليس بوسعك الارتقاء إلى مستواه». قلت كلامي وتابعت طريقي لكن دون أن تخف حدة غضبي. وفي المدرسة التي وجدتها فارغة كالمعتاد في مثل ذلك الوقت من اليوم جلست على الطاولة ونظرت إلى ما ينتظرني من عمل ثم سالت الدموع من عيني. لا أدري كم من الوقت جلست وحدي أبكي لكني أذكر كم هزتني المفاجأة عندما سمعت صوت الباب يُفتح وخطوات السيد روبسون التي أميز وقعها جيدا تقترب مني. حاولت تمالك نفسي وإخفاء دموعي، لكن دون جدوى.

«ما الذي يضايقك يا سيدة برايس»، سأل بقلق بادٍ.

لم أتمكن من إخباره بشيء. وكيف لي أن أفعل والسبب ليس سوى هو نفسه وما تتداوله الألسن من سموم في حقه. «أنا بخير. لا شيء على الإطلاق»، قلت بإصرار. لكنه بلطفه المعهود ذهب وأحضر لي كأسا من الماء، أمر في الحقيقة ضاعف من انفعالي وتأثري. نهضت متحاملة على نفسي وقلت «المعذرة، علي أن أذهب».

«لكنك حتى الآن لم تخبريني ما الذي يزعجك يا سيدة رايس؟»

أسرعت باتجاه الباب.

نادى علي: «لكن يا سيدة رايس لا يمكنك الخروج هكذا دون شالك».

كنت قد نسيت الشال في غمرة حزني وغضبي، ومع ذلك لم أكترث به كأن شيئا لم يعد يهمني. فتحت الباب وخطوت في ضوء الغروب الشاحب لا أنوي شيئا سوى أن أجد مكانا أخلو فيه إلى نفسي وأستجمع أفكاري المشتتة.

«سيدة برايس!» سمعت صوته من الخلف ينادي علي. «الشال.».

ربما كان من الصواب أن أستجيب لندائه وأتوقف. لكني مضيت بخطوات حثيثة نحو الشاطئ وأصوات الأمواج تتعالى حتى وصلت إلى تلك المنطقة التي ترسو فيها السفن حيث العلامات الحمراء المثيرة للأعصاب كأنها عيون مفتوحة على شيء ما مجهول. شعرت فجأة بصقيع الهواء حولي فتوقفت واحتميت بصخرة. هل يمكن تصديق ما حدث؟ لقد تبعني السيد روبسون طوال الطريق ليضع الشال على كتفي.

«أنت تعرضين صحتك للخطر مهما كانت دوافعك».

ما الذي كان بوسعي قوله! «بعد كل ما بذلناه من جهود وعمل، وبعد كل تلك الآمال والأحلام..». ارتبكت وأنا أبحث عن الكلمات. «لا شيء وصلت إليه سوى أني حزينة».

تأملني بعناية للحظات ثم قال: «لا داعٍ لليأس سيدة برايس. جهودنا لن تذهب سدى في نهاية المطاف. صحيح أن وضع السود متردٍّ وصعب، لكن تخيلي كم سيكون أسوأ لو أنهم بقوا هناك في أرض فان ديمن تحت رحمة أولئك القساة الجهلة في منأى عن أي تعليم مسيحي حقيقي. وحتى لو تدهورت أحوالهم ولقي كل واحد منهم حتفه هنا، فعلى الأقل سيكون قد اقترب من كنف الرب».

لكن كلماته لم تفعل سوى أن جعلت دموعي تتدفق أكثر. «لقد فشلت..».

«لا، إياك أن تفكري بهذه الطريقة. أنت انتصرت وإن كان هناك من يمكن إلقاء اللوم عليه فهو أنا باعتباري صاحب القرار في هذه المستوطنة».

فاجأني جوابه ونظرت أبحث عن تفسير في وجهه. «أحقا تعتقد ذلك؟»

كادت ثقته تتلاشى للحظات وعبرت وجهه غيمة من الشك. «كانت أوقاتا عصيبة».

لم أكن أريد لحظتها سوى أن أفعل أي شيء يعيد السكينة إلى روحه المتعبة فوجدت نفسي أضع يدي على كتفيه وأقبله على خده كما تفعل أي أخت تواسي أخاها المجروح، لا أكثر ولا أقل. لكن يالَلشر في صدور اللئام، كم يشوه البراءة ذاتها. في تلك اللحظة سمعت فجأة صوت ضربات خفيفة رتيبة ومتواترة كأنها نقرات نقار الخشب على جذع شجرة. نظرت في جهة الصوت فرأيت السيد سميث يقف عند حاجز حديدي كبير ينقر غليونه عليه وينظر إلينا.

كانت الأسابيع التالية عصيبة حقا، فما من فضيحة يتم تكذيبها مهما كانت تحمل من إشارات التلفيق. والأكثر صعوبة من كل ما أحاط بي النظرات. نظرات زوجة السيد روبسون جعلتني أتساءل: كيف لعيون البشر أن تحمل كل ذلك الحقد؟ ظهر جليا أنها وزوجها لم يعودا يتكلمان مع بعضهما، واجتاحتني المرارة من فكرة أني ودون قصد قد أكون السبب في كل تلك التعاسة. زوجي لويس كانت ردة فعله قاسية وأخذ ينظر إلي بحقد وبرود وطلب أن أتوقف عن التدريس على الفور. أما السيد روبسون فأخذت تصرفاته تتسم بالغرابة والارتباك كلما جمعنا مكان واحد وأصبح يتحاشى أي لقاء بي أو نظرة عابرة، وكلما لمحته في مكان ما يسارع إلى تغيير جهة مسيره. لم أشعر بأي استياء منه، وكيف لي أن ألومه! بل إني شعرت بتأنيب الضمير تجاهه، وأقضّ مضجعي بالفعل أن

ما حدث قد يسبب له الحرج ويحرمه من فرصة الترقية وتسلّم المنصب الجديد. وبعد انقضاء شهر كامل وبينما نحن ننتظر أن يستدعى إلى هوبارت لمناقشة تفاصيل عمله الجديد وصلت سفينة التموين مع أخبار مفاجئة، فقد علمنا أن حاكم أرض فان ديمن سيقوم بزيارة قريبة إلى المستوطنة.

بيفاي، 1838

كان مشهدا مزعجا أن أرى البدين روبسون ينزل من المركب الذي أتى به إلى جزيرة فليندرز في أحد الأيام وهو يبتسم راضيا عن نفسه. لكن الأسوأ كان رؤية من أحضر معه. تاياليه، أخي ذلك البغيض لا غيره. كنت أعتقد أنه اختفى وأن أثره زال إلى الأبد، لكنه عاد من جديد للظهور في حياتي. أغاظني أنه يتكلم لغة البيض بطلاقة أكثر مني مما جعل البدين روبسون والآخرين يطرون عليه ويحيطونه بالرعاية والإعجاب. كان هذا تحديا بالنسبة لي، كأن الوغد الصغير يصر دوما على أن يتفوق علي كمن يخلص إلى رغبة سرية ما. لهذا أبهجني ما فعلته أمي عندما استقبلته بتلك الصفعة المدوية.

أصبح مع الوقت من أكثر المقربين من روبسون، ولم يكن يعجز عن القيام بأي من المهمات الجديدة التي يكلف بها في الزراعة أو الحرف الأخرى. كان يبادل الأشياء بنقود في مكان يسمى السوق وهو يرتدي قبعة من القش، وعندما ينتهي من ذلك يعمل في صحيفة جزيرة فليندرز. لكنه غالبا ما كان يعمل في التدريس، وبدلا من أن يمنحه هذا التميز الرضى والسعادة كان على الدوام وبشكل محير حزينا. مزاجه متقلب، تراه أحيانا متعطشا لمديح

وإطراء روبسون، وفي أحيان أخرى تراه مضطربا يريد العودة إلى أمي التي لم تكن تقابله سوى بمزيد من الكراهية.

كان البدين روبسون مشغولا على الدوام يصرخ هنا وهناك وهو يتابع أعمال البناء. بنوا مستودعات جديدة وبيتا لآلهتهم أسموه كنيسة وكان من القرميد. كما بنوا أكواخا لنا أيضا من القرميد ضيقة ومظلمة كانت تسبب لنا السعال ونحن نكتظ بها في الليل. ونظموا دروسا كثيرة في المدرسة لتعليم أمور الدين أيضا. لكن لم يتغير شيء بالنسبة لنا، كأن حياة جماعتنا كانت على الدوام خارج زمنهم. كم كانت أياما عصيبة وأنا أرى الجماعة تتضاءل وتكاد تتلاشى مع مرور الأيام كما ينقضي يوم صيفي طويل. كل ما كان يقال عن البدين روبسون من أنه منقذنا ومخلصنا فقد معناه، وحتى أكثر المتحمسين له أخذوا يكتشفون حقيقة أنه يقتلنا أيضا ولكن ببطء وليس دفعة واحدة كغيره. كان يحزن لموت أحدنا. نعم، لكنه لا يسمح بإحراقه وفق طقوسنا المعتادة، بل يطلب دفنه كما يحب الرب؛ وفق ما يقول. لم يزدني هذا إلا كراهية له. خفتت جذوة الحياة في أرواحنا وطغت أحاديث الموت والمرض على يومياتنا حتى لم نعد نبالي بالعيش وقد تلاشت آمالنا بالخلاص. أنا نفسي بدأت أخاف من أن أفقد موهبة المقاومة التي كانت دائما بوصلتي في كل ما قاسيت فرحت أتشبث بما يربطني بها وأعيد ترددادها في ذهني كمن يصلي وفق تعاليم روبسون.

تعلم حيل البيض.

ارحل عن هذا المكان.

قاتلهم وقاتلهم.

دائما وإلى الأبد.

كيف نقاتلهم؟ لا أعرف بالضبط وفي الواقع لم أكن أبالي بمعرفة كل ذلك، إذ إن مجرد مواصلة العيش كانت تكفي في تلك الأيام في كفاحنا من أجل البقاء. كنت في كل الأحوال أفعل ما بوسعي وأحاول دائما أن أغير أي شيء. كتبت رسائل إلى الحاكم في هوبارت قدر استطاعتي واستعنت دائما بالرجل الأبيض الوحيد الذي أثق به، الطبيب جونز الذي لم يكن يرغمنا على فعل ما لا نريد. علمني كيف أفتتح رسائلي وكيف أخاطب بتعبير سيادتكم وصحح لي أخطائي الإملائية. كتبت الكثير من الرسائل، ومع كل سفينة تمر بنا كنت أرسل واحدة. لم يصلني أي رد، كأن رسائلي لم تصل إلى أحد، ومع هذا لم أيئس، وواصلت بعناد سعيي لإيصال صوتي، إلى أن أتى يوم ركض فيه الطبيب جونز إلى كوخي ليخبرني أن سفينة وصلت تحمل أخبارا بأن الحاكم الجديد نفسه سيقوم بزيارة جزيرة فليندرز. أثارني الخبر ورأيت فيه نافذة أمل وعزمت على إخبار الحاكم شخصيا بما يجري لنا، وعلى مناشدته أن يتركنا نعود إلى عالمنا ووطننا الذي نفينا منه.

قضى البيض أياما عديدة في التحضير للزيارة وتحولت الجزيرة الصغيرة إلى ورشة ينظفون فيها كل شيء ويصنعون الطاولات، الكثير منها لنجلس عليها جميعا -كما سمعت- ونأكل مع الزائر. ثم في أحد الصباحات وبينما كنت أجلس على ربوة تطل على المرفأ، مكاني المفضل حيث أتأمل البحر وأحلم باليوم الذي سنبحر فيه مغادرين هذا المكان الموحش، إذا بقارب صغير يحمل رجلا أبيض غريبا يقترب. نزل فتبينت ملامحه القاسية، لحية شعثاء ورأس أصلع يشبه كرة وردية اللون، وعندما عبر بقربي انبعثت منه رائحة منفرة. تجاوزني ومضى في طريقه نحو المستوطنة ورغم

هيئته القبيحة علمت أنه في زيارة يقوم بها أمثاله عادة للتزود بحاجتهم من المؤونة.

أذكر أنه عاد بعد برهة يحمل سلتين كبيرتين بالكاد أحاطت ذراعاه بهما. وما إن اقترب قليلا حتى سمعت وقع خطوات تلاحقه واستطعت تمييز الغضب والتوتر فيها. التفت فإذا بأمي تحمل عصا وتطارده والكراهية تنضح من وجهها كما لم أرها من قبل. انتبه الرجل الأبيض فوضع سلتيه على الأرض مما أعطاه حرية المناورة، وكانت حركة ذكية منه، إذ استطاع تفادي ضربة العصا الخاطفة التي وجهتها أمي نحوه بقوة. لم تمض لحظات حتى اشتبكا في عراك، كل منهما يمسك بأحد طرفي العصا. وثبتُ في تلك اللحظة كي أدافع عنها وأحميها من ذلك الوغد، إلا أني رأيته يتغلب عليها ويأخذ العصا منها، وبدل أن يقتلها حمل سلتيه ومضى راكضا بأقصى ما يستطيع من سرعة إلى حيث قاربه وقفز إليه مبتعدا عن الشاطئ. كانت أمي قد تقدمت في العمر فعلا ولم تعد تقوى على القتال. جلست على الأرض تدلك بيدها مكان إصابتها من السقوط على جانبها ووجهها يحتقن حقدا وبؤسا. اقتربت منها وسألت: «من ذلك الرجل؟» لكنها لم تجب بكلمة، بل نهضت ومضت بصمت.

تملكتني الحيرة تجاه هذا اللغز، فقد مضى وقت طويل جدا منذ أن حاولت فيه أمي قتل أي أحد من البيض. لكن الجواب على أسئلتي المقلقة لم يتأخر. فعندما وصلت إلى الكواخ وجدت مونغانا صديقي ينتظر وفي عينيه نظرة الكراهية ذاتها التي كان يصوبها نحوي في أيام الطفولة.

«ما المشكلة؟» سألته.

صوب نحوي نظرة احتقار كأنه يبصق علي. «قالت أمي إنها رأت أباك يمشي قرب المخزن». صمت فجأة كأنه شعر بالعار ثم أضاف: «ما كان عليه القدوم إلى هنا».

وهكذا رأيته في صباح عادي، أبي الذي لم تقع عيناي عليه من قبل. كان غريبا أن لا أتعرف بحدسي عليه. وكيف لي أن أفعل والذي مر بقربي لم يكن سوى رجل قذر وأشعث تفوح منه روائح اللحوم النتنة والعرق، بينما كنت قد رسمته في مخيلتي وأنا ألتقي به شخصا رائعا بوجه لطيف وشعر أنيق. صدمني شعوري أني وبالرغم من كل هذا أتحرق لمصادفة أخرى تجمعني به. قد يعود مرة ثانية. هل أريد ذلك حقا؟ لا، لست متأكدا من ذلك على الإطلاق.

أمر غريب آخر حدث في ذلك اليوم. فوجئت بسميث صامتا على غير عادته، فعندما ذهبت إلى درسه الذي كنت أتوقع أن أسمع فيه ما يعيده ويكرره دائما عن قصة الخلق وما حفظته منها وجدته ينتظر مع البدين روبسون الذي بدا متجهما.

«شكرا للرب أنك هنا يا كروميل. هل رأيت جورج. كان من المفترض أن يأتي إلى دروسه منذ الصباح، لكننا لم نره حتى الآن. هذا مقلق لأنه لم يتغيب مرة عن الدروس، ولقد بحثت عنه في كل مكان ولم أجده».

جورج الاسم الذي أطلقه روبسون على تاياليه، وبالفعل تغيبه أمر مثير، فهو لا يتخلف عن الدروس عندما يذهب الآخرون إلى الصيد، وحتى عندما يكون مريضا لا يمكن أن يفوت درسا.

لا، «لم أره»، قلت وأنا أفكر في الأمر. لا بد أن قلق روبسون هذا يعود إلى زيارة الحاكم، فهو يريد أن يريه مواهب تاياليه وذكاءه

ويتباهى به. لم أكن أريد فعل أي شيء يرضي أو يريح روبسون، فهو في النهاية عدوي. لكني حدقت في عينه، كنت أريد معرفة السر وراء هذا الغياب. وهكذا وجدت نفسي في لحظة واحدة محكوما بتناقض.

«سأبحث عنه».

«شكرا لك يا كرومويل»، قال روبسون وهو ينظر إلي مع ابتسامة، لكن نظرته لم تكن تخلو من تلك الكراهية. فهو يعلم ما في قرارة نفسي من ضغينة تجاهه لأنه هو الذي تخلى عنا ودفعنا إلى هذا المصير الذي نتدحرج فيه إلى الموت. ما يجعله يكرهني معرفته بأنه بالنسبة لي ليس ذلك الرجل الوفي، بل مجرد خبيث ومخادع.

وهكذا مضيت أبحث عنه. لم أكن أحب تاياليه، لكني أعرفه جيدا وأعرف الأمكنة التي يتردد عليها. غالبا ما يذهب عندما تعنفه أمي إلى أحد التلال القريبة من المستوطنة. كانت الأرض رطبة هناك، ومن السهل أن تحفظ آثار أقدام العابرين، فمضيت أبحث حتى عثرت على أثر لأقدام ضعيفة كقدميه. تبعت الأثر بكل ما لدي من خبرة وحنكة في الصيد حتى انقطع على تخوم الغابة، وبالقرب من شجرة ضخمة سمعت بعد لحظات صوت نحيب يأتي من أعلاها فقمت بتسلقها. كان تاياليه يختبئ أعلى الشجرة حيث الأغصان رقيقة تهتز مع الريح أو لأي حركة.

«ماذا تريد؟» سألني وقد أغضبه أني اكتشفت مخبأه السري.

كان مكمنا مناسبا بالفعل حيث تتفرع الشجرة إلى ثلاثة فروع صغيرة فتفسح له مكانا يكفي للجلوس المريح أو حتى للنوم إن توخى الحذر. أحاطت به بعض الأوراق والأغصان الصغيرة التي

رتبها وكان معه قارورة ماء وخبز وكوب مكسور وضع فيه سكرا.

«لماذا لست في المدرسة؟» أجبته صائحا. «روبسون غاضب منك».

«اذهب من هنا». كلماته كانت عدائية لكن صوته رقيق يكاد يتكسر كعود يابس وكأنه في أعماقه يريد أن أحبه أو أتقرب منه. لكن تاياليه كان دائما هكذا، يريد صحبتي ويسعى إلى ودي، أمر حيرني كثيرا فأنا لم أكن أقابله سوى بالكراهية والاحتقار. «ما بك؟» قلت بصوت تصنعت فيه الرقة. «بوسعك أن تخبرني».

كان ذلك كافيا لتنهار مقاومته دفعة واحدة فاندفع يقول بصوت متهدج: «لا أدري ماذا أفعل. أتت أمي اليوم وقالت لي إنها رأت أباك، وإن علينا أن نقتله مع كل الرجال البيض الآخرين، وإننا إن لم نفعل ذلك فلن يكون مصيرنا سوى الموت على أيديهم. قالت إن علي أن أساعدها في ذلك وستكون هذه فرصتي الأخيرة كي أكسب عطفها».

هذا إذن ما وراء الأكمة. لم يخب حدسي. «وكيف تريد قتلهم؟»

«أمي تقول إن علي ألا أن أخبر أحدا»، قال وهو يشيح بوجهه.

«لكن يمكنك إخباري. أنا أخوك».

بسهولة أفصح عما لديه. مسح عينيه الدامعتين وأخفاهما بكفيه. «تقول إن علينا أن نرميهم بالسهام خلال زيارة الحاكم عندما ينتهون من العشاء، ويخرجون بأجسادهم البدينة متخمين ومتعبين. بعد ذلك نأخذ مركب الحاكم ونعود به إلى وطننا. وقالت إن علي أن أقتل السيد روبسون». أجهش بالبكاء. «لكنه صديقي».

أدهشتني خطة أمي وشعرت بأنها تشبه المزاح. لكن الأمر بلبلني وأصابني بالحيرة. صحيح أن قتل روبسون أمر لا يمكن

إلا أن يغمرني بأمواج من السعادة، فهو يستحق ذلك.. إلا أنني ولأول مرة أشعر بأن علي أن أفعل شيئا ما لتجنيب أنفسنا كل تلك المخاطر.

«ومن معكم أيضا؟»

«باجرلي وثلاثة آخرون. يبحثون عن المزيد لصنع السهام».

عددهم قليل، وحتى لو انضم إليهم المزيد فلن يتمكنوا من تنفيذ ما يريدون. لا بد أن يكشف أمرهم، وسيقتلنا عندها الجنود. وفكرة المركب أيضا تبدو صعبة. فلو حالفنا الحظ وتمكنا بالفعل من قتلهم والوصول إلى سفينة الحاكم، فنحن لا نعرف كيف نجعلها تتحرك بتلك الجلود الكبيرة التي تدفعها الرياح، وقد نغرق جميعا. أي خطة هذه! دائما كان الشك يراودني حول نوايا أمي، فكل ما تريده أن تقتل أبي ومن تستطيع من الرجال البيض. لو قمنا بفعل ما تريد وقتلناهم فإن كل ما تعلمته من الكتابة والقراءة وحيلهم الأخرى سيذهب سدى، وسنبقى إلى الأبد في هذا المكان البغيض. لا، هذا غير ممكن، ولن أسمح به. أعلم أنه من الحماقة الوقوف في وجه أمي وإغضابها مرة أخرى، ولكن لا مفر من ذلك. صمت قليلا ثم أخذت أنزل عن شجرة تاياليه.

«انتظر أخبرني ماذا أفعل؟»

«لا تفعل شيئا».

ويليام فرامبتون، حاكم أرض فان ديمن، 1838

زوجتي هي التي اقترحت علي أن أقوم بجولة صغيرة في أرض فان ديمن لكي أتعرف عن قرب على الأراضي التي أحكمها. فكرتها أن أبدأ من ميناء آرثر أكبر المستوطنات ثم أتبعها بموقعين أو أكثر فأوطد بذلك علاقتي بسكان الجزيرة، لكن رغبتي في أن أتعرف على أكبر قدر ممكن من المستعمرة قادني إلى مستوطنة السكان الأصليين في جزيرة فليندرز. فقد كنت مهتما بأوضاع السكان الأصليين حتى قبل أن أغادر شواطئ إنجلترا، ومع وصولي إلى هوبارت اطلعت على المزيد مما أثار فضولي، وخصوصا تقرير حاكم تلك الجزيرة الصغيرة السيد روبسون الذي لم تكن منجزاته في إصلاح السود وتطويرهم تقل عن معجزة. كان مقترح سلفي في المنصب أن يرشح السيد روبسون ليكون المسؤول عن إعادة توطين الأصليين، ورغم أن الرجل بدا لي أكثر من مناسب لمهمة كهذه، إلا أني رأيت أنه من المحزن حقا أن يترك كل ما حققه في مستوطنته حتى الآن.

بدأت رحلتنا بشكل رائع، طقس مُؤات، شمس دافئة ورياح معتدلة على عكس ما كنت قد سمعت بأن الربيع في فان ديمن قلما يكون بهذا الصفاء، ومع تقدمنا عبر ريف الجزيرة الأخضر

في أوتلاند وبروس كامبل ولونسيستون كنا نتلقى ترحيبا وحفاوة في كل مكان. وعدا بضعة استثناءات، كنت في العموم راضيا عن تنظيم وإدارة معظم المكاتب والثكنات التي زرناها، وعن نظافة وترتيب المساكن التي بتنا فيها. استقللنا مركبا شراعيا من جورج تاون، لكن الريح كانت خفيفة، ومع فجر اليوم التالي رأينا جزيرة فليندرز. كانت أرضا منبسطة عدا بعض المرتفعات الصخرية المتناثرة، وجبلا ناتئا كأنه وتد شاهق من الصخر. لم يستغرق رسونا على الشاطئ أكثر من ساعة.

لا أنكر أن انطباعاتي الأولى عن مستوطنة السكان الأصليين كانت مخيبة للآمال. ففي تقريره شرح السيد روبسون أن الأصليين تم تدريبهم على العديد من الصناعات التقليدية، وكان من البدهي وفق تلك المعلومات أن أتوقع أن السود منخرطون في أعمالهم الجديدة. أذكر الصورة التي رسمتها في مخيلتي وأنا أمضي إلى ذلك المكان. تخيلت أن أرى مشهدا يشبه أي قرية إنجليزية، باستثناء حضور وجوه سوداء، فلاح يدفع محراثه، حداد في زيه الصدئ وزوجات بأثواب قطنية زاهية. لكن الواقع الذي وجدته أمامي كان مختلفا تماما عن تلك الصورة للأسف. فما إن وطئت أقدامنا أنا وزوجتي الأرض، حتى رأيت السود المتجمهرين في أسمال لا يمكن لأفقر المستوطنين البيض أن يرتدوها، وعندما نظرت إلى وجوه النسوة منهم بإيماءاتها غير المحترمة، لم أَعْجَبْ كيف انحدر هذا العرق التعيس إلى مصير يواجه فيه الانقراض.

أما السيد روبسون فقد كان في غاية الحفاوة والتهذيب؛ رجل محترم بالفعل وقد لاحظت ارتباكه وهو يقدمنا إلى موظفيه وزوجاتهم؛ ربما لأن الناس في تلك الأرض النائية، لم يعتادوا على

المجامـلات الاجتماعيـة الراقيـة. لكنـه اسـتعاد حيويتـه وابتسـامته بمجـرد أن بدأنـا جولتنـا في أنحـاء المسـتوطنة، ومـا إن غادرنـا الرصيـف حتـى اقـترب منـه أحـد الجنـود.

«بحثنـا في كل مـكان يـا سـيدي، ولكـن للأسـف لم نعـثر عـلى أثـر لهـما».

بـدا الانزعـاج واضحـا عـلى وجـه مضيفنـا لمـا سـمعه مـن أخبـار: «اسـتمروا في البحـث إذن».

لم أستطع إخفاء فضولي: «عمن تبحثون؟»

«مجـرد اثنـين مـن السـكان الأصليـين، سـعادتك، هـما شـقيّان للغاية في بعـض الأحيـان. سـنجدهما قريبا».

سرني أن المسـتوطنة في حالـة جيـدة مـن التنظيـم، رغـم أن سـكانها لم يكونـوا كذلـك. بدأنـا الجولـة مـن المخبـز الـذي فاحـت منـه رائحـة زاكيـة مـن الطحـين والخبـز الطـازج، وفي الداخـل أبهجنـي مـا رأيتـه مـن نظافـة المـكان والعنايـة الجيـدة بالمعـدات.

«كل متى تخبزون؟»، سألتْ زوجتي.

«مـرة في الأسـبوع سـيدتي»، أجـاب الخبـاز، وكان رجـلا ذا وجـه يوحـي بالسـذاجة اسـمه دون. «وأحيانـا مرتـين».

«ألا يبيت الخبز؟».

هز السيد دون كتفيه محرجا: «يبقى في حالة ملائمة يا سيدتي».

كان تعليـق زوجتـي في الحقيقـة نابعـا مـن طبيعتهـا في قـول الحقيقـة دائمـا ومـن فراسـتها في معرفـة النـاس. مـا إن تنظـر في وجـه أحـد حتـى تسـتطيع عـلى الفـور أن تكتشـف وتعلـن بـكل ثقـة مـا إن كان طيبـا جديـرا بالثقـة أم خبيثـا ومخادعـا كثعلـب. وكانـت دائمـا على حـق، حتـى إننـي كنـت أتسـاءل عـما إن كانـت تلـك الفراسـة انتقلـت

إليها بالوراثة من سلالتها. بالنسبة لي غالبا ما وجدت من المفيد الاستعانة برأيها رغم أني كنت أتعمد أن أعاملها بصرامة في بعض الأحيان وأن أتشبث بآرائي الخاصة.

بعد المخبز ذهبنا إلى مساحة مفتوحة من مرج أخضر تقابلها الكنيسة من ناحية، وصفٌّ من الأكواخ التي بنيت على زاوية قائمة من الناحية الأخرى. بدت الأكواخ مرتبة مقارنة مع سحنات السود الذين وقفوا أمامها في هيئات مزرية بالفعل وهم ينظرون إلينا بفضول. ومرة أخرى وجدت نفسي فريسة للخيبة. أين الإصلاح في هؤلاء؟

«هذه ساحة السكان الأصليين. أتمنى أن تُبلط في يوم ما كساحة إيطالية»، قال السيد روبسون.

«فكرة رائعة».

«كم هذا مبهج!» علقت زوجتي ثم سألت: «أتوقع أنه المكان الذي يعقد فيه السوق، أليس كذلك؟».

أجاب روبسون بهز رأسه بحماس.

«أليس اليوم؟».

ارتبك قائد الجزيرة وهو يجيب. «السوق مغلق حاليا، لكني أخطط لافتتاحه من جديد».

«نعم، أفهمك». فعلتها مرة أخرى ولم أفهم لماذا. أعتقد أنها -بينما يسير الجميع بخطى واثقة بمن فيهم أنا في مسار المنطق الواضح- تقوم هي بالانجراف وراء تيار آخر مهما كان في ظاهره غير منطقي، تيار غريزتها الأنثوية.

قادنا السيد روبسون بعد ذلك إلى أحد الأكواخ. مسكن مرتب بما يكفي، لولا رائحة نفاذة غير مريحة لملابس قديمة، لكن ما

يلفت النظر فيه خلوه من أي خصوصية، فما من جدران تقسمه ويشكل عمليا غرفة واحدة دون نوافذ. كان فارغا تماما سوى من بعض البطانيات المكدسة في إحدى الزوايا. «السكان الأصليون يفضلون النوم على الأرض. إنها تقاليدهم»، أوضح مضيفنا.

«لم تعرّفنا بعد على أي منهم»، قالت زوجتي وهي تنظر إلى المكان المظلم.

«هذا أمر غاية في السهولة. أخبريني فقط من تريدين وسأقدمه لك على الفور»، قال السيد روبسون بابتسامة عريضة.

فكرت زوجتي للحظات ثم قالت: «إذن أريد اللقاء بمحرر جريدة جزيرة فليندرز».

«نعم، جريدتكم»، قلت بحماسة وأنا أتذكر كيف زرت إحدى الجرائد في طريق عودتي من رحلة العمل. كان كل شيء مثيرا، المحررون والآلات الكاتبة تعمل بضوضاء ونشاط والمطبعة وبائعو الجرائد يندمجون في إيقاع العمل السريع. ورغم معرفتي بأن ما كنا نتحدث عنه وقتها لا بد أن يكون أقل بكثير من حيث الحجم إلا أني لم أتمكن من إخفاء فضولي. «لدي رغبة كبيرة في إلقاء نظرة».

عبس وجه السيد روبسون مرة أخرى. «أخشى أن الظروف الآن صعبة للغاية».

رمقته زوجتي بنظرة. «مغلقة أيضا».

ومرة أخرى كانت على حق. كنت أنا نفسي في الواقع أخشى لسانها السليط وقد شعرت بالأسف حقا لأجل الرجل الذي لم يوفر جهدا في إبداء حسن الضيافة وتقديم كل ما يلزم من التسهيلات.

«ربما ترغبون بزيارة مدرستنا. إنها قريبة، على بعد خطوات من هنا. نحن فخورون بما حققته المدرسة من نتائج جيدة، خصوصا في التعاليم المسيحية للسكان الأصليين».

وافقت على اقتراحه بطبيعة الحال ومضينا جميعا إلى المدرسة حيث دخلنا أحد الصفوف الكبيرة بهدوء، ذلك أننا سمعنا درسا يُعطى في الداخل. رأينا المعلم وهو شاب بمظهر غريب تبدو عليه ملامح عدم الثقة بنفسه. قال السيد روبسون هامسا إنه ابنه. تلاميذه كلهم من السكان الأصليين، جلسوا على صفوف من المقاعد بوجوههم السوداء الصغيرة. أي مشهد طريف كانوا سيشكلون لو أنهم فقط اعتنوا بمظهرهم قليلا. ملابسهم كانت رثة للغاية، وفي الخلف كان صبي يسعل ويحشرج بحدة مثيرة للشفقة.

«أوفيليا»، نادى روبسون الشاب على طفلة وجهها يكسوه الحزن. «ما الوصية الأولى؟»

كانت إجابتها الأولى مشجعة.

«والثانية؟»

وهنا تلاشى تركيزها وارتبكت. وللإنصاف، أعتقد أن حضور ذلك العدد من الغرباء هكذا في الدرس وهم يراقبونها شتت أفكارها. حاول المعلم الشاب تشجيعها وحثها مرتين كي تعثر على الإجابة لكن دون جدوى، وعندها تحرك السيد روبسون الذي كان متوترا بعض الشيء واقترب من ابنه.

«هل تسمح لي يا بني أن آخذ مكانك قليلا؟»

ظهرت علائم الارتياح على وجه الابن واستجاب لطلب والده على الفور. «كيتو»، نادى الأب على أحد التلاميذ بصوت

فيه رهبة سلطة المعلم ولكن بابتسامة عريضة. «لماذا خلقنا الرب؟»

بدا الصبي معتادا على السؤال، وبثقة تنسجم مع الصرامة التي ارتبطت باسمه قال من دون تردد: «لحكمته الخاصة».

«تماما، هذا صحيح. ولماذا تحب الرب؟»

«الرب منحني كل شيء».

«صحيح. وأي مكان هو الجحيم؟»

«عذاب النار إلى الأبد».

وبينما كان الدرس يسير بسلاسة، نادى طفل من خلف المقاعد فجأة دون أن يوجه إليه أحد أي سؤال: «هل يأكل الرب الكنغر؟»

صدم السيد روبسون للوهلة الأولى من غرابة هذا السؤال المفاجئ، لكنه سرعان ما استعاد المبادرة وقال بابتسامة صغيرة: «عليك أن تفهم يا نابليون أن الرب ليس مثلنا. إنه في كل زمان ومكان. يرانا في كل لحظة».

تابع الصبي بإصرار ينسجم مع اسمه: «وهل يأكل من طعامنا نحن؟»

وقبل أن أتدخل لأسأل عن أي طعام يقصده الصبي، استدارت أوفيليا نحو الصبي صاحب السؤال وقالت: «الرب لا يأكل من طعامنا أبدا».

تدخل السيد روبسون ليضع حدا لهذا النقاش اللاهوتي وصفق بيديه قائلا: «هدوء. هدوء. دعونا نبدأ من جديد». ثم التفت إلى الصبي الذي أجاب على أسئلته من قبل: «من خلق الرب يا كيتو؟»

«الرب هو الخالق». أجاب الصبي بسرعة كأنه يعرف السؤال مسبقا.

«جيد جدا». ثم التفت إلى أوفيليا: «من خلق السماء؟».

«الرب خلقها».

«أوميغا، من خلق الأشجار؟».

«الرب خلقها».

«لياندا، من خلق الشمس؟».

«الرب خلقها».

«بيتسي، من خلقك؟».

«الرب خلقني».

بعد ذلك توجه إلى صبي بتعابير مشاكسة يجلس في المؤخرة: «فولتير، من خلقني؟».

«الشيطان».

كانت لحظة مؤلمة حقا. ضحك زملاء فولتير وحاول السيد روبسون أن يفعل ذلك أيضا رغم أن المفاجأة قد جرحته. وبالطبع كان من الصعب معرفة ما إذا كان الفتى قد تعمد فعل ذلك بإجابته التي بدت الإحكام الوحيد بين ما تردد من إجابات متكررة استطاع المعلم استخراجها من تلاميذه بمهارة. في كل الأحوال ألقت تلك الإجابة بظلالها على إيقاع الدرس وبدا من العسير على السيد روبسون المتابعة رغم أنه حاول جاهدا وبروح إيجابية أن يستعيد المبادرة من خلال أسئلة جديدة عن الصلوات، لكن محاولته باءت بالفشل ولم يكن من الممكن إعادة الحيوية إلى مجريات الدرس من جديد.

«من سوء حظنا يا صاحب السعادة أن أفضل طالبين لدينا غائبان اليوم. أنا واثق أنهما كانا سيحوزان على إعجابك بما

يتمتعان به من ذكاء ومعرفة لو كانا معنا في الدرس».

«أليس هذان من اختفيا فجأة؟» سألت زوجتي. «أين يمكن أن يكونا؟»

«لا بد أنهما يلعبان في مكان ما. أنا واثق أننا سنعثر عليهما قريبا».

كنت أتوق كثيرا لحضور هذا الاحتفال، فقد أخبرنا السيد روبسون أنه حضر ما يشبهه عندما وصل إلى هنا قبل ثلاث سنوات لتسلم مهامه كقائد للجزيرة وكيف أبدى السود حفاوة كبيرة، أمر سيسعدنا بالطبع من أولئك الذين لم نر منهم سوى السلوك الجلف حتى الآن. علمنا أن الحفل سيقام في ساحة السكان الأصليين التي كانت قد اكتمل إعدادها لدى وصولنا ووضعت فيها الموائد. رتبت الطاولات على شكل سنبك حصان ووزعت عليها باقات زهور الربيع البرية مما أضفى رونقا من البهجة على المشهد. كانت الشمس قد مالت نحو الغرب وأخذ السود يتوافدون، بعضهم يحمل أدوات الفلاحة، وهم يتبادلون التحيات، مما ذكرني بشيء من الريف الإنجليزي. تنفست الصعداء وقد عادت إلي الروح الإيجابية بعد أن كادت تتلاشى وأنا آخذ مكاني على المائدة. جلس ذوو الشأن بمن فيهم زوجتي وأنا والسيد روبسون مع ابنه في صدارة الطاولات، بينما كان عدد من الخيالة يقدمون عرضا على مقربة منا. همست لزوجتي أن المشهد يذكرني بطقوس الموائد العالية في أكسفورد.

«دعنا نأمل أن يكون الطعام أيضا كذلك». قالت زوجتي بنبرتها المعتادة.

وللأسف صدق توجسها مرة أخرى. فقد وزع مجموعة من المحكومين الذين كانوا بمثابة نادلين أطباقا من الخضار المسلوقة. وحتى السود لم ترق لهم وجباتهم كما لاحظت، بل إن بعضهم لم يتناول سوى لقيمات من أطباقهم قبل أن ينهضوا وينسلوا مبتعدين. وبالطبع علقت زوجتي على ما يحدث.

«أتعتقد أن أمرا ما أزعجهم؟»

لم تكن مفاجأة السيد روبسون تقل عن زوجتي لمغادرتهم هكذا فنادى بصوت مرتفع: «ملتون؟ ديونيوس؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟»

بدا وكأنهما لم يسمعها وتابعا طريقهما باتجاه الأشجار. «لا بد أنها حاجات الطبيعة»، قال مضيفنا ضاحكا كمن اكتشف طرافة تفسيره. «أكيد سيعودان».

لكن الذي حدث أن أحدا لم يعد، ومع غروب الشمس وخفوت الضوء وبعد إيقاد الشموع التي أضفت جوا ساحرا على المكان ازداد عدد المقاعد الشاغرة، لكن قلق السيد روبسون كان واضحا أثناء ذلك وهو ينظر بشكل متكرر إلى الممر المؤدي إلى الساحة.

«أستميح سعادتكم عذرا. أرى أن ابني قد عاد. كان يساعد الجنود في البحث عن الاثنين اللذين أخبرتك عنهما».

في هذه الأثناء كانت الموائد قد نظفت وبدأ توزيع أطباق جديدة من حلوى لا يعد منظرها الباهت بأي مذاق شهي، وما إن وضعت أمامنا حتى فاحت منها رائحة الطحين والسكر. وعندما هممت بتذوق ما وضع أمامي شعرت بحركة خلفي وبشيء ما يلمس كتفي بخفة. لم أفاجأ واعتقدت أنها حركة المحكومين الدؤوبة، فقد كانوا يروحون ويجيئون مسرعين طوال الأمسية. لكن ما فاجأني كان قطعة مطوية من الورق سقطت في حجري.

نظرت ورائي، لكن من ألقاها كان قد اختفى في الظلام. مدفوعا بفضولي، فتحت الورقة وقربتها من ضوء الشمعة لأقرأ.

سعادة الحاكم

أعتذر منكم للمقاطعة بهذا الشكل، لكن هناك أمر في غاية الأهمية لا بد من إبلاغك به لأجل المصلحة العامة. سأكون في انتظارك وراء أكواخ السكان الأصليين.

أعطيت الورقة لزوجتي ومزيج من الدهشة والريبة يسيطر علي.

كانت هي واثقة. «اذهب. عليك أن تذهب بالتأكيد».

«أتعتقدين ذلك؟ لا أريد أن أجد نفسي متورطا كشريك في إثارة الإشاعات».

ابتسمت زوجتي التي كان لديها نقطة ضعف تجاه تشويق كهذا. «أليس من واجبك أن تعرف كل شيء عن المستعمرة التي تحكمها؟»

كانت على حق، عدا أن فعل ذلك لن يكلفني شيئا على أية حال. وهكذا استأذنت ونهضت من مكاني. تناولت شمعة لأضيء طريقي ومضيت باتجاه بيت روبسون بحيث أبدو كمن يريد قضاء حاجة. كانت الأرض وراء أكواخ السكان الأصليين كثيفة العشب محاطة بشجيرات متشابكة، وما إن وصلت حتى سمعت حفيف أوراق ثم صوتا هامسا.

«شكرا لقدومك صاحب السعادة. آسف، لم يكن من اللائق الإثقال عليك هكذا».

تقدمت بضع خطوات فأضاءت الشمعة وجها من الوجوه التي كان السيد روبسون قد عرّفنا عليها في الصباح. امرأة جذابة

بطريقة ما، شعرها داكن وتعابير وجهها متعبة. إنها زوجة المسؤول عن مستودعات المستوطنة، ذلك الرجل الذي نسيت اسمه وهيئته تماما. أي مفاجأة! لم يخطر في بالي على الإطلاق أن يكون ذلك المخبر الغامض امرأة. صدمني الأمر، وقبل أن أتمكن من النطق بأي كلمة انخرطت المرأة في البكاء. شعرت بالندم لحظتها لأني أخذت بنصيحة زوجتي، فلم أكن أريد أن أتورط في مشهد هستيري كهذا.

«أنا آسفة يا صاحب السعادة، لم أكن أريد أن أزعجك بهذه الطريقة». قالت بصوت متهدج وهي تحاول تمالك نفسها. «لكني أريد فقط أن أتحدث معك حول السيد روبسون. إنه رجل جيد بكل المعايير كما تعلم. لكن ليس من الحكمة أن تسمح له بالانتقال إلى العمل في مرفأ فيليب».

«ولم لا؟»

«إنه..». خذلتها الكلمات لبرهة ثم تابعت: «لقد خان زوجته، نعم فعل ذلك، ومع من؟ مع زوجة أحد الموظفين في المستوطنة. لا أستطيع إخبارك باسمها، لكن صدقني إنها الحقيقة».

كان اتهاما غاية في الخطورة، ووجدت نفسي عاجزا عن قول أي شيء. «هل لديك دليل على ذلك؟»

«لدي دليل يزيل كل شكوكك». ثم أضافت بنظرة توسل. «هل ستمنعه من الذهاب إلى مرفأ فيليب؟»

«سأفكر في الموضوع بعناية». إجابة بدت كافية للمرأة التي استدارت ومضت لتختفي في الظلام.

بدا لي الأمر محيرا. فالسيد روبسون شخص محترم ومستقيم ولا يمكن أن يكون زير نساء. ألا يمكن أن يكون الأمر برمته مجرد

سوء تفاهم، فزوجة مسؤول المستودعات رفضت أن تخبرني بهوية المرأة التي زعمت أن روبسون قد أغواها. لا بد لي من سؤال زوجتي عن رأيها، فالأمر غريب حقا، وليس من الممكن على الأقل في هذه اللحظة أن أعرف حقيقته. عدت إلى المائدة ووجدت السيد روبسون في انتظاري.

«الحظ ابتسم لنا هذه المرة يا صاحب السعادة. يسعدني أن أخبرك أن ابني قد أبلغني للتو أنهم عثروا على أحد المفقودين. اسمح لي أن أقدم لك السيد كromويل».

أمام الطاولة وقف في ضوء القنديل شاب غريب الهيئة، يبدو هجين الأصل، فبينما وجهه أسود البشرة كأقرانه كان شعره أشقر. ورغم الطريقة التي قدمه بها مضيفنا بدا لي رث الهيئة، قميصه قذر وممزق، وكان أحد أكمامه قد تلطخ بالسواد، لكأنه خرج للتو من حريق. نظر إليه السيد روبسون نظرة مشجعة وقال: «والآن يا كروميل، بما أنك انضممت إلينا أخيرا هل تتلو على صاحب السعادة صلوات الرب؟»

كنت قد رأيت في أحد المتاحف العلمية نماذج لما يعرف بالأذن الزانية، وإن كنت لحظتها قد شردت قليلا عما كان الشاب يتفوه به فذلك لأني كنت أختلس النظر إلى السيد روبسون لأرى إن كان لديه ما يشبه تلك العينات. وعندما انتبهت بعد هنيهة إلى الشاب وجدت أنه لم يكن يتلو صلوات الرب كما طلب منه، بل يخاطبني أنا.

«نريد مساعدتك أيها الحاكم، أنا أناشدك». تكلم ببطء وتركيز كأنه حضّر كلامه مسبقا متعمدا أن يضفي عليه صيغة رسمية: إننا نموت هنا، ولا أحد من هؤلاء قادر على إنقاذنا من الهلاك المحدق بنا. سنفنى قريبا، ولن ينجو أحد منا».

اعتقدت لوهلة أن ما يجري تم تدبيره عمدا، لكن الصدمة والذهول على وجه السيد روبسون بددت شكوكي. قاطعه بإلحاح: «ليس الوقت مناسبا لهذا الكلام. سعادة الحاكم ينتظر سماع الصلوات». لكن الشاب تابع وكأنه لم يسمع.

«أناشدك أن تعيدنا إلى أرض فان ديمن، فهذا وحده يمكن أن ينقذنا من مصير الموت المحتوم». نظر إلي برجاء وأضاف: «أرجوك أيها الحاكم، هل تفعل؟»

لم أدرِ ماذا أقول له وشعرت بالاستياء من مضيفي كيف يسمح لموقف محرج كهذا أن يحدث. حاولت تطمينه بما استطعت لحظتها متعمدا أن تكون نبرتي لطيفة. «عليك أن تعلم أننا نفعل كل شيء ممكن لمساعدتك، والسيد روبسون يبذل كل جهده للحفاظ عليكم». لكنه بدل أن ينصت أو يجيب بشيء، صعد إلى الطاولة وانتصب بقامته ناظرا إلينا.

«عليكم أن تعيدونا إلى هناك». قال بلهجة آمرة لا تخلو من التهديد. «لو بقينا هنا فسنموت جميعا».

أعترف أن الشكوك راودتني حول سلامتنا الشخصية، وحول نوايا الشاب، وما إن كان سيلتقط سكينا من الطاولة ويتهجم علينا. في تلك اللحظة فقط بدأت أفهم كل ما سمعته خلال رحلتي على هذه الأرض، عن الخوف من السود وعن دوافع الحرب معهم، وأنا أنظر إلى كروموبل ذاك الذي بدا مستعدا لارتكاب أكثر الأفعال عنفا وهمجية. نظرت إلى السيد روبسون نظرة متسائلة عما إن كان من الضروري استدعاء الجنود. لكن هذا لم يكن ضروريا لحسن الحظ، فقد جاءتنا المساعدة من حيث لم نتوقع. فجأة دخلت امرأة ضخمة من السكان الأصليين بين الطاولات

بخطوات سريعة، لا أدري أين كانت تختفي، إذ لا أذكر أني رأيتها خلال جولتنا، لكن مظهرها وتعابير وجهها الغاضب دلت على أنها تعرف حقيقة المأزق الذي نحن فيه. ركضت مسرعة نحو كروميل ورجل أسود آخر بملامح شرسة يتبعها. انقضت على الشاب فوق الطاولة وجرته حتى فقد توازنه ثم وجهت إليه صفعة مدوية فسقط. بعد ذلك التفتت إلينا في ذهولنا ورمقتنا بنظرة غريبة مليئة بالتحدي كأنها تريد أن تقول انتهى الأمر ثم مشت مع مرافقها الأسود.

«يمكنك أن تذهب من هنا». قال السيد روبسون لكروميل بنبرة محذرة.

تأملنا الشاب للحظات وبدا أن غضبه لم يتلاشَ، ثم هز رأسه بأسى وابتعد بخطى واسعة.

«من تلك المرأة؟» سألت.

«والدة الشاب».

«أم حازمة تستحق الإعجاب».

ضحك السيد روبسون بشيء من الحرج. «صحيح يا صاحب السعادة».

أما زوجتي فكانت مشغولة بأمر آخر. «أتعتقد أن حريقا شب في مكان ما. أنا متأكدة أني أشم رائحة دخان».

وكعادتها دائما كانت على حق، فقد علمنا لاحقا أن حريقا شب في أحد الأحراش شمال المستوطنة، وبقي السبب لغزا غامضا لأن المنطقة تلك كان من النادر أن يرتادها أحد. وهذا ما أنهى في الواقع مهمتي الرسمية في تلك البقعة من مستعمراتنا. فعلى الرغم من أن النار كانت على مسافة بعيدة عبّر السيد روبسون

عن قلقه على سلامة المستوطنة، وأوعز بأن توقف القداديس في الكنيسة على سبيل الاحتياط. رافقت بنفسي المجموعة التي ذهبت لمعاينة الحريق وكان مشهدا مهولا، ألسنة اللهب تضيء السماء، وتتطاير النيران في كل مكان، والأشجار تنفجر كحمم قبل أن تفنى في تفحم. لكن لحسن الحظ لم يمض وقت طويل قبل أن تهب ريح جنوبية رأينا بعدها النار تخمد رويدا رويدا.

في طريق عودتنا وعندما خلوت بزوجتي في قمرة المركب الشراعي وجدت الوقت -للمرة الأولى- لأخبرها عن حكاية المرأة التي اتهمت روبسون بالخيانة. فاجأتني كعادتها بأنها تصدق الرواية. «وما الذي يمنع أن تكون صحيحة؟»

«لكن هذا مشين. لا يمكن لرجل كهذا أن يفعلها، ثم يتولى منصبا رفيعا في المستعمرة».

رمقتني بنظرة غامضة. «أحقا لا يمكنه؟ قد يكون الأنسب لذلك».

ليست المرة الأولى التي أجد كلامها يشبه الألغاز. «ماذا تعنين؟».

«إن كان عمل السيد روبسون في مرفأ فيليب، فلن تكون أفعاله عندها، ضمن مسؤوليات حاكم فان ديمن».

بيفاي، 1838-1847

بعد رحيل الحاكم في ذلك اليوم وجد الجنود تاياليه تحت شجرته وقد أصيب بكسور في جسده من جراء سقوطه. استاء البدين روبسون لذلك وقال إنه حادث عرضي عندما رأى مخبأ تاياليه السري، لكنه بالطبع كان يكذب. فأنا أعرف أنه رمى بنفسه عمدا. منذ اللحظة التي وطئت أقدامه الجزيرة ظهر عليه أنه كائن شقي يتنازعه عالمان؛ أحلامه ويقظته، ولا يدري في أيهما تكمن حقيقته حتى تمزق كورقة. لا بد أن الهوة في داخله اتسعت أكثر مما يطيق فرمى بنفسه.

لم أتخيل أني يمكن أن أحزن لموت تاياليه، ولكن هذا ما حدث، لقد رحل وزالت معه كراهيتي، وهو أخي في النهاية والوحيد أيضا. وربما أني اعتدت وجود ذلك الصغير اللعين دون أن ألحظ. انقلب حال أمي بالطبع مع حزنها ونسيت أنها كرهته سابقا. كانت ستمقتني في كل الأحوال، خصوصا بعد أن علمت أني من أشعل النار في الحرش التي أخفت فيها سهامها القاتلة. ومع ذلك أصبحت أكثر قسوة تجاهي بعد موت تاياليه، ورفضت توجيه ولو كلمة كراهية إلي، وأخذت تغادر المكان ما إن تلمحني أقترب. والأسوأ أنها حرضت الآخرين مع باجرلي على كراهيتي، بزعم أني

ضيعت آخر فرصة لنا للإفلات من هذا المكان. حتى صديقي المقرب مونغانا هجرني أيضا، وكم آذاني ذلك.

بعد فترة قصيرة رحل البدين روبسون إلى المكان الذي يسمونه مرفأ فيليب. رطن بكلمات كثيرة عن تأثره والحزن الكبير في داخله لفراقنا، لكني لاحظت أن خطواته وهو يمضي كانت سعيدة. الشيء الوحيد الجيد في رحيله أن البالاوا، قبيلتنا التي كان معظم أفرادها يحبونه، اكتشفت في النهاية أنه لم يكن سوى مخادع أفّاق. وكل ذلك لم يغير من رأي أمي شيئا واستمرت في إخبار الآخرين أني صديق البيض.

مضت الأيام تتعاقب بطيئة، كحال من يعذبه ألم مبرح فلا يشعر باللحظات تمر بل تجثم على صدره كصخرة. تلك الأيام والأسابيع كانت الأسوأ في حياتي، حتى إن مجرد تذكرها يثير فيَّ الكآبة. واظبت على كتابة الرسائل إلى الحاكم وإرسالها مع أي سفينة عابرة، لكني لم أتلقَّ سوى رد على واحدة فيها جواب مختصر: رغبتك غير ممكنة التحقيق، من دون ذكر أي سبب. قاسيت كثيرا من ذلك وأنا أواجه شبح الخيبة بألا يستجيب الحاكم إلى طلبي بعد أن تأملت طويلا.

حل صيف وانقضى وتلاه صيف آخر. هرمت الأكواخ وفرغت فغرقت في الصمت، أروح وأجيء هنا وهناك، كأن ذاك الفتى الذي تجول مع أمي وقبيلتها في أصقاع الأرض لم يكن أنا. نسي مونغانا وباجرلي والآخرون كراهيتهم لي وسمحوا بأن أنام في كوخهم من جديد. إلا أمي بقيت على حالها، ما إن أقترب منها حتى تصوب إلي نظرات حاقدة كأنها ريح صقيعية. اكتمل نموي في تلك الأيام ولم تعد قامتي تطول، وأصبحت بنيتي قوية تناسب أن أكون

محاربا في أي قتال أو معارك رماح وأسهم، لكن لم يعد هناك أي حروب. لم يكن النضج سوى حماقة في ذلك المكان، فما من شيء تفعله بنفسك سوى الجلوس وتمضية الوقت أو انتظار أن يأتي يوم تمرض فيه مثل الآخرين وتذوي. استمر الموت، ولم تقل زياراته لنا سوى لأن عدد من ينتظره صار أقل. فجعنا بموت مونغانا في أحد الأيام. ناحت أمه باجرلي لأيام عديدة وبكيت معها.

لم أعد أشعر بمعنى تقدمي في العمر أو بلوغي سن الرشد، وككل شيء، اعتدت على ذلك من دون أي إحساس بالجدوى. أتانا قائد جديد للمستوطنة، مجرد شخص عادي لم يقدم أي جديد، وتضاءل عدد البيض ليس لأنهم يموتون مثلنا، فهم لا يفعلون، بل لأننا ذوينا وأصبحنا من القلة بحيث لم يعد من الضروري وجود الكثيرين منهم لمراقبتنا، ومع الوقت توقفوا عن تعليمنا دينهم. يبدو لي الآن وأنا أفكر في ذلك الزمن الذي انقضى أن موتنا لم يكن سوى حماقة، ومع توالي الفصول مر صيف يتبعه صيف آخر وأنا أفكر لماذا لا أموت أنا أيضا؟ لكن ومن حيث لا أدري حدث لي أمر مذهل. كانت دراي التي سماها البدين روبسون أوفيليا والتي لم أكن قد انتبهت إليها من قبل قد كبرت بسرعة وأصبحت فجأة امرأة جميلة وناضجة ورحت أراقبها أينما ذهبت، وهي كلما رأتني تشيح بوجهها بطريقة غامضة.

في أحد الأيام كنت أمشي في الغابة قرب شجرة تاياليه فرأيتها هناك. ودون أن ندري وجدنا نفسينا متعانقين دون أن نقول شيئا، كأن كل شيء قد قيل. وهكذا حدث لي أمر جديد في الوقت الذي لم أعد أتوقع أي جديد في الحياة. تلاقينا مرارا وتبادلنا العناق واللمسات الحارة، واستسلمنا لأشواق أصابتني بالخدر والبهجة؛

ومع مرور الوقت منحتني ما هو أكثر وغمرتني في دفق عارم من النشوة والامتلاء. أصبحنا نلتقي كل يوم في الغابة أو نمضي إلى التلال، نستلقي على العشب ونستغرق في مسراتنا. كانت رقيقة وناعمة ولحظاتنا معا تمضي كنسمة عذبة تداعب أوراق الشجر، وشعرت لأول مرة في حياتي أن هناك من يجب أن أحميه من أي مكروه وأن أعيش من أجله. نعم، في تلك الأيام وجدت معنى جديدا لحياتي بعد أن فقدت ذلك لوقت طويل، ولأول مرة لم يعد يعني لي كل ما في جزيرة فليندرز من خواء وعبثية.

لكن كيف يعيش الحب في مكان يحكمه الموت؟ ما أصعب ذلك! كلما مرضت دراي كنت أهرع إليها خائفا وأفعل كل ما بوسعي لأخفف عنها، بل وقمت بإحضار الطبيب الذي كان دائما لطيفا ولا يتأخر عن تلبية ندائي. كم أملت أن ينجح في علاجها وتشفى، لكني كنت مثل من يحاول رد موجة عاتية بكفيه. وفي أحد الأيام، ماتت فجأة. عندها نسيت موهبة حياتي، أن أقاوم وأنجو، إذ فقد ذلك أي معنى. فما الجدوى من الحياة بعد موتها؟ أردت بكل جوارحي أن أموت أنا أيضا، ربما حتى أكثر من ذلك اليوم البعيد، حين استلقيت وحدي في الدغل. لكن ما أصعب أن تختار موتك، فالموت هو الذي يختار.

أعطاني سميث في تلك الأيام كتابا. كنت جالسا أمام الأكواخ لا أفكر بشيء، ولعلني كنت أفكر في اللا شيء عندما رأيته يقترب. «خذ، أعتقد أن هذا سيريحك».

لم يكن قد سبق لي قراءة كتاب من قبل لأن أحدا لم يعطني شيئا لأقرأه، وفي البداية لم أشعر برغبة لفعل ذلك، لكن لم يكن لدي ما أفعله فبدأت بالقراءة ببطء في البداية، ثم مع الوقت،

رحت أنتقل من صفحة إلى أخرى بمزيد من السرعة والاستغراق. عنوان الكتاب «اليتيمان الصغيران»، وجدته حزينا للغاية. قصة والدين يحاصران في مياه النهر الذي يفيض، وأثناء محاولتهما إنقاذ طفليهما يغرقان. أثناء غرقها تصارع الأم في لحظاتها الأخيرة لتضع صليبا صغيرا حول عنق أحد طفليها. بعد ذلك ينتقل اليتيمان للعيش في دار خاصة للأيتام حيث يواجهان ظلم المشرفين وسوء المعاملة. في أحد الأيام يضرب المدير اليتيم الأكبر ضربا مبرحا ويتدخل أخوه الصغير للدفاع عنه فينقض عليه الرجل بوحشية حتى يدميه من اللكمات. يهرب اليتيمان في ذلك اليوم إلى المدينة، وما من أحد يعرفهما أو يقدم إليهما أية مساعدة، سوى بعض الغرباء الذين ألقوا إليهما ببضع قطع نقود. مرا بأوقات عصيبة ووقعا فريسة للبرد والجوع والمرض إلى أن جاء يوم قدم لهما رجل طيب المساعدة فرأى الصليبين. ولسبب ما تملكه الفضول فقال لهما أن ينتظراه ريثما ينتهي من أمر يريد أن يقضيه ويعود. لكن يا لتعاسة اليتيمين، ما إن ذهب الرجل حتى تهجم عليهما أولاد أشقياء يريدون سرقة الصليبين فهربا، وهكذا لم يتمكنا من رؤية ذاك الرجل مرة أخرى.

أثرت فيَّ القصة كثيرا، وأعترف أن ذلك الكتاب كان متعتي الوحيدة لوقت طويل. أعدت قراءة المقاطع الحزينة مرارا، وكم تمنيت أن تكون الحكاية حقيقة. نعم، رأيت نفسي فيما قرأت. أجل، أنا ذانك اليتيمان، وبكيت بكل ما في جوارحي من حرمان.

وفي أحد الأيام حدث ما كنت قد يئست من انتظاره. وصلت سفينة تحمل طعاما كريها ورسائل للبِّيض كالعادة، لكن هذه المرة مع أخبار. وأية أخبار! رحل الحاكم وحل محله حاكم جديد

قرأ رسائلي وقرر أن بوسعنا أن نعود إلى العالم، إلى وطننا من جديد. كان يوما عظيما. لم يكن قد تبقى من البالاوا سوى تسعة وأربعين شخصا على قيد الحياة، لكن مع ذلك رأينا أننا بوسعنا النجاة إن عدنا إلى عالمنا. أجل، مجرد فكرة أن نترك تلك الجزيرة الكريهة الضيقة ونعود إلى الغابات والجبال وتلك الأماكن السرية التي نحبها ملأنا بالأمل والرغبة بالحياة. عنى لي ذلك الكثير، فأنا في النهاية على حق، ومحاربتي للبيض بأدواتهم ولغتهم أثمرت، والجميع عدا أمي هللوا لي كبطل. كان علينا أن نرحل بسرعة في نفس السفينة التي حملت لنا الأخبار، لكني وجدت الوقت لقضاء أمور مهمة. ذهبت أولا إلى المقبرة لأودع حبيبتي المسكينة دراي، وكذلك مونغانا وهيديك وكل أصدقائي الذين رحلوا عن هذا العالم. وقفت هناك وفاض قلبي بالحزن والحسرة. بعد ذلك ذهبت إلى بيت سميث، فبعد أن نجونا اكتشفت المعنى الحقيقي وراء كتاب اليتيمين الصغيرين. لا، لم يكن في الكتاب أي مبادرة طيبة أو لطف نحوي، بل مجرد فخ للإيقاع بي، وشعرت بالعار وقتها لأني وقعت فيه. كل ما كان الكتاب يقوله لي: مت. مت الآن أيها الأسود المسكين. مت كاليتيمين فهذا كل ما بوسعك أن تفعله لنا. ربما شعر سميث بما يدور في رأسي عندما وصلت إليه فأغلق الستارة وتظاهر بالانشغال بتجهيز نفسه، لكني كنت أعلم أنه يراقبني خلسة وأنا أمزق صفحات الكتاب صفحة صفحة وألقي بها. نعم، لقد أحرقت اليتيمين تماما كما أحرقت سهام أمي من قبل.

الفصل الحادي عشر
الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
مصير الأمم (موجز)

ليست تلك الإمبراطورية المتعاظمة والراسخة التي ندعوها بريطانيا سوى نتيجة لعوامل المصادفة كما يخبرنا المنظرون في علم السياسة. إنها كما يزعمون تكامل لازدهار مجموعات من التجار والمغامرين والرحالة خلال سعيهم لتطوير ثرواتهم؛ مصادفة لقاء السلاح مع الطمع؛ نوع من طاقة جبارة تطال العالم لكن دون من يقودها. إن هذه الرؤية تنافي الحقيقة إن لم نقل إنها مضللة. فليس هناك في الحقيقة مثالا يجسد التطور البشري أكثر من تلك المؤسسة العظيمة للتوسع الإمبريالي. نرى هنا النمط الساكسوني بارد الطباع والمقدام، تتكشف طبيعته بشكل غير مسبوق، يتقدم في مسيرته مجتاحا الأمم الضعيفة في الهند وأمريكا وأستراليا. بشجاعة ودون استشراف للمستقبل يكتسح ما في طريقه دون أن يدرك القدر المحتوم الذي يواجهه؛ قانون تطور الأعراق. أما الأمم التي تسعى مثله للسيطرة، فليس لها عزيمته القوية. فالنمط الروماني في فرنسا توسع بعنفوان جنوبا في جهة الصحراء لإخضاع شيوخ القبائل العرب. والنمط السلافي في روسيا تقدم بشكل بائس

في عمق صقيع شرقه. وكلهم يجدون أنفسهم عن جهل في النهاية، يدمرون الأعراق التي يُخضعونها.

فقط عندما تنتهي هذه العملية وينجو الأقوياء تبدأ مرحلة جديدة تماما من التاريخ. وهكذا عندما يقترب الحريق الهائل، أي الاصطدام النهائي بين الأمم، سيجد الساكسونيون أنفسهم أمام حربهم العظمى.

الكابتن إيليام كويليان كيولي، ديسمبر 1857

لا أدري ما الذي أثار اهتمام الدكتور بوتر في هذه الجزيرة التي بدت لي بقعة فقيرة. مجرد أرض منبسطة وجافة كقطعة خبز قديمة، خالية إلا من بضعة جبال عارية ترتفع كنواتئ حادة تخالها خلقت من أجل جرح ملائكة السماء. لم تشر خريطتي التي لم تكن جديدة كما قلت سابقا سوى إلى مساحات مقفرة وبضعة مرتفعات، أرض بكر ما من علامة فيها تدل ولو على حقل أو مستوطنة. كان علي تحديد خط مسيري على خريطة أخرى رسمها أحد أصدقاء الدكتور بوتر، وباتجاه نقطة على الساحل الغربي بالتحديد تشير إلى مستوطنة مهجورة. أي مستوطنة فقيرة هذه حتى ظهرت واختفت بهذه السرعة!

كان الكاهن يتميز غيظا لأننا توقفنا في هذا المكان، أقله لأنه اقتراح بوتر، وراح يشكو من أننا تأخرنا بما فيه الكفاية. لكن في الواقع كان التغيير الطفيف هذا يناسبني لعدة أسباب؛ أحدها أني لم أتمكن من تزويد السفينة بما يكفي من ماء الشرب خلال توقفنا السريع في مرفأ فيليب، والأسباب الأخرى كانت أكثر جدية بالنسبة لي من أن أخبر الإنجليز عنها.

المريح في إلقاء المرساة على ساحل مهجور كهذا أنه ما من

أحد سيفكر بترك السفينة. تبقى منا عشرة رجال من آيل أوف مان وفقدنا اختصاصي الأشرعة، بعد أن كنا أربعة عشر بحارا قبل عدة أيام فقط. مشكلة كبيرة، لا بد من الاعتراف بها، فعددنا كافٍ لطقس جيد. أما لو واجهتنا عاصفة أو توجب علينا إفراغ حمولتنا على وجه السرعة فسنكون جميعا في مأزق. أعتمد الآن على من لدي، وقد حدث أن كلفت ذلك الطباخ الأحمق كويل والخادم مايكلراست عملا في أعلى الصواري، رغم أنهما أصبحا عجوزين ليقوما بمشاق كهذه. استغرق عبورنا لخليج فيليب يوما وليلة، وطوال الوقت كنت أفكر فيما إن كنا مراقبين تلاحقنا زوارق الجمارك التي قد تعترضنا بقيادة روبن في أي وقت بمدافعها. لكن لا، يبدو أن الأمور سارت أفضل من مخاوفي، فروبن نفسه ودعنا بحديث ودي مع ركابنا الإنجليز ولم يذكر كلمة واحدة عن ذلك الشاطئ الذي تركنا عليه الرجلين مغمى عليهما مع بعض الماء.

لم يكن لخريطة بوتر أي فائدة لنا في تحديد مسارنا، لكن بعد وقت من إبحارنا بمحاذاة شواطئ الجزيرة رأينا في النهاية رصيفا صغيرا. راقبت عند وصولنا المسافرين الإنجليز يتجهون بقارب صغير إلى هناك حتى رسوا، فقط زيادة في الاحتراز من أن يغيروا رأيهم فجأة، فلم أكن أريد أن أتورط في أية مماحكات فارغة معهم. بعد ذلك ناديت على مايكلرست ونزلنا إلى العنبر حيث أمسكت بذلك الحبل الصغير وجذبته برفق. دخلنا بعدها إلى المخزن وراء الجدار ثم إلى غرفة الطعام، فذلك الباب المخفي وراء تمثال الملكة فيكتوريا. الذي كان يشغل فكري ما قاله ذلك التعيس هاري فيلدز على الشاطئ قبل أن يخطر لكينفغ فكرته العبقرية بأن يضربه. هل حقا كان التبغ رطبا؟ ماذا لو كان كنزنا المخبوء

كله كذلك؟ لم أكن أريد أن أجد حمولتي التي قطعت كل تلك المسافات وتخطت رقابة الجمارك وحرس الشواطئ تتلف هكذا من الإهمال. ولحسن الحظ لم تكن حالتها بالسوء الذي رسمته مخاوفي. قام مايكلرست بجولة سريعة ثم فتح أحد ألواح الغطاء. «يجب تركه مفتوحا لفترة من أجل التهوية وطرد الرطوبة».

كان من السهل فعل ذلك بعد أن غادر المسافرون الإنجليز، ولم يكن بوسعهم العودة إلا بقارب السفينة. تركت بعض الألواح مفتوحة أطول وقت ممكن، كما تركت باب العنبر مشرعا للهواء النظيف أيضا. وعندما عدت إلى سطح السفينة، رأيت القارب في طريقه إلينا وقد امتلأ بحمولة من أوعية مياه الشرب، وبعد فترة وجيزة كان برو رئيس البحارة يتسلق جانب السفينة بابتسامة متكلفة. «وجدنا ما نريد من المياه، لكن هناك شيء آخر». ونظر إلى مجموعة من الأشرعة الممزقة التي كان الآخرون يشدونها في القارب.

«ما الأمر؟» سأل مايكلرست. «هل تمزقت الأشرعة؟»

«تقريبا..». وقبل أن يكمل إجابته، اندفع فجأة رأس حيوان من بين الشراع الذي يغطيه بقوة، فما كان من برو إلا أن انقض عليه بكل ما أوتي من قوة ليدفعه من كتفيه إلى الأسفل ويثبته في مكانه.

«ما هذا؟» سألته.

«لا أدري. رينشو يقول إنه ويمبيت».

«ويمبيت؟» أي اسم هذا! لم يكن صغيرا وليس بوداعة هرة كما ظهر من هياجه وصخبه وهو يحاول الإفلات.

«كأنه نوع من أنواع الغرير؟ أليس كذلك؟» سألت بينما اهتز

القارب من جديد بفعل هياجه. حجم مشابه، لكنه مختلف لأن رأسه يشبه رأس الدب.

«شيء من هذا القبيل». وافق برو وأنا أساعده ليعتلي سطح السفينة.

أيا كان ذلك المخلوق فنحن بحاجة إليه، إذ لم يتسن لنا شراء أي حيوانات أثناء توقفنا في مرفأ فيليب. سنطلب من كويل أن يجد طريقة لطهوه، مع ما لدينا من الخبز.

بعد ذلك أردت أن أذهب إلى جزيرة فليندرز تلك، وأكتشف أي مكان هي. انتظرت حتى انتهى البحارة من تحميل أوعية المياه ثم تركت مايكلرست في السفينة ليتولى أمر المراقبة ومضيت.

الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857

فاجـأني اهتـمام بوتـر بهـذه الجزيـرة بعـد أن عـبّر مـرارا عـن عـدم أهميتهـا بالنسـبة لـه. قـال إنهـا كانـت ملجـأ لسـكان تاسـمانيا الأصليـين، ويمكـن أن يجـد في أطـلال مسـتوطنتهم مـواد ومعلومـات في غايـة الأهميـة لأبحاثـه. راودني الشـك حـول حقيقـة نوايـاه، وخشـيت أن يؤخرنـا أكـثر. أخـذ القلـق يسـتبد بي مـن رغبتـه في الرسـو عـلى كل جزيـرة أو صخـرة نعـبر بهـا بـين مرفـأ فيليـب وهوبـارت. ومـا زاد مـن هواجـسي أن القبطـان كان يوافقـه عـلى كل مـا يريـد، وكأنـه تمكـن مـن اسـتمالته بطريقـة مـا، فرجـال آيـل أوف مـان يحبـون الذهـب.

كان يبالـغ في الحـرص والتدقيـق وهـو يعـد لمـا يدعـي أنهـا استكشـافات علميـة. فـما إن أنـزل القـارب الـذي سـينقلنا إلى الجزيـرة حتـى أمـر خادمـه هوبـر بإحضـار أحـد الصناديـق الخشـبية التـي اصطحبهـا معـه، زاعـما أنـه سـيملؤه بالعينـات. كان ذلـك بالفعـل أكـثر مـما يطـاق. ثـم خطـرت لي فكـرة ونحـن نقـترب مـن الشـاطئ. مـاذا لـو تمكنـت مـن إثبـات أن الدكتـور يتعمـد إضاعـة الوقـت وتأخـير رحلتنـا دون أي سـبب وجيـه. لا بـد أن ذلـك سـيحرج القبطـان ولا يـترك لـه مجـالا لمسـايرته وإضاعـة المزيـد مـن الوقـت. بـل إن ذلـك سـيوفر لي سـببا وجيهـا لإبعـاده عـن البعثـة برمتهـا والتخلـص مـما يسـببه لنـا

من إزعاج، بتصرفاته التي أصبحت أكثر من أن تحتمل. لم يكن فعل هذا سهلا، فمن الصعب إثبات أن الرجل لا يفعل ما يبدو للآخرين أنه يفعله.

فكرت أن أعتمد على رنشو كسند لي في هذه المهمة وقررت أن أفاتحه بالأمر. وهكذا كان، فما إن رسونا ومضى وتفرق البحارة للبحث عن الماء وذهب بوتر وخادمه حتى طرحت الموضوع عليه مباشرة. لكن عالم النبات ذاك الذي وقف كالأحمق فوق صخرة على شكل عين مفتوحة لم يقدم أي عون لي وردَّ علي بسلبية منفرة.

«لن ألعب دور الجاسوس». قال بنبرة بغيضة وكأنه يلقي خطابا.

لم أجد في أي محاولة أخرى لإقناعه إلا العبث. لذلك لم يكن أمامي سوى أن أراقب كليهما وحدي. كانا قد اختفيا عن الأنظار، ولم يكن من العسير أن أتبعهما، إذ لم يكن هناك سوى ممر واحد بين النبات الكثيف. وجدت نفسي بعد عدة مئات من الياردات على مشارف أبنية متهدمة ثم رأيت بقايا مستوطنة مهجورة. مكان بائس، مجرد صفوف من مساكن فقيرة البناء تشبه بيوت المشردين، وإن كان ما زعمه بوتر من أن مستوطنة للسكان الأصليين كانت على هذه الجزيرة صحيحا فلا بد أنها هي ذاتها. نظرت داخل إحداها فلم أجد سوى فضلات طيور وأبسطة قديمة. ما من أثر لعينات الدكتور التي تحدث عنها.

أثار انتباهي في ذلك المكان، البناء المقابل الذي كان يشمخ راسخا بجدرانه وسقفه بوجه الزمن وعوامل الطبيعة، ولم يكن من أثر لما فعله توالي الأيام سوى بابه المخلع الذي كان يهتز مع

الريح بإيقاع يذكّر بما مضى. وما إن خطوت داخله حتى عرفت أنه كنيسة المستوطنة، بكل ما فيها من ضوء وشموخ يناقض ما حولها من بؤس المساكن. أراحني أن أعلم الآن أن سكان تاسمانيا أولئك، رغم مصير الانقراض الذي واجهوه قد عرفوا على الأقل في نهاية وجودهم على هذه الأرض شيئا من سكينة الإيمان ونوره. تقدمت بضع خطوات إلى الداخل فرأيت آثار قدمين واضحتين في الطين الذي يغطي الأرضية، وكان واضحا أنهما حديثتا العهد. تبعت الأثر بحيطة كي لا يُكشف أمري قبل رؤية طريدتي وقادني من المستوطنة باتجاه غابة قريبة، وهنا بدأت مهمتي تتعثر إذ جعلت طبقة من أوراق الشجر التي تغطي الأرض آثار الأقدام صعبة التمييز فرحت أعتمد على حدسي وأراقب أي فجوة بين الأشجار تشير إلى ممر. لم يطل بي الوقت حتى ضللني الأثر، إلا أني تابعت بحثي ولكن بمزيد من المشقة بسبب الحرارة التي بدأت ترتفع وأسراب الذباب والحشرات التي تكاثرت حولي وأنا أشق طريقي محاولا إبعادها بيدي عبثا.

أوقعتني تلك المخلوقات المزعجة في فخ لم يكن في الحسبان. فبينما كنت أنقل خطوتي بما أوتيت من حذر وأنا أنزل في منحدر شديد متمسكا بأغصان الشجر هاجمتني من جديد فلم أستطع إلا أن أحرك يدي لأهشها، وهكذا أفلت الغصن من يدي ووجدت نفسي أهوي. انزلقت إلى الأسفل وعبثا حاولت التشبث بما حولي من نباتات، وعندما رأيت في وجهي جذع شجرة دفعت بساقي إلى الأمام في حركة عفوية لاتقاء ارتطامي. نفعتني هذه الحركة، لكن لم تكن من دون ثمن، فلم تصطدم قدمي بجذع الشجرة كما تخيلت، بل وجدتها مدفونة فيما يشبه تجويفا. وما تبع كل

ذلك كان أسوأ؛ فعندما انتبهت إلى جروحي رحت أحاول النهوض، وما إن حركت قدمي لأسحبها صعقتني موجة من الألم الرهيب في أسفل ساقي.

تلك المخلوقات، قرأت عن مدى وحشيتها قبل أن أصل إلى تاسمانيا، تنتشر في كل مكان على هذه الأرض، وقلما تجد حشرة منها أو أفعى دون غريزة الفتك بكل ما هو حي، وما السم الذي أشعر به الآن يسري في ساقي سوى من فعل أحدها. بدأ خدر رهيب ينتشر من قدمي إلى أعلى ساقي، فتملكني الرعب وسحبت رجلي، لكنني لم أتبين ما الذي لدغني في عمق الفجوة المظلم. سمعت بعدها صوت حفيف واحتكاك يتحرك في كثافة النبات المحيط بي فالتفت ببطء كي لا أحدث ضجة، وعندما حاولت النهوض شعرت بدوار، أوقعني أرضا وأنا أحاول التوازن كي لا أغيب عن الوعي. وفي تلك اللحظة الفظيعة التي لا تشبه سوى الموت ذاته شعرت فجأة بالسكينة تهبط على روحي. وهكذا رقدت هناك بجانب جذع الشجرة، أنوس في عالم عجيب بين الحلم واليقظة، حالة لا يمكن وصفها سوى أنها رؤيا. وجدت نفسي أمشي بين صفين من الملائكة التي تخفق بأجنحتها بِدَعَةٍ، وتلوح لي بأكفها الصغيرة المكتنزة. وبينما أراقب مأخوذا تبدل حالها، وتملكها الحزن إلى أن كست وجوهها غلالة من الأسى.

تراءى لي بعد نظرات الملائكة الحزينة زوجتي العزيزة المخلصة تجلس غارقة في الصمت والدموع تبلل وجهها وإلى جانبها رسالة مفتوحة. ثم تغير المشهد من جديد. تساءلت ما الذي أراه! أرض عجيبة بجدران صخرية لامعة وخضرة لا نظير لها. أجل، إنها هي جنة عدن. لكنني لم أسمع هذه المرة أي حشائش أو أزهار تنادي

علي وتدعوني، وهبت ريح باردة من تلك البقعة المنسية. بعد ذلك رأيت قاعة محاضرات كبيرة مليئة بوجوه بريئة متعطشة للمعرفة، ولم يكن يحتل المنبر سوى أعدائي أنا، أولئك الجيولوجيون الملحدون وفي وجوههم نشوة الانتصار.

عدت فجأة إلى يقظتي كمن يصحو من إغماء وانتبهت إلى ما حولي ورحت أبتهل وأصلي بجانب جذع الشجرة وجوارحي تفيض بيقين غامض أن صلواتي مسموعة. حاولت النهوض من جديد، ويا لعجبي نجحت هذه المرة كأنما بعون يد خفية. تقدمت خطوة وتوقفت. ثم خطوة ثانية، فأوقفني ألم شديد في مكاني. لم تكن الجروح وحدها، بل نعل حذائي كان قد تمزق، وأصبحت قدمي شبه حافية فوق الحصى والأشواك. ومع ذلك حاولت التحامل على أوجاعي والتقدم بضع خطوات، إلى أن شعرت بالظلام يهبط فوقي، لكنني لم أستسلم ورحت أطرد سواد الخوف والألم بكل قواي. شققت طريقي ياردة ياردة، ثم خطوت متقدما أكثر، وبدأ الأمل يراودني بأني قد أنجح في النهاية ببلوغ المستوطنة ذاتها فيكتشفني أحد ما ويصار إلى دفني بطريقة مسيحية لائقة بدل أن أهلك هنا وتنهشني الوحوش. مرت الدقائق التالية عليَّ كأنها دهر وظللت أجاهد في خطواتي حتى لاحت لي أبنية المستوطنة من خلال الخضرة الممتدة أمامي. وهنا سمحت لنفسي بمزيد من الطمع، أن أبلغ الرصيف حيث أجد الآخرين. واظبت المسير بخطوات تصارع اليأس والألم، ومع كل ياردة أصلي للرب، أن يعينني على ما بعدها إلى أن -وبما يشبه المعجزة-وصلت إلى فسحة مفتوحة على البحر.

تيموثي رينشو - ديسمبر 1857

لم أجد ما أفعله على ذلك الشاطئ تحت أشعة الشمس الحارقة التي تجعل الهواء يهب ساخنا، وبعد فترة من مراقبة البحر والطيور رحت أتثاءب ضجرا. تمددت على الرصيف، لكن هذا كان أسوأ، فما لي أنا ورجال آيل أوف مان المنشغلين بنقل خزانات المياه أو بإثارة الضجيج واللغط حول الويمبيت الذي أمسك به برو، ذلك الحيوان السخيف ذي العينين الفارغتين، فعزمت في النهاية على الذهاب إلى الشاطئ. كان هذا مساحة من رمل ناعم وجاف أيضا فقضيت بعض الوقت في العبث وصنعت حفرة وما يشبه وسادة. استلقيت رغم بعض الحصى الناتئة، وبينما أنا مستلق هناك سمعت وقع خطوات تبعها صراخ حاد أجفلني. كان ويلسون يستغيث بصوت يوقظ الموتى أن أفعى لدغته. نظرت فراعني مظهره البائس، فقد فردة حذائه وراح يعرج بطريقة غريبة وتمزق كمُّ سرواله، بينما تلطخ كل جسده بالوحل والأقذار. صاح: «لم يتبق لي الكثير، سأموت حالا».

نظرت إلى هيئته وأذهلتني غرابة التناقض بين بؤسه وصورته في مخيلتي كعجوز مغفل ومزعج. لا أعتقد أن هناك من يجعلك

تقـول كان عـلي أن أحـب هـذا الشـخص أكـثر مـن رجـل يجرجـر خطواتـه قائـلا: أنـا أمـوت.

«أين الطبيب؟»

«لا أدري». قـال ملوحـا بيـده. «وأعتقـد أن الأوان قـد فـات. فقـط خـذني إلى السـفينة لأرقـد بسـلام».

لم يكـن طلبـا سـهلا كـما بـدا للوهلـة الأولى. سـاعدت ويلسـون ونقلتـه إلى الرصيـف بمشـقة بالغـة. وهنـاك فوجئـت بـردة فعـل كويـلي الـذي كان يـشرف عـلى بحارتـه، فهـو عـلى الرغـم مـن أسـفه لما حـدث لم يظهـر أي تعاطـف حقيقـي.

«لكننـا لا نسـتطيع أن نذهـب الآن. لم ننتـه بعـد مـن تحميـل الميـاه».

كان جوابـا قاسـيا منـه وتصرفـا يخلـو مـن أيـة إنسـانية مهـما كان موقفـه مـن فيـكار سـابقا.

أجـاب ويلسـون بكثـير مـن الألم. «أنـا أمـوت. لا أظـن أني سـأحتمل أكـثر».

خضـع القبطـان لنـا في النهايـة ووافـق عـلى إعادتنـا، لكـن لم تنتـه جلافتـه عنـد هـذا الحـد. ففـي منتصـف المسـافة إلى السـفينة وبينـما كنـت أبـذل مـا بوسـعي لمسـاعدة ويلسـون الجريـح عـلى الاسـتلقاء بوضعيـة تريحـه، أصر عـلى تخطينـا والتوجـه إلى مقدمـة القـارب لينـادي عـلى مـن بقـي مـن بحارتـه عـلى السـفينة. ظـل يـصرخ وينـادي حتـى أتـاه الـرد مـن الخـادم مايكلرسـت. وحتـى عندمـا وصلنـا لم يبـادر إلى تقديـم أي مسـاعدة في نقـل الرجـل العجـوز، بـل تجاهلنـا وصعـد وحـده قبلنـا. كل مـا فعلـه أنـه تمتـم بـشيء مـا عـن صعوبـة إيجـاد الـدواء ثـم قـدم لي بعـض مـزقٍ مـن الأقمشـة الباليـة قائـلا إنهـا ضـمادات.

حاولت نقل رجل الدين العجوز إلى قمرته، لكنه أصر على البقاء فوق سطح السفينة قائلا إنه يريد أن يرى السماء وهو يحتضر فربما تمنحه بعض السلام. فعلت ما وجدته مناسبا لأريح الرجل في رقدته، فأحضرت له بعض الوسائد ثم طلب مني أن أجلب ورقة وقلما ليملي علي وصاياه الأخيرة بشأن البعثة. استرد بعد قليل شيئا من لون الحياة في وجهه، فعلقت أنا على ذلك آملا أن تشجعه كلماتي وتمنحه بعض الأمل: «ربما تراجعت الظلمة قليلا، لكنها لن تلبث أن تعود». رد على تعليقي بابتسامة متعبة.

شعرت بضرورة فعل أي شيء. لا بد من طريقة ما تساعده، ورحت أفتش في ذاكرتي عن أي شيء حول ما يجب فعله في حالة لدغة الأفعى. «سمعت أنه يجب شق وتنظيف المنطقة المحيطة باللدغة».

هز ويلسون رأسه: «أعتقد أن السم قد انتشر في جسدي كله».

«ربما عليك أن تمصه ليخرج». قال الطباخ كويل.

راقت للعجوز هذه الفكرة. «ربما كان من المفيد أن نحاول». قال بصوت واهٍ وهو يمسح فمه بمنديل.

كان لا بد من تنظيف القدم أولا، فقد كانت ملطخة بالأقذار، ولم يكن بإمكاني تحديد موقع الجرح. طلبت من كويل دلوا من الماء وخرقا كي أمسحها. رحت أمسح وأنظف بحذر كبير، لكن رغم ما أبداه من شجاعة كان ويلسون يتأوه ويتلوى من الألم عند كل لمسة، ومما زاد مهمتي، صعوبة الضجيج على سطح السفينة. فعلى الرغم من أن القبطان قد أصدر تعليمات إلى الجميع بالتزام الصمت لمنح المصاب بعض السكينة، إلا أنه هو نفسه من أثار الصخب بتوبيخ أحد بحارته لأنه كان نائما. وما إن انتهى من تأنيبه

ذاك، حتى بدأ بجولة أخرى من التقريع للرجل الذي كان مسؤولا عن الحيوان الأسترالي. يبدو أنه قد سها عنه فهرب الحيوان من حجزه في القارب الصغير وقفز عائدا إلى الشاطئ.

«لو حانت ساعتي ولفني ظلام النهاية، فهل تعدني بتحقيق أمرين؟» سألني فيكار وقد نال منه الوهن.

«بالتأكيد». كنت قد فرغت لحظتها من تنظيف قدمه وفوجئت أنها لم تكن بالسوء الذي توقعناه. مجرد خدوش وجروح نتيجة الأشواك والحصى التي مشى فوقها. أما اللدغة نفسها فلم تكن سوى جرح صغير. لكن أليست أسنان الأفعى صغيرة؟!

كنت أهم بمصّ الجرح عندما صاح أحد البحارة: «إنه هنا. وصل إلى السفينة». التفتُّ فرأيت الدكتور بوتر وخادمه.

كان من الأفضل أن ندع الأمر للطبيب. كان القارب قد أرسل للبحث عنه والعودة به. «لدغة أفعى..». قال الدكتور بوتر باهتمام. «ليس الأمر ضمن اختصاصي، لكني سأفعل ما بوسعي» ثم أخذ مكاني عند قدمي ويلسون: «هل تحس بساقك؟».

«قليلا جدا».

فوجئت بإجابته إذ إنه كان يصرخ ويتلوى كلما لمسته!

«لنحاول». ثم أخذ الطبيب يخز الساق في أماكن متفرقة، من الركبة والكاحل حتى القدم تاركا لويلسون أن يطلق صيحات وجعه. «هل رأيت أي نوع من الأفاعي كانت؟».

«لم أر شيئا على الإطلاق». أجاب المريض بنفاد صبر. «كانت مختبئة داخل تجويف في جذع الشجرة، شيء ما يشبه جحرا للعقارب. إنها معجزة أني احتملت وبقيت على قيد الحياة حتى الآن».

«هكذا إذن؟» تفحص بوتر القدم وأضاف: «لا أرى ورما. فقط بعض الخدوش». «أما بالنسبة للجرح..». رفع الساق ليتمكن من الرؤية عن قرب. «ليس هناك أثر لأنياب أفعى».

كان طاقم البحارة قد تجمعوا حولنا.

«ماذا إذن؟» سألت.

فكر بوتر للحظات: «قد يكون أحد القوارض.. كنوع من الفئران».

أطلق أحد البحارة ضحكة خافتة وكدت أنضم إليه وقد بدأت أشعر بالندم لكل ما أبديته من تعاطف من أجل عضة فأر. وكل ذلك الصراخ والنحيب والتفجع! شعرت كأنني خدعت. كنت على وشك أن أمص السم المتخيل من قدمه.

بالطبع أصر ويلسون على أن الطبيب على خطأ. «لا يمكن لهذا الألم إلا أن يكون نتيجة لدغة أفعى، والإنسان يعرف نفسه عندما يواجه الموت».

ظل يردد هذه العبارة طوال اليوم بينما كانت السفينة تستعد للإبحار. رُفعت المرساة وانطلقنا في رحلتنا من جديد وهو في مكانه يرقد على وسادته. بعد ذلك طلب من النجار أن يصنع له عكازا ونهض يوزع على الجميع نظرات العتب والتأنيب، ومع حلول ظهيرة اليوم التالي رأيته يمشي دون أي عون من جديد. لكنه على ما أذكر صمت ولم يَعُد إلى سيرة الأفاعي والعقارب مرة أخرى.

القبطان إيليام كويليان كيولي، ديسمبر 1857

نشطت الرياح الشمالية بعد جزيرة فليندرز وقادتنا بسرعة وسلاسة إلى أن تراءت لنا أرض فان ديمن تلك أو تاسمانيا، أو لا أدري أي اسم آخر يطلقون عليها في مساء ذات اليوم. أي بقعة كئيبة كانت بجبالها الملساء العارية كأنها جدران. صعد المسافرون الإنجليز ليروا الجزيرة، بوتر يضحك ويطلق النكات بينما صمت ويلسون في حالة من الشرود أظنها بسبب عضة الفأر. شعرت بالامتنان لذلك المخلوق الذي منحنا فسحة من الضحك كنا بحاجة إليها منذ غادرنا مرفأ فيليب. فلم تكن تنقضي ساعة دون تعليقات ساخرة بلغة أيل أوف مان عن اللوناغ -وهو اسم الفأر المتعارف عليه على متن السفينة- خصوصا عندما يكون الكاهن العجوز قريبا، وأحيانا كان كل شيء يقال بحضوره.

في صباح اليوم التالي انعطفنا عند موقع إلى الشمال الشرقي من تاسمانيا، ومن هناك مضينا بيسر جنوبا. كانت الريح مواتية كما لم تكن منذ غادرنا مالدون، نشطة لكن دافئة بشمس أستراليا، تهب بانتظام من خلفنا تماما وتدفعنا بالاتجاه الذي نريد. وهكذا تركت السفينة تمضي وحدها، لكن عمدت إلى تكليف البحارة ببعض المهام كي لا يستسلموا للكسل. الأشرعة كلها كانت مرفوعة، الرئيسي

والجانبيين، لكن بدافع من مزاج مغامر شعرت به طلبت منهم أن يرفعوا أشرعة إضافية أيضا. والأشرعة الجانبية عادة ما تكون غريبة الأطوار، تنزاح إلى جانبي السفينة كمتسول يندفع نحو عربة قادمة. ازدادت السرعة وأخذت السفينة تعلو وتهبط بإيقاع متسارع جعل كل من على متنها يتبادل نظرات الفزع. حتى كينفيغ وبرو بدا أنهما يتوقعان أن تتمزق الأشرعة وتهوي في أي لحظة على الرغم من أنهما لم ينطقا بكلمة واحدة، واكتفيا بتبادل النظرات. لكنني أستطيع الحكم على الرياح والتكهن بأحوالها على الدوام، وعلى الرغم من تمايل الصواري كالأشجار في عاصفة لم يراودني الشك أنها ستصمد، بل إن البحارة أطلقوا صيحات الابتهاج.

كانت المرة الأولى التي تبحر فيها الإخلاص بكامل سرعتها، وكم كان مشهدا رائعا. رغم مظهرها الذي قد لا يملأ عين الناظر، إلا أنها راحت تقفز بين الأمواج، تحسبها ستحلق في الهواء في أي لحظة بينما البحر يزمجر بكامل عنفوانه تحتها ويغمر جوانبها بالماء. كان لا بد من رجلين على الدفة لإحكام السيطرة عليها، ومع ذلك لم يتمكنا؛ إذ قذفت شدة العزم أحدهما إلى منتصف السطح. ومع استمرار الرياح في نشاطها، أبقيت السفينة على سرعتها طوال النهار والليل أيضا، وتمكنا من التفوق على تلك السفن البخارية اللعينة. لكن في صباح اليوم التالي بدأت الريح تنحرف غربا فرأيت أن أتوخى الحذر وطلبت أن تُنزل الأشرعة الإضافية. وفي الوقت الذي كان البحارة يفعلون ذلك صعد بوتر إلي بسؤال مفاجئ:

«قد لا يكون الأمر خطيرا يا قبطان، لكن علي أن أخبرك أن هناك صوتا غريبا في القمرة. لا أدري ربما يكون مصدره ألواح الخشب في هيكل السفينة».

وبمجرد أن سمعت كلمات ألواح الهيكل سيطر علي القلق، وشعرت بالندم أني دفعت الإخلاص بكل تلك السرعة. تخيلت ألواح الخشب تتصدع وتنفصل عن عوارضها. «لا تقلق، أنا واثق أن الأمر بسيط». قلت بكل ما استطعت أن أظهره بلا مبالاة، ثم أومأت إلى برو أني ذاهب إلى الأسفل.

في القمرة وجدت الكاهن على سريره منكبا على قراءة كتاب ما في المنطق، وعلى وجهه علائم من الجدية تحذر أي كائن من قطع استغراقه. أما رينشو فبدا عليه أن الأخبار قد سيطرت على فكره ورأيته يلصق أذنه إلى الجدار ليسمع صوت الألواح ذاك.

«سمعت الصوت منذ لحظة فقط».

أخذت مكاني إلى جانبه وكانت السفينة تتمايل بشدة وخشيت أني لن أسمع شيئا سوى احتكاك العوارض، وأملت أن كل ما قيل ليس سوى ثرثرة وأوهام إنجليزية.

«ها هو الصوت. سمعته تماما. اسمع إنه تحتنا في الأسفل تماما». قال رينشو بفخر من اكتشف كنزا.

لم أتمكن من معرفة ماهية الصوت إلا بعد أن أصغيت بدقة. بالفعل صوت غريب، لكنه يشبه نوعا من خرمشة المخالب.

«أتظنه نوعا من خنفساء استوائية تقضم خشب الهيكل؟» سأل بوتر.

«أشك في هذا». وبالفعل كان الأمر لغزا بالنسبة لي. لم أكن أعرف شيئا عن المخلوقات الاستوائية عدا أنها تخلف أثرا في الخشب، وهذا ما لم ألاحظه، إذ إن الهيكل كان نظيفا دون أية علامات.

ضحك رينشو كأن مخلوقا ما في الأسفل دغدغ باطن قدميه.

ضحكت معه متعمدا أن أقهقه بمرح، وأبدو طبيعيا قدر استطاعتي وقد تبادر إلى ذهني خاطر مرعب. «أنا واثق أنه ما من داع للقلق. لا بد أنها مياه البحر ترتطم على جوانب السفينة».

«ربما تيارات عنيفة؟»

للحظة خلت أنه يعرف وأنه اكتشف كل شيء. لكن لا، كان جديا. ما من حدود لغباء هؤلاء الإنجليز، خصوصا أصحاب العقول كهذا المغفل. «نعم، إنها التيارات». قلت بتصنع وغادرت بينما أومأ بالموافقة بإذعان هرة وديعة.

لم يكن بوسعي بعد ذلك سوى أن أنتظر بكل ما أوتيت من صبر. قضيت فترة بعد الظهر وأنا أحاول طرد الأشباح عن مخيلتي وأصوات وحوش تدوي فجأة من جوانب السفينة. وعلى العشاء حاولت منع الإنجليز من التباطؤ في الذهاب والثرثرة بفتح حديث طويل وممل مع برو عن أسعار السلع في بيل حتى أدركني النعاس وكدت أنام أنا نفسي. ومع ذلك كله مضت الدقائق كدهر بالنسبة لي حتى انصرفوا. انتظرت حتى سمعت شخيرهم وذهبت أتحرى الأمر. بقي برو على سطح السفينة ليراقب، وأخذت معي كينفيغ ومايكلرست لمساعدتي. توجهت من فوري إلى ذلك الحبل فوق الباب وسحبته لينفتح المنفذ السري، متعمدا أن أنقر على بعض الأوعية الزجاجية لأغطي على الصوت، ثم بعد ذلك توجهت إلى اللوح المثبت في المخزن والحبل الذي وراءه. طلبت من كينفيغ الوقوف عند الدرجات للمراقبة في حال خطر لأحد مسافرينا الاقتراب. وأخيرا فتحت الباب تحت تمثال فيكتوريا، ودلفت إلى الداخل مع مصباحي لأجد -كما كنت

أخشى- حيوان الومبيت على بعد دزينة من الأمتار، يحدق بعينيه في الظلام. لا بد أنه تسلل إلى هنا عندما كان مايكلرست يشخر، وقد صنع لنفسه ما يشبه مسكنا من التبغ، بل ويبدو أنه حاول أن يأكل منه. ذعر الحيوان من الضوء، فهرع عائدا إلى وكره مصدرا صوتا عاليا كفيلا بأن يثير فضيحة، فأسرعت إلى الباب وأغلقته. أي مشكلة هذه! إن تركناه مكانه فسيعود إلى إصدار تلك الأصوات التي تثير حفيظة الإنجليز، وإن حاولنا إخراجه فسيجلبهم صخبه لمعرفة ما يجري.

«ربما كان من الأفضل أن ندع ذلك إلى وقت يكون فيه الركاب على سطح السفينة». اقترح كينفيغ.

«ليست خطة آمنة، فقد ينتبهون إلى صخبه ونحن نحاول الإمساك به فيهرعون للفرجة».

«أظن أن علينا الانتظار حتى نصل إلى هوبارت. لم تعد بعيدة الآن». اقترح مايكلرست.

«هذا أشد خطورة. فماذا عن الجمارك. ماذا لو فتشوا السفينة وانتبهوا إلى صوت خرمشة مخالبه وراء الألواح؟ ستكون نهايتنا عندئذ. ما نحتاج إليه مكان هادئ نرسو فيه ونرسل الإنجليز إلى اليابسة كما فعلنا في فليندرز».

«لن يعجبهم ذلك. لقد أثار ويلسون لغطا كبيرا إثر توقفنا في فليندرز». قال كينفيغ بقلق.

«سيخرس إذا ما علم أن السفينة تحته يهددها الغرق. ألم يقل بوتر أن هناك تصدعات في ألواح الهيكل؟ ومن يدري، قد يكون على حق ومن الأفضل لنا أن نرسو لنفحص السفينة ونجري ما يجب من إصلاحات».

طلبت من مايكلرست إحضار الخريطة، وعندما فرشتها أمامي وفتشت عما أريد، شعرت أن الحظ إلى جانبنا للمرة الأولى. فعلى بعد أميال فقط من موقعنا، يقع مرسى صغير ينفع أن يكون ملجأمناسبا، من دون أية إشارة إلى وجود مستوطنة قريبة. كانت منطقة خالية تمتد في البحر كرأس على شكل يد ممدودة. ليس من مكان أفضل، وهكذا غيرت مسارنا.

تيموثي رينشو، ديسمبر 1857

أيقظنـي في ساعة مبكـرة مـن الصباح صـوت القـارب وهـو ينزلـق عـلى جانـب السـفينة ووقـع خطـى البحـارة في الأعـلى. ولم يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد، فسرعـان مـا سـمعت الجلبـة التـي أثارهـا كل مـن ويلسـون وبوتـر وهـما يقفـزان مـن سريرهـما ويهرعـان لارتـداء ملابسـهما. أمـا أنـا فلـم أتحـرك مـن مـكاني مـصرا عـلى متابعـة نومـي، فلسـت مـن عبيـد الفضـول ومهـما كان الخطـب فسـتصلني أخبـاره في وقتهـا. وحتـى لـو كانـت مصيبـة، كأن نُهاجـم مـن قراصنـة تاسـمانيا مثـلا، فمـن الأفضـل لي أن أتشـبث بمـكاني وأتجاهـل مـا يجـري. غطيـت رأسي بالوســادة بحيــث تحجــب أذني دون أن تمنــع عنــي الهــواء، ولم يكـن هـذا سـهلا كـما قـد يبـدو، وعندمـا كـدت أغفـو سـمعت صـوت إنـزال المرسـاة. مـا مـن شيء يُجفـل المـرء ويثـير أعصابـه، أكـثر مـما يحدثـه صـوت نـزول المرسـاة مـن صريـرٍ مـدوٍّ، وارتجـاجٍ عنيـفٍ، في كل أنحـاء السـفينة، وهكـذا طـار النـوم وصحـوت.

فاجـأني المشـهد عـلى السـطح عندمـا صعـدت. دزينـة مـن الجنـود ذوي الـزي الأحمـر يتكئـون عـلى بنادقهـم كالعـادة بينـما راح الضابـط المسـؤول عنهـم يجـادل القبطـان، أو بالأحـرى يـصرخ في وجهـه. أمـر لا يصـدق بالفعـل. كان واضحـا أن القبطـان ليـس في وضـع مريـح البتـة

رغم ما يتصنع من ابتسامات وهو يتكلم. «كما أقول لك حضرة الملازم. إنها الحقيقة».

نظرت نحو الشاطئ متسائلا فيما إن كنا قد وصلنا إلى هوبارت. لا، لا يزال الوقت مبكرا. لكن ما رأيته كان غريبا. كنا قبالة خليج ضيق، ومستوطنة تبدو كبيرة، مساحتها تعادل بلدة متوسطة. لكن الغريب أنه ما من بيوت فيها، بل العديد من المستودعات والورشات التي تحيط ببناء حجري ضخم فيه طبقات عديدة من صفوف نوافذ مربعة. كأن المكان ليس سوى مدينة صناعات حربية.

«أين نحن؟» سألت كينفيغ الذي كان يقف على مقربة.

«مرفأ آرثر».

أجل، كان علي أن أحزر أين نحن بنفسي. الآن فهمت لماذا كل أولئك الجنود الذين ينتشرون، وما الذي جلب دزينة منهم إلى سفينتنا. نظرت إلى المكان ثانية، ورأيت كل ذلك الرعب وحكايات التعذيب والقسوة المرتبطة به. إنه بورت آرثر ذاته الذي تتلفظ الأمهات اسمه في الطرف الآخر من العالم لإخافة الأطفال وردعهم.

كان القبطان قد أخذ يشرح للضابط وهو يشير لخريطة ترفرف أطرافها بفعل الريح: «أترى، ما من إشارة إلى أي موقع هنا».

لم يبدُ على الضابط أي اهتمام بما يسمع: «أتعني أنك كنت تقصد هذا المكان تحديدا؟».

«لا، يكفي ما مررنا به حتى الآن». قال كيولي وقد بدا عليه أنه سُقِط في يده.

رمقه الضابط بنظرة متوعدة. «الأفضل أن تأتي معنا إلى الشاطئ وتشرح ما تريد للقائد بنفسك».

هنا تدخل ويلسون. «لا أرى أن ذلك ضروريا. هل لي أن أذكرك يا حضرة الملازم أن بعثتنا هذه على درجة كبيرة من الأهمية ولا يجوز تأخيرنا في أي حال».

ابتسم القبطان مستبشرا بتدخل الكاهن، لكن ذلك لم ينفع شيئا سوى أنه زاد من تعنت الضابط. «حسنا إذن، يمكنك المجيء معنا أنت أيضا».

وجدت نفسي بعدها ضمن المدعوين لتلك الزيارة. ورغم يقيني أني لم أرتكب ما يؤخذ علي، إلا أني لم أستطع أن أمنع نفسي من الإحساس بالخوف والترقب، ونحن نقاد إلى مكان العقوبات والتعذيب الفظيع ذاك، مخفورين بالجنود. لم نكن معتقلين أو مطلوبين لأمر محدد، لكننا مع ذلك لم نكن أحرارا ونحن نُقاد بمحاذاة ذاك الشاطئ الذهبي. شعور غريب بالشفقة داهمني على أولئك المساكين الذين وجدوا أنفسهم مقيدين في ذلك المكان الرهيب.

كان قائد الموقع رجلا عسكريا متجهما بشاربين كثين مجعدين. «الحقيقة نحن نادرا ما نفاجأ بزوار غير متوقعين مثلكم». قال بصوت غليظ ثم أضاف: «لذا أرى أن علينا أن نفتش سفينتكم».

اعترض القبطان «وما الحاجة إلى ذلك؟ من سيفكر بتهريب أي شيء إلى مدينة سجون كهذه!».

رمقه الضابط بنظرة متفحصة: «لا يهمنا ما الذي يُهرب إلى هنا ولا ما يُهرب من هنا أيضا. ما يهمنا من يمكن أن يُهرب. لن يأخذ التفتيش أكثر من ساعة أو ساعتين، إلا إن عثرنا على ما يثير الاهتمام».

لم يشأ القائد فيما يبدو أن يتركنا ننتظر دون شيء نفعله، فأمر أن تُنظم لنا جولة نحن الثلاثة في الموقع بعد أن ذهب القبطان

ليتابع عملية التفتيش. رافقنا رجل غريب الهيئة يدعى الكابتن جيمس. أثارني الأمر في البداية لكن سرعان ما تلاشى فضولي، فتلك المنشأة كانت مخيفة بالفعل. أينما وقع نظري ونحن نتجول أرى مشاهد رهيبة، سجناء مكبلين وقد حفرت أغلالهم جروحا عميقة في أجسادهم وخلفت في عيونهم نظرات حقد وألم فظيعين. رأيت رجلا ينكب بصمت على تنظيف بعض الدلاء وقد تمزقت ثيابه لتكشف عن جروح غائرة في مختلف أنحاء جسده. كان مرافقنا الكابتن جيمس يستمتع بصحبتنا وكأنه اكتسب خبرة طويلة من تنظيم جولات كهذه. كانت الغبطة والثقة تملؤه كصياد فراشات يعرض ما جمعه على زواره. «لدينا إصلاحية أيضا». قال بثقة وهدوء. «أُنشئت مؤخرا بعد أن كانت مخزنا للحبوب، وهي أكبر بناء حجري هنا. أترون هناك، إلى اليمين، تلك المحفات التي يُصلب عليها السجناء؟ تماما وراءها».

لم يبدُ على رفيقيَّ في الرحلة، أنهما صدما بما كنا نرى، واكتفى ويلسون بالهمهمة بين حين وآخر بتعليقات مثل «هذا مؤسف حقا». أما بوتر فكان يستمتع بالجولة ويلقي أسئلته بفضول.

«هل بُذلت أي جهود لدراسة الخصائص الفيزيولوجية للمساجين هنا أو لتقصي أصولهم العرقية؟».

«لا حسب علمي». كان الكابتن جيمس يجيب باقتضاب مفضلا الحديث ضمن نطاق تخصصه في الموقع. «هناك، أترون؟ إنه السجن الانفرادي، أكثر ما يثير الزوار هنا».

لكن ذلك لم يخفف من فضول بوتر. «ألم تلاحظ بعض الخصائص بنفسك؟ هل هناك جرائم معينة تميز الأسكوتلنديين أو الأيرلنديين أو بعض الأجانب مثلا؟».

«أخشى أني لست الشخص الذي يمكنه الإجابة على ذلك». أجاب الضابط مبتسما.

دخلنا السجن الانفرادي ذاك، وكان مرافقنا يشرح بصوت خافت كأنه يصف كنيسة. «يؤوي السجناء الذين يحتاجون عقوبات إضافية. إنه حديث ومجهز بآخر التقنيات في مجال التأهيل الأخلاقي. ما من تعذيب جسدي هنا على الإطلاق».

تنفست الصعداء بعد كل ما رأيناه من فظاعات وتساءلت: «لماذا لا يجمع كل السجناء هنا إذن ويرتاحون من الضرب والسياط؟!».

«الجواب سهل». قال الكابتن جيمس ردا على سؤالي: «لأن كل من هنا يخاف هذا السجن أكثر من غيره».

وسرعان ما اكتشفت لماذا. فما إن تقدمنا بضع خطوات حتى رأينا موظفَين فوجئت بمظهرهما وقد انتعلا ما يشبه شحاطتين منزليتين بدلا من الأحذية الرسمية، وكأنهما يستمتعان بصباح عطلة الأحد. تقدما أمامنا وفتح أحدهما بابا حديديا سميكا ولفتني أنه لم ينادِ على اسم بل على رقم 17. ظهر من الداخل رجل بزي السجناء الموحد وعلى صدره لوحة نحاسية برقمه الذي نودي به ويغطي وجهه كليا بما يشبه قناعا لا يظهر غير عينيه اللتين تحركتا باضطراب عندما رآنا.

«إنه يؤخذ الآن إلى إحدى ساحات التدريب». همس مرافقنا.

بدأ صوته الذي يشبه في رتابته لوحات مواعيد القطارات يستفزني. «ولماذا القناع؟».

أجابني بصوت لا يخلو من نفاد صبر: «أجل كنت على وشك أن أشرح لكم». ثم توجه إلى بوتر الذي صار محاوره المفضل.

«كي لا يتعرف السجناء على بعضهم، وبهذا نحد من تأثير دوافعهم الإجرامية بعضهم على بعض. وكما رأيتم حتى أسماؤهم يجردون منها وتستبدل بأرقام زنازينهم. إن عزلهم التام بهذه الطريقة يضمن لنا عدم تعرضهم إلى أي تأثيرات خارجية عدا ما نقوم به من تأهيل أخلاقي».

عزل تام ورهيب بحيث يغدو حتى الضرب تواصلا يتوق إليه السجين هنا بعد عدة أسابيع.

يكلف السجناء أعمالا يقومون بها بغية تدريبهم على حِرَفٍ مفيدة، ويقوم القس ومعلم خاص بزيارتهم لتلقين دروس دينية وتعاليم أخلاقية، كما يحضرون إلى الكنيسة هنا خمس مرات في الأسبوع للحفاظ على حياتهم الروحية.

كانت أغرب كنيسة رأيتها في حياتي. تنحدر أرضيتها بحدة وتؤدي إلى ما يشبه مقصورات خشبية منفردة عند مكان صلاة كل منا، تتسع لرجل واحد. تصميم يضمن ألا يرى بعض المساجين بعضا، بينما يستطيع القس رؤيتهم جميعا كما أوضح الكابتن جيمس بفخر.

«أي تصميم عبقري هذا!» قال ويلسون وقد بدت عليه الدهشة لأول مرة. «لا بد أن الأب يؤدي طقوس الصلاة بمنتهى الدقة والتأثير هكذا». قال وهو يتأمل المكان متفكرا.

أما بوتر فقد اهتم بالجانب العملي: «وهل أثبت هذا التصميم فعاليته في حالات محددة؟».

«لا يزال الوقت مبكرا للحكم على التجربة، فبعض المساجين يبدون تعنتا شديدا».

«على الأقل لم يكن هناك حوادث فرار كما أظن».

«حالة واحدة فقط». قال الكابتن جيمس. «تبين أنهم خططوا لذلك هنا في هذه القاعة وهمسوا بخططهم لبعضهم، أثناء ترتيلهم الصلوات».

بدا لي الأمر مذهلا وأنا أتفهم أولئك السجناء الذين لم يروا بعضهم لأسابيع أو ربما لأشهر، وتمكنوا من ترتيل خطة فرارهم من هذا المعتقل الفظيع. فبصرف النظر عن كل ما ارتكبوه من جرائم، فإنه لم يكن بوسعي سوى التعاطف معهم.

«وكيف عوقبوا؟» تساءل بوتر.

«لدينا قاعتان تعرف كل منهما بالزنزانة الصماء. حجرة محكمة الإغلاق بعدة أبواب من الفولاذ السميك، بحيث لا ينفذ إليها أي صوت أو ضوء. يوضع السجين فيها ويترك ليصرخ عدة أيام كما يريد، وقد أثبتت فعاليتها في تغيير أكثرهم صلفا وعنفا».

«ما هذا الصراخ؟» سألت مرافقنا.

«لا بد أنه أحد المعتوهين». قال الكابتن وقد تجهم وجهه. «أصواتهم مزعجة بالفعل. لم يكن من الصواب إسكانهم هنا. ازداد عددهم خلال الفترة الماضية».

«من أين أتوا؟».

«معظمهم كانوا نزلاء سابقين في السجن المنعزل». أجابني ونحن نقترب من بوابات الزنازين حيث تناهى إلى أسماعنا بالإضافة إلى الصراخ همهمات وعويل وصوت أظافر تخرمش حديد الباب. «وأحيانا يكون صخبهم أكثر مما هو عليه الآن. هذا مشين بالفعل».

ثم فجأة ضحك فيكار الذي كان ينظر من إحدى كوى الأبواب ببهجة لم تظهر عليه منذ عضة الفأر تلك. «تعال يا رينشو

وانظر». اقتربت إلى حيث أشار لي بابتهاج غريب ونظرت. رأيت في الداخل رجلا يجلس على الأرض ويحدق بعينين بكل تركيز وحدّة، لكنه لم يكن ينظر إلى أي شيء محدد إنما إلى الجدار المقابل. وبينما كنت أنظر إليه فاجأني بحركة مباغتة حيث رفع يده وصفع بها الجدار المجاور كأنه رأى حشرة. لم يكن هناك أي شيء، ولفتني ما هو أكثر غرابة في الرجل.

«دكتور بوتر، أعتقد أننا عثرنا على توءمك المفقود».

كان ويلسون على حق، فالشبه بين الرجل وبوتر مدهش بالفعل. فعلى الرغم من بشرته الداكنة وشعره الأسود بدا على ملامحه شبَه كبير بشكل الوجه والهيئة. وحتى لحيته بدت شبيهة بلحية الطبيب الذي أزعجته الملحوظة وردّ بعدائية: «لا، لا يشبهني على الإطلاق».

لكن ويلسون لم يكن ليتراجع. «من يكون هذا؟».

«يدعى بلاك دونال». أجابه الكابتن جيمس. «من أصل هجين على ما أذكر، نصفه أيرلندي والنصف الآخر ماوري من نيوزيلندا. حجز لفترة في السجن المنعزل قبل أن يصنف من بين المجانين».

«وما جريمته؟».

«علي النظر في السجلات كي أجيبك بدقة. لكن أظن أنه ضرب أباه وجده بالهراوة حتى كادا يقتلهما».

ضحك ويلسون بخبث وقال: «دكتور، لا بد أن تعترف بالشبه بينك وبينه. هل أنت متأكد أنه ليس أحد أبناء عمومتك المنسيين؟».

رمقه بوتر ببرود: «لو دققت جيدا يا ويلسون فلن ترى أي شبه حقيقي، بل مجرد قشرة خارجية خادعة. هذا عدا ألا أقارب لي على الإطلاق من أيرلندا، ناهيك عن ماوري».

طرفت أحد عيني ويلسون وهو يقول: «بالطبع يمكن للمرء أن يخطئ أحيانا حتى في التعرف على أسلافه».

لم يكن لتعليقه هذا أن يكون أكثر استفزازا رغم ما في ظاهره من براءة أو مزاح، وتوقعت أن يقول الكاهن شيئا ما ليخفف من وقعه. خلت للحظة أن بوتر سينقض على ويلسون ويوسعه ضربا إلا أنه صمت كاظما غيظه، ثم أدار ظهره وبدا عليه أنه يتنفس بصعوبة بعض الشيء. لكنه بعد أن تمالك نفسه وسيطر على انفعاله عاد واستدار ليرد على خصمه.

«أعتقد أن علينا دراسة الموضوع بطريقة علمية يا فيكار بدلا من تضييع الوقت في الاستماع إلى تخاريفك الحمقاء. ولو سمحت لي فسأقوم بدراسة سريعة لخصائص جمجمة هذا الرجل وبعدها لجمجمتي أنا..».. ثم صمت لحظة وأضاف مبتسما «ولجمجمتك أنت أيضا».

توقعت بشيء من الاستغراب أن يتلقى رجل الكنيسة مزيدا من الإهانات. لكن بوتر انصرف عن ذلك، وعاد إلى الكوة ليحدق فيها باحثا عن الرجل ذي العينين الجاحظتين. قال بتوتر: «أين هو؟ أين ذهب؟».

«أعتقد أنه من الأفضل لك أن تبتعد عن الباب». قال الكابتن جيمس محذرا.

«ولماذا علي الابتعاد؟» قال بغضب وهو يتابع النظر من خلال الكوة.

لم يتأخر الجواب، فبعد لحظة صرخ بوتر وهو يقفز مبتعدا عن الكوة ويغطي عينيه بيده. «فقأ عيني بأصابعه». هرع الكابتن جيمس لمساعدته. «سينال ما يستحق ذلك المجنون». سمعت من

داخـل الزنزانـة صـوت ضرب عـلى البـاب وتخيلـت أن بـلاك دونـال ذاك تملّكـه الهيـاج لأنـه سـمع غربـاء يتحدثـون عنـه. ومـن يلومـه في النهايـة!

أصر الكابـتن جيمـس عـلى أن يـزور بوتـر مشـفى السـجن، لكـن لحسـن الحـظ تبـين بعـد فحـص سريـع في عينيـه أن الإصابـة ليسـت بليغـة، ومـع ذلـك زودوه بضـماد خـاص. بعـد ذلـك وصلـت أخبـار تنفسـت لهـا الصعـداء. انتهـى التفتيـش في الإخـلاص وتـم تجهيـز كل شيء والسـفينة تسـتعد للإقـلاع، وبهـذا انتهـت جولتنـا.

الفصل الثاني عشر

من إلدريج، مدير مستوطنة أويستر دوف للسكان الأصليين، إلى حاكم تاسمانيا جيرالد دنتون، سبتمبر 1857

صاحب السعادة

اسمحوا لي كموظف متواضع في حكومتكم أن أرحب بكم في مستعمرة جلالة الملكة في تاسمانيا، وأن أعبر عن تقديري لسمعتكم الطيبة التي سبقت وصولكم إلينا كرجل صاحب مقدرات رفيعة وعدالة مشهود لها.

أكتب لكم من مستوطنة أويستر دوف التي أفتخر بتولي مهام الإدارة فيها. أقدر أنكم مشغولون بمهام ومسؤوليات الحكم الجسيمة منذ أن وصلتم من إنجلترا، وبالكاد تجدون وقتا للاهتمام بمنشآت صغيرة كمستوطنتنا. لذا اسمحوا لي أن أحيطكم علما بمجريات الأمور لدينا، وأن أنتهز الفرصة لإبداء اقتراحين بخصوص مستقبل مستوطنتنا التي أُنشئت على ساحل أويستر قبل عشر سنوات، شرفني أن أتولى منصبي فيها خلال ثمان منها. وكانت قد بنيت لإيواء من تبقى من سكان جزيرة فليندرز السود، الذين كان عددهم في ذلك الوقت -قبل عقد من الزمان- حوالي الخمسين فردا، لكن ومع مرور الوقت فقدنا معظمهم للأسف. وفي الشتاء

الماضي وحده، مات ثلاثة منهم، كليوباترا وديوجني وكولومبس. وبعد استقلال كرومويل الذي ينحدر من أصل هجين في كوخ مستقل لم يتبق سوى أحد عشر منهم، ثماني نساء وثلاثة رجال كلهم في سن متقدمة.

وفي ظل هذه الحالة المؤسفة لواقع السكان السود أود أن أقترح عليكم تغيير موقع المستوطنة ونقلها إلى مكان أكثر ملاءمة. ففي رأيي المتواضع أرى أن ساحل أويستر لم يكن خيارا موفقا منذ البداية. فالرطوبة الشديدة هنا والبرد يؤثر عليهم ويجعلهم دائما متجمعين حول النار ويرتدون كل ما استطاعوا الوصول إليه من ملابس أو أغطية. وبالإضافة إلى ذلك أعاني أنا شخصيا من عزلة المكان، فالطريق إلى هوبارت بعيد وغير سالك مما يجعلنا في عزلة تامة جعلت السود المساكين يتحولون إلى ضحايا لجشع بعض المجرمين البيض الذين كانوا يستدرجونهم إلى مقايضة ممتلكاتهم الهزيلة بالكحول. ولم ينفع كل ما بذلته من جهود في إبعاد أولئك، وظلوا يرتعون دون رادع في المنطقة. وهنا أقترح عليكم نقل المستوطنة إلى هوبارت، فالأصليون، عدا عن طباعهم المسالمة، قلة، ولا يمكن أن يشكلوا أدنى خطر يمكن التخوف منه. وفي الحقيقة يمكن جمعهم كلهم في أحد منازل هوبارت الكبيرة، وتحديدا في منطقة باتري بوينت لما تتمتع به من هدوء وإطلالة جميلة على النهر. وبهذا يكون توفير المؤن والبطانيات وكل ما يلزم أسهل وأقل كلفة على الخزينة العامة ويجعلني أؤدي مهامي بطريقة أكثر يسرا وفعالية لقربي من مركز الحكومة في هوبارت.

في حال لم توافقوا على اقتراحي، أو أنكم رأيتم أنه غير ممكن التنفيذ، فأنا يا صاحب السعادة أتقدم لكم بطلب خاص: أرجو

منكم نقلي للعمل في مكان آخر؛ فبعد تقاعد السيد ويلس أمين المستودعات في المستوطنة، أصبحت الأوروبي الوحيد الذي يقطن هنا، وهذا أمر يسبب لي مشقة كبيرة. رغم فخري بما قمت به في منصبي هنا، إلا أني أعتبر أن خدمة ثماني سنوات في هذا المكان أكثر من كافية. يمكنني إن وافقتم على العودة إلى عملي السابق كأمين مستودع في ثكنة هوبارت أو أن ألتحق بأي عمل آخر ترونه مناسبا، حتى لو كان أقل مرتبة وظيفية من منصبي الحالي.

يؤسفني يا صاحب السعادة أن البعض في هوبارت قد يحاولون ثنيكم عن النظر في طلبي بذريعة قصة ما فقد من مستودعات الثكنة قبل عدة سنوات. لكني أؤكد لكم أن كل ما قد تسمعونه عن ذلك ليس سوى افتراءات لم يثبت منها شيء على الإطلاق. وهنا أناشدكم أن تصرفوا أنظاركم عن كل الوشايات التي يقوم بها أشخاص مغرضون لا يهدفون سوى إلى تلطيخ اسمي وسمعتي، واغفروا لي جرأتي هنا في أن أقدم لكم نصيحة متواضعة؛ ليس هناك مجتمع أكثر ولعا بالنميمة والوشاية وتناقل الإشاعات أكثر من بشر يعيشون في جزيرة نائية ومعزولة.

أرجو منكم دراسة طلبي بعناية، ومرة أخرى أتمنى لكم التوفيق بمهامكم كحاكم.

بكل تواضع في خدمة حكومتكم

المدير إلدريج

باجرلي، ديسمبر 1857

أيقظني في صباح باكر في أحد الأيام صوت صراخ خارج الكوخ قطعه الصمت فجأة. لم يسمعه أحد في الأكواخ الأخرى، وتابع الجميع نومهم بينما تيقظت أنا وكلي فضول. خرجت فوجدت ضوء النهار يتسلل من جهة جزيرة بروني في الأفق ويمتد كأنه يد صفراء طويلة، وعلى الأرض كانت واليريك ممددة بلا حراك. عرفت أنها سقطت عندما كانت تحضر حطبا، فتعثرت ببعض العيدان على الأرض. أمسكت برأسها بين يدي، فميزت في عينيها نظرة جعلتني أتنفس الصعداء؛ إنها لا تزال على قيد الحياة. كانت في حالة سيئة، وجهها محتقن من الألم وتجاهد للتنفس بسرعة، وكأن الهواء لا يكفيها. أسندتها لترقد ساكنة ريثما تلتقط أنفاسها، وبعد لحظات بدأت تتحسن وهدأ لهاثها المحموم.

استعادت قواها قبل أن ينقضي الصباح، بل وذهبت إلى البحر للسباحة واصطياد السمك. لكن القلق رغم ذلك لم يبارحني من أن يشتد عليها المرض وعزمت على التحدث معها.

«واليريك، أعتقد أنك يجب أن تذهبي إلى بيفاي وتمنحيه عفوك».

كانت كعادتها تكره أن يخبرها أحد أن تفعل أي شيء. «ولماذا يجب علي فعل ذلك؟»

لم يكن الرفق يجدي معها، فهي لا تعرف سوى القتال والشدة. هذا طبعها. «اسمعي، لا يجوز أن تستمري في كراهية ابنك هكذا. ماذا لو متِّ؟ هل تريدين له أن يعيش دائما مع فكرة أنك كنت تكرهينه؟».

صمتت متفكرة فتأملت خيرا. لكن ذلك لم يدم سوى لحظة واحدة. «لا، لن أذهب إلى بيوت البيض لأردد خزعبلاتهم هذه».

كانت محقة بخصوص بيته، فكما رأيت بنفسي لديه كل أشياء البيض. طاولة وكراس وموقد ورفوف عليها كتب وشموع أيضا، تماما ككوخ المدير إلدريج. وحتى ثيابه كانت مثلهم، معطفه وحذاؤه وقبعته العالية التي يضعها على الطاولة. لكن الغريب في الأمر أنه كلما كان يحاول أن يبدو مثل البيض ازداد اختلافا عنهم. فبعد أن حال لون شعره الأشقر إلى رمادي صار مثله مثل أي رجل من قبيلة البالاوا، وأخذت كراهيته للبيض تشتد مع مرور الوقت إلى أن تفوق على أمه التي تلاشت حدة أحقادها، واستسلمت للامبالاة مع تقدمها في العمر. قتلت منهم ما استطاعت عندما كانت في قوتها، على العكس منه فهو لم يقتل أحدا منهم. يبدو أن الشيخوخة جعلتها تخفف عن نفسها أعباء الكراهية.

هناك أمر آخر جعلت أحقاد بيفاي على البيض تتضاعف؛ بيته، فهو لم يكن يرغب بالحصول عليه وحده، وقد قضى سنوات يكتب للبيض عرائض ورسائل جعلنا نوقع عليها بهدف الحصول على مسكن كبير ومناسب لنا جميعا بالإضافة إلى مساحة من الأرض تخصص لنا لنزرعها بما نريد كما يفعل البيض. كان يعتقد

أن ذلك من حقنا بعد كل ما تعرضنا له من استغلال وخديعة. كان بالفعل ذكيا ويتقن كتابة الرسائل، لكنه في النهاية لم يحصل سوى على كوخ صغير يؤويه وحده، ولم نرَ شيئا لا من الأراضي ولا من تلك الأشياء التي يحتكرها البيض لأنفسهم. غضب كثيرا في البداية وقال إنه لن يعيش في الكوخ الجديد، لكنه قبل في النهاية وانتقل إليه. بل أصبح يقضي أوقاته في صيد الأسماك للحصول على النقود، التي قال إنها ستساعدنا في مقاومة البيض والضغط عليهم حتى يقبلوا بما نريد.

«سأحصل على المسكن الذي أريده لنا جميعا. سترين، سأحقق لكم ذلك». هكذا كان يقول لي. كان كأمه تماما؛ صخرة في عناده وتشبثه برأيه. ولهذا كان من العسير فعل أي شيء للتقريب بينهما. لكني لم أستسلم وعزمت على فعل كل شيء لجسر الهوة التي تفرقهما. لا بد من فعل شيء ما، ولا يمكنني أن أدعهما هكذا عالقين في مستنقع الكراهية إلى الأبد.

السيدة جيرالد دنتون - زوجة حاكم تاسمانيا، سبتمبر- ديسمبر 1857

مقتطفات من «على شواطئ نائية: مذكرات زوجة حاكم مستعمرة- الفصل 27»

عيد ميلاد في الذاكرة

في ربيع إحدى سنوات طفولتي شكلت مع رفيقاتي جمعية صغيرة تهدف إلى إنقاذ أفراخ الطيور التي تسقط بالمصادفة من أعشاشها. وعلى الرغم من أن ثمار جهودنا كانت أقل من أمنياتنا وطموحنا، ظل الدافع وراء مشروعنا الطفولي ذاك، يلازمني حتى الآن. التعاطف مع كل من ظلمته الحياة أو قست عليه، إذ لم تكن طبيعتي تقبل الاستكانة أو الصمت تجاه حكايات البؤس في هذا العالم مهما كانت؛ أطفال يسحقهم الفقر أو آباء يلقون التجاهل والجفاء من أبنائهم في شيخوختهم أو حيوانات تقاسي من عنف أصحابها. وهكذا كان من الطبيعي عندما وصلت إلى هذه الجزيرة النائية في مستعمرة تاسمانيا أن تشدني مأساة السكان الأصليين.

كنت قد سمعت قبل أن أصل عن مصير الانقراض والتلاشي الذي ألم بأولئك التعساء، لكن كانت التفاصيل تنقصني. وهكذا ما إن وصلت وانتقلت مع زوجي إلى مقر الحاكم الرسمي حتى

رحت أتقصَّى المعلومات في محيطي، فبدأت من مدبرة المنزل السيدة موري ثم ممن تعرفت عليهن من صديقاتي الجديدات زوجات موظفي جيرالد. وللمفاجأة لاحظت أن من حولي يتردد في الإجابة على أسئلتي، بل يحاول تجاهلها، وكأن مناقشة هذا الموضوع أمر يخالف اللباقة والذوق. لكن لم يكن لذلك سوى أن يزيد من فضولي ومن إصراري على المعرفة، فما كان مني إلا أن توجهت بأسئلتي إلى جيرالد مباشرة. وأي صدمة كانت بالنسبة لي عندما أخبرني أنه لم يتبقَّ من تلك المخلوقات التعيسة سوى دزينة من الأفراد، وأن الأوبئة وعنف السجناء الفارين قد فتك بهم جميعا ولم يترك سوى بعض المسنين منهم بحيث انعدم الأمل في نجاة سلالتهم.

وفي غمرة انفعالي بما اكتشفت ألحَّت علي فكرة أن أقدم لأولئك البائسين أي شيء يمكن أن يمنحهم عزاء أو بعض السلوى في أيامهم الأخيرة. خطر لي أن أزورهم في مستوطنتهم وأقدم لهم بعض الهدايا. راقت الفكرة لزوجي جيرالد، لكن فضل أن يتفرغ أولا لمسؤولياته الملحة كحاكم جديد، خصوصا أن مستوطنة السود تلك تبعد عشرين ميلا، على طريق وعر المسالك. غير أنه وجد الوقت بعد بضعة أسابيع، ليقترح إقامة حفلة في دار الحكومة، بمناسبة عيد الميلاد ندعو إليها أعيان المجتمع للتعرف عليهم. عندها تبادر إلى ذهني فكرة لم تلبث أن سيطرت علي لأني عثرت على فرصة سانحة لأمنح أولئك الأصليين بعض السعادة. أجل، لماذا لا ندعوهم إلى الحفلة أيضا؟

لم يُخْفِ جيرالد حماسه للفكرة رغم أنه صارحني بمخاوفه؛ كان يخشى أن تسبب حفلة صاخبة وجمع غفير من الناس القلق

والتوتر للسكان الأصليين، الذين اعتادوا على العزلة. وأكثر ما كان يقلقه أن يسبب واحد منهم بالتحديد بعض الإزعاج.

«هذا الرجل من أصل هجين واسمه كرومويل. شخص مزعج أتقن أساليب الإنجليز وحيلهم بحيث يمكنه أن يفتعل لنا مشكلة حقيقية. لديه طموحات بأن يقلد الأرستقراطيين في أسلوب حياته، ولم يتوقف عن كتابة الرسائل إلى موظفي الحكومة مطالبا بمنحه مساحات من الأراضي، بل وبتزويده ببعض المحكومين للعمل لديه كخدم أيضا. والمشكلة أننا لا نستطيع دعوتهم من دونه لأنهم يصرون على اعتباره واحدا منهم رغم دمه المختلط». قال جيرالد متفكرا بحزن: «وإن قمت بدعوته فسأكون مثل من يجلب المتاعب لنفسه».

«خطرت لي فكرة. لماذا لا ندعوهم جميعا ونخصص لهم مكانا في الحفلة منفصلا عن بقية المدعوين؟ بهذا نضمن أن الضوضاء لن تثير توترهم ونضمن أن كرومويل هذا لن يجد فرصة لإزعاج أحد».

نجحت بالتشجيع وبعض الإلحاح بإقناع زوجي المتردد. ودفعتني سعادتي في ذات اليوم لإرسال دعوة إلى مدير مستوطنة السكان الأصليين، السيد إلدريج، الذي أخبرني جيرالد أنه رجل ذو ماضٍ ملوث. كنت في الحقيقة أنوي جمع بعض التذكارات التي تمثل تاريخ وثقافة أولئك المساكين قبل تلاشيهم، وكثيرا ما تخيلت غرفة الجلوس ببيتنا في لندن في لحظة ما من المستقبل مزينة بتلك المواد، سهام ورماح خشبية معلقة على الجدران وتماثيل لكائنات وحشية على الرفوف، كلها ذكرى وجودنا ذات يوم في هذه البقعة النائية من العالم. وصل جواب السيد إلدريج بعد بضعة أيام

يعلمنا أنه سيلبي الدعوة مع السود في مستوطنته، لكن غبطتي بهذا لم تدم طويلا، إذ سرعان ما وصلت بعد ذلك بيومين، رسالة من ذلك الهجين تعبر عن قبول الدعوة بكلمات معقدة وصياغات طويلة لا تدل سوى على عقل مضطرب. واجهتني عندها مشكلة الطعام. فما كنت أطمح إليه هو تقديم تشكيلة من الحلويات والشاي تشبه تماما ما اعتدنا عليه في مناسبات كهذه في إنجلترا. لكن اختلاف الطقس في الجزيرة، جعل مهمتي عسيرة، وخصوصا فيما يتعلق بكعكة العيد. فما من خوخ أو إجاص وتفاح لصنع ما أريد، ناهيك عن الكستناء. كنت كمن يريد الاحتفال بأعياد الميلاد في يونيو.

ولم تكن تلك مشكلتي الوحيدة، فما إن شرعت بالبحث عن شجرة مناسبة لعيد الميلاد، حتى وجدت كل ما في المكان غير مناسب لا من حيث الشكل ولا من حيث الرائحة. أما موضوع الزينة فكانت متاجر هوبارت مخيبة لآمالي التي زادها خيبة ما اكتشفته بعد تنظيم أمور الجوقة التي ستنشد التراتيل. فما إن وجدت مجموعة مناسبة من الأشخاص لتكوين الكورس، صدمت بحقيقة عدم وجود طفل مناسب في المستعمرة كلها لأداء دور يسوع في قصة الميلاد. كل الجيل الشاب هاجر وراء أحلام التنقيب عن الذهب.

تمكنت رغم كل ذلك من تذليل العقبات، وبعد مرور بعض الوقت اكتملت الإجراءات المطلوبة لتنظيم المناسبة. ارتفعت الزينة على طول الطريق المؤدي إلى المنزل وأضفت جوا بديعا طغى على ذكرى الحضور الباهت لسلفنا في السكن. انتقلت بعد ذلك لترتيب الحديقة واخترت مكانا مناسبا لزوارنا السود ثم

قمت بتوزيع النباتات حولهم بطريقة تحجبهم عن بقية الضيوف. وأثناء ذلك قفزت إلى ذهني فكرة ملأتني بهجة. لماذا لا ألتقط لهم بعض الصور. كم سيكون هذا مؤثرا، أن تحتفظ بأثر يخلِّد ذكرى هذا العرق التعيس. وفي حال كانت الصور جيدة ستجد مكانها ولا بد على جدران منزلنا في لندن. في ذات اليوم بدأت بالبحث عن مصور مختص وعثرت على ما أريد في هوبارت.

الكاهن جيفري ويلسون، ديسمبر 1857

أخيرا وصلنا. بعد شهور طويلة من المعاناة والصبر والمكابدة وصلنا إلى خاتمة الرحلة، إلى محطتها الأخيرة. أي سعادة تلك التي غمرتني والإخلاص تنساب ببطء عبر مصب النهر إلى هوبارت التي ترقد بِدَعَةٍ على سفح جبل ويلنغتون. منذ مغدرتنا مرفأ آرثر الكئيب ذاك وأنا أتحسب من أن يعلن القبطان من جديد رسوّنا في مكان مهجور ما، ليؤخر وصولنا إلى هذه اللحظة العظيمة، ولحسن الحظ لم يحدث ذلك، وها نحن هنا نرسو في ذات المكان الذي كنا نتوق إليه زمنا طويلا.

أدخل مشهد مرسانا الأخير البهجة إلى قلوب كل من على متن السفينة. أخذ البحارة يغنون ويهللون وهم يؤدون مهامهم الأخيرة في رحلتهم الطويلة، ينزلون الأشرعة واحدا تلو الآخر ونحن نقترب بتؤدة من رصيف هوبارت. رينشو كان في حالة من الانفعال بحيث اتكأ على درابزين السفينة وكأنه لا يستطيع الانتظار. وحتى بوتر بدت عليه كياسة لم أعهدها فيه إلى درجة جعلتني أشك فيما إن كنت قد ظلمت الرجل بأحكام جائرة. أما أنا نفسي فلا أستطيع وصف مشاعري وأنا أنظر إلى الأرض التي ملأت أحلامي وفكري منذ زمن بعيد. ذكّرتني قمة جبل ويلنغتون الوعرة بأسكوتلندا،

لولا روائح النبات الحريفة التي هبت علينا مع النسائم وأضفت على المكان جوا غرائبيا. لا أشك أن ما سمعته لحظتها مجرد خيال، لكني مع ذلك أذكر جيدا تلك الأصوات الرقيقة تتناهى إلي بين صوت الريح وتوتر حبال الأشرعة، همهمات مخلوقات صغيرة ترحب بي: «أهلا يا فيكار. أهلا بك أيها الجميل».

لم تتأخر هوبارت في استقبالنا بطريقتها الخاصة. فما إن رست السفينة على رصيف مجهز بمرافق حجرية حسنة التنظيم، حتى اقترب منا رجل بقبعة قشية وعرّف عن نفسه بأنه مراسل إحدى الصحف المحلية، كولونيال تايمز. أراد أن يتحرى عن مسار السفينة وغرض الرحلة. بادره القبطان ببرود وشيء من الجفاء، لكني من جهتي لم أرَ أي داع للتحفظ، بل وجدت في اللقاء فرصة يجب استغلالها. وبفضل جوناه تشايلدز كان بعض المتنفذين ينتظرون وصولنا ومن بينهم حاكم المستعمرة نفسه، لكني وجدت أنه من المفيد إعلام عامة الناس بوصولنا أيضا، ولهذا قدمت شرحا وافيا عن طبيعة بعثتنا وأهدافها للمراسل الصحافي. وكم سرني حماسه للموضوع وأسئلته المفصلة عما نسعى إليه، وحرصه على تدوين ما أقول في دفتره. بعد ذلك مضيت على الفور لأبحث عن مكان إقامة مناسب يجعلنا نبدأ العمل بأسرع وقت ممكن.

لكن حماسي لم يدم طويلا للأسف، ففي صباح اليوم التالي قرأت ما كتبه الصحافي في الكولونيال تايمز، واكتشفت أن وجهه البشوش لم يكن سوى قناع ليهوذا ذاته. كتب في مقالته القصيرة نقدا لا يمكنني القول عنه سوى أنه غاية في اللؤم. نقض نظريتي بأن جنة عدن تقع في تاسمانيا، ليس بطريقة منطقية مقنعة، بل بتهكم مثير للاشمئزاز.

غير أن ما حدث بعدها أعاد لي مزاجي المتفائل بسرعة. ففي صباح اليوم التالي دُعينا نحن الثلاثة للقاء الحاكم، ولم يكن من المفيد ثني بوتر عن مرافقتنا. والحقيقة أننا استُقبلنا بحفاوة كبيرة من الحاكم وزوجته اللطيفة. رأيت في الرجل شخصية مثقفة من عائلة محترمة، وقد عبّر عن حماسه الكبير لبعثتنا، من دون أن يذكر الكولونيال تايمز. عمد مع زوجته إلى توفير ما يؤنسنا ويروِّح عنا بعد رحلتنا المضنية، إذ دعانا لحضور حفل بمناسبة عيد الميلاد المجيد، واقترح أن يقدمني إلى بعض التجار وأصحاب الصناعات الذين بوسعهم توفير المساعدة في التجهيز لرحلة الاستكشاف.

وما إن باشرت التجهيز حتى اكتشفت في مجتمع هوبارت ما هو نقيض الخبث والأحقاد في عالم الصحافة، فقد أبدى معظم من التقينا بهم الحماس الشديد لبعثتنا والتأثر بفكرة أن جزيرتهم النائية تلك تحمل دلالات وأهمية كبيرة في الكتاب المقدس. بعد بضعة أيام فقط بدأنا نستقبل في مقر إقامتنا وفود المرحبين من مختلف شرائح النخبة في هوبارت، ومن بينهم تجار وصناعيون أبدوا استعدادهم لتزويدنا بما يلزم. فاجأتني تلك المدينة الصغيرة بالفعل بما فيها من تنوع، وبالكاد صدقت أن المستوطنين الإنجليز لم يصلوا إليها سوى قبل نصف قرن فقط. اطلعت على التنظيم والأناقة في أنحائها، فتذكرت مدن وبلدات إيسكس في إنجلترا بما فيها من هدوء ودَعة. لفتني أن السكان عموما يتحلون باللباقة ويحرصون على نظافة الشوارع، وكلهم في منتصف العمر، وقد غادر الجيل الشاب إلى فيكتوريا سعيا وراء الذهب. مؤنس ومريح حقا أن نقيم في مكان كل ما فيه إنجليزي صرف رغم المسافات الشاسعة، المتاجر ولغة الناس وألوان المفروشات.

لم أتلكأ في الشروع بالإعداد لمهمتنا العظيمة، وباشرت بالفعل العمل على التفاصيل بداية من خط مسيرنا. توصلت إلى قرار بسرعة. كنت في البداية أنوي السفر إلى الساحل الغربي من الجزيرة على متن الإخلاص، لكن هذا كان يعني الإبحار بعكس جهة الرياح مما سيؤخرنا لعدة أسابيع إضافية. لذا قررت أن نقطع المسافة برا. تحريت عن معالم الطريق من التجار الذين زارونا في مقر إقامتنا واستعنت بأحدث الخرائط المتوفرة للجزيرة، لكن خط مسارنا لم يكن واضحا بما يكفي لخلو الطريق من أي معالم ترشدنا. لذلك عدت إلى ما اكتشفته في سِفْر التكوين الذي يذكر أن دروينت -الاسم الذي يطلقه السكان الأصليون- إنما يشير إلى أحد الأنهار الأربعة، أي الفرات، والذي لم يكن سوى النهر نفسه الذي يمر بهوبارت. ما أسهل ذلك. ما علينا سوى أن نتبع مجرى النهر لنجد أنفسنا في نهايته نشرف على جنة عدن.

واجهتني صعوبات كثيرة في ترتيب الأمور العملية لرحلتنا التي بدت لي أكثر صعوبة مع تقاعس رفيقيَّ في البعثة اللذين لم يقدما أي مساعدة. حاولت تشجيع رينشو لعله يتخلى عن شروده وكسله، لكن ذلك أضاع من الوقت أكثر مما أثمر. أما بوتر فلم نكن نراه. تركت له رسائل أستحثه على القيام بمهمات محددة لا أملك الوقت لمتابعتها بنفسي كتنظيف روث البغل مثلا، لكن دون جدوى. ولم يكن البحارة أفضل حالا، فحين قمت بزيارة السفينة طالبا نقل بعض متاعنا إلى النزل لم أجد القبطان ولا حتى برو أو كينفيغ، وعبثا ذهبت كل جهودي. ولما استبد بي الغضب نجحت أخيرا بإجبار عملاق السفينة كلوكاس شاينا الذي أخبرني بتردد أن القبطان في لقاء مع مراقب جمارك يدعى كواين في إحدى

الحانات القريبة. حيرني أمر القبطان. ما الذي يفعله مع مراقب الجمارك الذي يفترض أنه أنهى عمله معه منذ وقت طويل؟! غير أن حيرتي لم تطل، فعندما دخلت الحانة على مضض رأيتهم كلهم هناك بمن فيهم كواين وهو رجل قصير بوجه ماكر وقف على رجل واحدة بينما راح يحرك الأوساخ كأنه يرقص، وهو يرطن بلغة آيل أوف مان. أغضبني ما رأيت، وبينما لم أكن أعارض أن يمتع البحارة أنفسهم بالحديث مع أبناء جلدتهم عن أحوال وطنهم البعيد، إلا أني لم أجد لهم عذرا في التقاعس عن تأدية عملهم. وهكذا عزمت على تأنيب القبطان على تغيبه الدائم عن سفينته.

تمكنت رغم كل ما اعترضني من عقبات، من إعداد ما يلزم لانطلاق مسيرتنا. اشتريت مؤونة فوق ما لدينا من مخزون طعام إنجليزي، طحين وأرز وفواكه وخضار مجففة، واستطعت بصعوبة تأمين بعض البغال. حجم متاعنا كان ضخما بحيث بحثت في كل أنحاء هوبارت عن دواب تكفي لنقل الحمولة، وعانيت في ذلك من جشع التجار والملاكين. تطلّب ذلك مصاريف أثقلت على ميزانية البعثة، بحيث لم أتمكن من اتخاذ خادم شخصي لنفسي كما كنت آمل، ليس بدافع مصلحتي الذاتية بل من أجل المصلحة العامة، إذ إنه لم يكن من اللائق أن يفتقر رئيس البعثة لمن يقوم على مساعدته بينما يتمتع من هو أقل شأنا منه بذلك. ومراعاة لمحدودية مواردنا المالية أملت أن يتحلى بوتر بالمسؤولية ويقدم المصلحة العامة على أنانيته، فأرسلت له ملحوظة أطلب فيها أن يشاركنا بخادمه هوبر. ويؤسفني القول إن رده كان مستفزا للغاية.

لم أيئس من ابتكار حل لهذه المشكلة، فعزمت على تكليف بعض سائسي البغال بمهمات الخدمة. لكن تبين بالتجربة أن

ذلك لم يكن سهلا كما تخيلت، فهم لم يكونوا مؤهلين بما يكفي حتى لقيادة دوابهم. فبعد أن أعلنت في الصحف المحلية حاجتي لسائسين ذوي خبرة تقدم ستة رجال لم أرَ فيهم سوى عجائز أو سكارى يفتقرون إلى الحد الأدنى من اللباقة. واحد منهم فقط اسمه سكيغس كانت لديه خبرة حصل عليها من رحلات التنقيب عن الذهب، ورغم جلافته رأيت فيه سائسا خبيرا، وقررت أن هذا ثمن لا بد من دفعه مقابل درايته الجيدة بالدواب. أما البقية فلم تتعد خبرتهم العلاقة العابرة مع الأحصنة، وهكذا عزمت على تشغيل ثلاثة منهم كخدم لي.

بقي أمامي العثور على دليل مناسب، وكان هذا في الحقيقة من أصعب الأمور لأن أراضي الجزيرة الداخلية كانت مساحات مجهولة. جميع الذين ردوا على إعلاني في الجرائد لم يكونوا سوى دجالين، وقد أخبرني أصدقائي التجار أن آخر عملية استكشاف لتلك المنطقة من الجزيرة تمت قبل عشرين عاما، قام بها موظف في المستعمرة اسمه روبسون. لكن تبين أن هذا الرجل عاد ليعيش في إنجلترا منذ زمن. وهكذا وجدت نفسي في طريق موصدة. لم يكن أمامي سوى أن أتقبل الواقع وأنحّي فكرة الدليل عن ذهني متوكلا على الرب وحده الذي من أجله نخوض هذه المغامرة. لا بد من أن أقود البعثة بنفسي ومن دون دليل.

في تلك الأيام وجدت نفسي مأخوذا بما يجري حولي، أتشاغل بواجهة متجر مبهرجة هنا وبحديث عابر عن طرق طهي الإوز هناك. وجدت الطقس الحار غريبا في شهر ديسمبر، البشر ودوابهم يلهثون تحت شمس حارقة، وكان من الصعوبة أن أصدق أنه في ذات اللحظة وفي الطرف المقابل من الأرض يصارع رجال إنجليز في ظلمة

شتائهم القارس للحصول على شيء من دفء يقيهم الأنواء العاصفة وهم يتسوقون في موسم العيد. لم أنس في غمرة ذهولي حفل الحاكم الذي كنت أتطلع إليه كحدث شيق، ليس لما قد يحمله إلي من بهجة فقط، بل لأنه سيكون مناسبة للترويج للبعثة أيضا.

عندما وصلنا إلى مشارف بيت الحاكم بدا لي جليا أنه حفل كبير بالفعل. عدد المدعوين الكبير وزينة العيد أضفت جوا احتفاليا محببا، وما إن دلفت إلى حديقة البيت حتى اكتشفت أن نخبة المجتمع في هوبارت كلها تجتمع هناك. وسط الحشد وقفت مجموعة من المغنين وقد احمرت وجوههم من الشمس يرحبون بالقادمين بتراتيل العيد وإلى ورائهم شجرة ضخمة من نوع محلي مزينة بالشموع. كانت الحلويات والشاي توزع بسخاء ولم أشعر بأي نقص سوى بغياب الطابع الروحي عن الحفل. فبالإضافة إلى وجود التراتيل ودراما الميلاد كما علمت لا بد من بعض الكلمات التي تذكر بالمعاني الروحية للمناسبة. لقد قطعنا كل تلك المسافات الشاسعة من أجل إعلاء القيم المسيحية، وكنت بالتأكيد سأحضِّر موعظة لألقيها هنا لو طُلب مني ذلك.

لم تمنعني أفكاري من التفاعل مع بهجة المناسبة فرحتُ أشقّ طريقي بتصميم بين الحشد الذي تجمّع حول الحاكم لأقدم له التحية والتهاني. وبدوره لم يقصر هو في إحاطتي بالحفاوة واستقبلني بلطف ولباقة تستحق الثناء، ثم استأذن ليؤدي ما عليه من واجبات الضيافة بعد أن عرّفني على مجموعة من نخبة المجتمع من التجار ورجال الأعمال. وهكذا وجدت نفسي أتجاذب أطراف الحديث مع المسؤول عن جباية الضرائب في إدارة الحاكم، ومع أحد الصناعيين المتخصصين في صناعة الملابس الداخلية النسائية، ومع واحد من أكبر

تجار المدينة. كلهم أبدوا حماسة للبعثة وسرني ما سمعته منهم من تشجيع.

«هذا ما تحتاج إليه المستعمرة». قال التاجر بصوت جهوري. «نريد أن نلفت الأنظار إلينا قليلا لنتخلص من الرتابة والإهمال. هذا إن نجحتم في اكتشاف أي شيء».

«أؤكد لك أن آمالك لن تخيب، فما كنت لأقطع كل تلك المسافات لولا إيماني وقناعتي بأننا سنصل إلى ما نريد». أكدت له بثقة.

لمحت في تلك اللحظة مجموعة غريبة المظهر. كانوا أشخاصا يعبرون طرف الحديقة وراء حاجز من أوعية النباتات، تقودهم زوجة الحاكم بنفسها. علمت من بشرتهم السوداء ومن تناقض هيئتهم مع كل من حولهم في الحفل أنهم من السكان الأصليين، إذ كنت قد سمعت أن عددا قليلا من هذا العرق لا يزال على قيد الحياة.

«أجل، لو حدث ما تقول فسيكثر عدد زوارنا، بل ستتحول جزيرتنا إلى قبلة للحجاج. هذا سيساعد في ازدهار تجارتنا». قال التاجر.

عندها فقط عبرت في ذهني فكرة مدهشة. لماذا لا نستخدم أحد هؤلاء الأصليين كدليل لنا في الرحلة؟! تذكرت ما قرأت عن مشاركة الهنود الحمر في أمريكا، كأدلاء في استكشاف تلك القارة الشاسعة. كيف لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل! صحيح أن المجموعة التي رأيتها من الأصليين كانت كلها من النساء المتقدمات في السن، لكنني لمحت رجلا واحدا ذا بنية قوية.

استأذنت من الرجلين وبدأت أشق طريقي بين حشد المدعوين، ولحظتها أزعجني أن أرى بوتر الذي كان مستغرقا في الحديث مع مجموعة من الأطباء يفعل الشيء ذاته.

بيفاي، ديسمبر 1857

وصلت عربتان إلى إويستر لنقلنا وعبرتا بكوخي في الطريق. جلس مدير المستوطنة بعينيه الخبيثتين إلى جانب حوذي من البيض، وما إن وصلت العربتان حتى أدركت أن رحلة شاقة تنتظرني إذ كانتا ضيقتين وبصعوبة حشرت نفسي بين الآخرين. استقبلتنا لدى وصولنا زوجة الحاكم بكثير من الابتسامات بينما كنت ألتقط أنفاسي بعد رحلتنا الخانقة. «أهلا بكم. أهلا عزيزي إلدريج وأهلا بأصدقائنا السود». اقتربت بعدها لتنظر داخل العربة: «هل أحضرتم لي السهام والتذكارات التي طلبتها؟».

أخبرتني باجرلي أن إلدريج طلب إحضار ذلك لزوجته فأجبتها: «لم نعد نصنع هذه الأشياء».

تحولت ابتسامتها إلى عبوس كأنني قلت لها شيئا كريها. «هذا مؤسف». ثم جعلتنا ننتظر وقتا طويلا في الخارج وأرسلت خدمها للبحث عن أحد ما يدعى جابلونغ، قالت إنه مفاجأة سارة لنا. لم أحضر حفلا للبيض من قبل، ووجدت الأمر مثيرا بعض الشيء. كانت من أجل ولادة المسيح، ويسمون المناسبة عيد الميلاد. مغنون احمرَّت وجوههم تحت الشمس وزينة وشجرة غُطيت بأشياء براقة كثيرة كأنها ارتدت ثيابا. الحضور كثر، كلهم بيض

يتكلمون بصوت مرتفع وتفوح منهم رائحة العرق تحت أكداس من القمصان والسترات والأزياء الضخمة، وعندما رأونا كانت نظراتهم كالعادة مشبعة بالكراهية رغم أن البعض ضحكوا بينما اكتفى آخرون بالتفرج. كم تمنيت لحظتها لو أني لم أسمع لباجرلي ولم أحضر. عبث، لن أستفيد سوى المزيد من مشاعر الكراهية كما تقول أمي التي كانت في العربة ولم تكلف نفسها حتى النظر إلي واكتفت بالتفرج من خلال النافذة.

لكن فات الأوان ولا فائدة من الندم. رافقتنا زوجة الحاكم مع إلدريج إلى مكان وراء ستار من النباتات، ترتيب وجدته مريحا لأنه على الأقل يجنبنا نظرات البيض. خصصت لنا مقاعد وطاولة وضع عليها حلوى وفناجين. وقفت زوجة الحاكم تنتظر جلوسنا بفارغ الصبر وكأنها تتحرق للذهاب إلى أي مكان آخر، وأرسلت الخدم مرة أخرى للبحث عن مفاجأتنا جابلونغ. نَظرتُ إلى أمي بعد أن جلسنا، فوجدتها وقد انكبت على طبق الحلوى تلتهم ما فيه بشراهة، فعلمت أن ما أحضرها هو الحلوى فقط، لا رغبتها في إصلاح الأمور بيننا كما طلبت باجرلي. كانت دائما تقول إن تلك الحلوى هي الشيء الجيد الوحيد الذي يفعله البيض. عندها، وبينما كان بعض الخدم بوجوههم الكالحة كمياه عكرة يضعون أباريق الشاي على الطاولة، رأيت رجلا أبيض طويلا ونحيلا برأس صغير وابتسامة عريضة ينسل من بين ستار النباتات ويتقدم نحونا.

«السيد ويلسون». قالت زوجة الحاكم كأنها تريد أن تقول وداعا. «أية مفاجأة!».

نظرت إلى ويلسون هذا الذي علمت أن اسمه الأول فيكار، فذكرني بسميث وروبسون، في أيام الموت على تلك الجزيرة

اللعينة. ذات النظرة المراوغة في عينيه، نظرة تقول إنه يريد منا شيئا ما. عجبت لأمره، فما الذي لدينا نحن! إلا إن كان يسعى وراء سهام وتذكارات مثل زوجة الحاكم. اقترب منا رجل آخر أيضا اسمه بوتر، ضخم الجثة كمقاتل بشعر ولحية حمراء.

«هل لي أن أتعرف على ضيوفكم الظرفاء؟» انبرى إلدريج عندها إلى تقديمنا له بأسمائنا التي أطلقها علينا البيض واحدا واحدا، بينما ويلسون ذاك يبتسم، كأنه يتعرف إلى مجموعة من الأطفال. كم كان ذلك بغيضا.

«لدي سؤال في الحقيقة».

وهنا انضم بوتر: «وأنا أيضا».

ارتسمت على وجه زوجة الحاكم تلك الابتسامة الكريهة وقالت: «أخشى أني أتوقع وصول السيد جابلونغ في أية لحظة».

هكذا، كل البيض يريدوننا الآن، بعد كل تلك السنوات التي كانوا يسعون فيها إلى نسياننا. «هل أتيتم من موطن السكان الأصليين؟» سأل ويلسون ببلاهة كأنه يذيع سرا. ومن أين نأتي غير من وطننا!

«بالتأكيد، نحن أيضا أتينا من وطننا». أجبته فرفع يديه كمن يصفق أو يحاول التقاط ذبابة. متهلل الوجه، راح يبتهل شاكرا ربه كما كان سميث وروبسون يفعلان.

«شكرا لك يا رب على هذه النعمة المباركة. هل لي أن أخبرك يا سيد كرومويل أننا ذاهبون إلى موطنكم الأصلي، هناك في مجاهل الغرب. نحن نأمل بالعثور على جنة عدن هناك».

أي تخاريف هذه! أجل، أعرف البيض، بوسعهم اختلاق أي خرافة إن أرادوا. قرأت شيئا ما عن ذلك في سفر التكوين. ربهم

خلـق في البدايـة السـماء والأرض ثـم.. إلـخ... لكـن مـا شـأننا نحـن بذلـك؟!

فوجئـت أن أمـي وحدهـا مـن اهتـم بمـا قالـه ويلسـون وسـألت: «مـا تكـون عـدن هـذه؟» لم تكـن تعـرف شـيئا عـن العهـد القديـم لأنهـا لم تذهـب إلى مدرسـة روبسـون.

نظـر ويلسـون إليهـا كأنهـا مخلـوق يثـير الضحـك وهـمّ بإجابتهـا، لكنـي قاطعتـه كي لا يجعـل منهـا تسـلية لـه. «عـدن ليسـت إنسـانا. جنـة عـدن مـكان خلقـه إلـه البيـض منـذ زمـن بعيـد جـدا ووضـع فيـه إنسـانين ليعيشـا».

حـول فيـكار نظـره إلي وكأني أصبحـت موضـوع تسـلية جديـدا لـه: «هـذه أغـرب روايـة سـمعتها».

أطلقت أمي ضحكة مدوية.

كان اهتـمام أمـي وفضولهـا لغـزا بالنسـبة لي. أخرجـت مـن جيبهـا غليونـا وكيـس تبـغ كعادتهـا عندمـا تريـد أن تفكـر.

فوجئ ويلسون بغليون أمي لكنه لم يتخل عن ابتسامته.

هنـا رمقتـه أمـي بنظرتهـا المخيفـة تلـك وتوقعـت أن ترتكـب فظاعـة مـا.

«مـاري!» صرخ إلدريـج عليهـا، لكـن بعـد فـوات الأوان. كانـت ردة فعـل ويلسـون غريبـة. حـدق بعينـين مذهولتـين تـكادان تقفـزان مـن وجهـه في البدايـة، لكنـه بعـد لحظـات تحامـل عـلى نفسـه ورفـع وجهـه قليـلا محـاولا الابتسـام، كان مـا قيـل ليـس سـوى كلـمات مجاملـة. إلا أن طرفـات جفنيـه المتسـارعة فضحـت اضطرابـه.

شـحب وجـه زوجـة الحاكـم كأنهـا عـلى وشـك الإغـماء، وكان مظهرهـما مضحـكا.

وهنا حدث ما أذهلني. التفتت أمي نحوي وابتسمت لي عندما سمعتني أضحك. كانت المرة الأولى التي تفعل ذلك، ورغم أن الأمر بدا غير مقصود كأنه حدث بالمصادفة، إلا أنه عنى لي الكثير. ربما كانت ابتسامتها الأولى منذ أن احترقت سهامها في تلك الغابة التي أشعلت فيها النار عندما كانت تخطط لقتل روبسون أثناء زيارة الحاكم الجديد لجزيرتنا قبل سنوات عديدة. أخذتني المفاجأة وابتسمت لها، وشعرت أن جدارا من الكراهية ينهار.

وحده بوتر ذو اللحية الحمراء من البيض لم يكترث لما قالته أمي، كأنه لم يسمع سوى طرفة باهتة. فاجأنا بسؤال وقح: «هل لأحدكم أن يخبرني كم من الوقت تحمل المرأة عندكم الجنين في رحمها؟ وكم من المرات؟».

أذهلتنا صفاقته، لم يجب أحد ونظرنا إليه شزرا. عندها وصل رجل أبيض متجهم الوجه كأن نملا قرصه ويحمل شيئا عجيبا لم أرَ مثله من قبل، يشبه صندوقا وعليه غطاء من الأعلى. وضعه على الأرض فوق قوائم تشبه أرجلا خشبية.

«وأخيرا». قالت كمن يتلقف وجبة طعام بعد أيام من الجوع والانتظار. «السيد جابلونغ أحضر هذه الآلة الخاصة ليلتقط لكم صورا جميلة».

لم أكن متأكدا أن ذلك سيكون جميلا بالنسبة لنا، وسبقتني أمي: «لكنكم لم تخبرونا عن هذا من قبل؟».

«وكيف لي أن أخبركم من قبل وأنا لم ألتق بكم حتى اليوم؟».

إنها خديعة. وبلمح البصر أدركت ما علي فعله، كمن عثر على طريقه. نهضت من مكاني وتوجهت نحو أمي وجلست إلى جانبها. «لماذا تريدون التقاط الصور لنا؟».

ابتسمت زوجة الحاكم ابتسامتها البغيضة. «أعتقد أنكم ستحبونها. انتظر فقط وسترى كم ستكون الصور رائعة».

ضربت أمي بغليونها على الطاولة بقوة. «لا، أنا لن أفعل».

«وأنا أيضا لن أفعل». قلت منضما إلى أمي.

نظرنا بعدها إلى باجرلي ورفاقنا الآخرين كي نحثهم على الرفض أيضا مما جعل زوجة الحاكم تغضب فسارع إلدريج إلى مساندتها محاولا إقناعنا. نجحوا في النهاية بإقناع ثلاثة منا وأجلسوهم على كراسٍ. أغضبني ذلك، لكن على الأقل رفضت الأغلبية منا. جعلهم جابلونغ ذاك الذي تكلم بصوت مزعج كأنه يخرج من أنفه يجلسون أمام تمثال أبيض لطفل يقفز نحو سيف للإمساك به.

«لكني لم أنته من الحديث معك يا كرومويل». قال ويلسون الذي كانت علائم الغضب من كلمات أمي السحرية واضحة عليه، لكن مع بعض التفاؤل والترقب كأنه كلب يتوق للانقضاض على قطعة لحم في وسط النار. «في الحقيقة أنا آمل أن ترافقنا في رحلة الاستكشاف التي نقوم بها كدليل». هذا ما يريد إذن، كي لا يضلوا الطريق ككل الرجال البيض وتأكلهم الأفاعي السود.

نظر إليه ذو اللحية الحمراء وقال بصوت كله غيظ: «أمتاكد أن هذه فكرة ملائمة يا فيكار؟».

تجاهله ويلسون: «حسنا يا كرومويل؟».

«ولماذا علي أن أفعل؟ لا، يجب ألا يذهبوا إلى وطننا، عالمنا نحن لا عالمهم هم. كم أكره أن يطؤوا تلك الأرض بأحذيتهم الكبيرة وعيونهم الجشعة، هناك حيث أمكنتنا بأسمائها وحكاياتها السرية».

«لا، لن أفعل ذلك».

عندها ابتسمت أمي لي للمرة الثانية، كانت ابتسامة أكثر مما حلمت به في يوم واحد.

ذُهل ويلسون كأنه سمع شيئا لا يستطيع أن يفهمه. «سندفع لك المال وستحصل على الطعام، الكثير منه وسيكون لك مكان مريح للنوم أيضا».

«لا، لن أذهب».

«أرجوك خذ وقتك وفكر جيدا. هل لك أن تخبرني من فضلك؟ هل تذكر أنك رأيت صخورا أو جبلا مختلفا عن غيره؟ قد يكون شاحبا أو لامعا».

لن أقدم له أي مساعدة حتى لو كانت في متناول يدي. «لا، لم أرَ شيئا كهذا».

«تذكر جيدا، حاول يا كرومويل».

عندها انتبهنا إلى جابلونغ يوجه صندوقه نحو رفاقنا الثلاثة وقد جلسوا على كراسيهم وفي يد كل منهم غليون كما طلبت زوجة الحاكم كأن هذا أمر يبهجها. أدخل جابلونغ رأسه تحت الغطاء وصاح: «جاهزون؟» ولحظتها لفت نظري أن أمي تقف إلى جانبه تنظر باهتمام. دُهشت لأنها قالت قبل لحظات إنها تكره ذلك الرجل وآلته.

«والآن ابتسموا». قال جابلونغ من تحت الغطاء.

وفجأة اقتربت أمي ومدت يدها نحو الصندوق فتوقعت أنها ستقوم بارتكاب فعل متهور يسبب لها المتاعب. لكن ما حدث كان رهيبا وأكثر فظاعة مما تخيلت.

السيدة جيرالد دنتون - زوجة حاكم تاسمانيا، ديسمبر 1857

كـم كان جيرالـد محقـا. منـذ أن وصـل ذلـك الهجـين كرومويـل، فقـد أشـاع جـوا مـن الحقـد بـين الحضـور، ومـا زاد مـن الأمـر سـوءا، أن رفاقـه وقعـوا تحـت تأثـيره هـو وأمـه. ومـا كادوا يجلسـون لتنـاول الشـاي، حتـى حـرض أمـه عـلى إهانـة رجـل الديـن الطيـب ويلسـون، الـذي لم يـأتِ سـوى ليلقـي التحيـة بـكل احـترام. لم تقـف أحقـاده عنـد هـذا الحـد، فلـدى وصـول المصـور السـيد جابلونـغ -بعـد تأخـير لم يكلـف نفسـه عنـاء الاعتـذار عنـه- بـادر عـلى الفـور إلى حـث بقيـة رفاقـه عـلى الامتنـاع عـن المشـاركة في التقـاط الصـور. كل ذلـك وهـو يصـوب نحـوي نظـرات الشـك والاتهـام، كأننـي أسـعى إلى مصلحـة خاصـة مـن وراء ذلـك، بينـما لم أكـن أريـد في الحقيقـة سـوى أن أبـادر نحـو أولئـك المسـاكين، وأمنحهـم مـا يسـعدهم في أيامهـم الأخـيرة. كنـت أعلـم أنهـم آخـر مـن تبقـى مـن ذلـك العـرق المنكـوب واعتقـدت أن مـن واجبـي تخليـد ذكراهـم ببعـض الصـور، قبـل فـوات الأوان.

نجحـت عـلى الرغـم مـن تصرفـات كرومويـل بإقنـاع ثلاثـة منهـم أن يقبلـوا التصويـر. لا أنكـر أني شـعرت بالخيبـة عندمـا رأيتهـم، فقـد كنـت أتوقـع أن يرتـدوا زيهـم التقليـدي بـكل مـا فيـه مـن سـحر، غـير

أنهم في الواقع جاؤوا في ثياب رثة للغاية. ثياب عادية بالية كالتي يرتديها أي أبيض مُعدم. لكن الغليون الذي في يد كل منهم، أضفى بعض الطرافة على المشهد، فطلبت منهم إمساك الغلايين، وكل واحد في يده على ركبته، من أجل الصورة. كما أني اقترحت على جابلونغ التقاط صورة فردية لكل من النساء، كي يكتمل ملف التوثيق بأفضل ما يمكن.

انصرفت عنهم بعد أن تأكدت من سير الأمور على ما يرام، إلا واجبات الضيافة التي تأخرت عنها بما يكفي، خصوصا أني سمعت أصوات وصيحات من وراء سور النباتات، تعلمني أن دراما يسوع الطفل قد بدأت. وهكذا مشيت بمحاذاة حاجز الشجيرات، إلى أن انعطفت بعدها لأرى كلا من السيد فيلبس المحامي، والسيد كاري مدير الميناء، والكابتن داكر من قوات الحرس، قد اتخذ مكانه على خشبة المسرح بثياب الرعاة البسيطة، بينما كان السيد هندرسون من مصرف هوبارت والذي كان يلعب دور يوسف يرحب بهم. كنت أهمّ بالجلوس في أحد مقاعد الجمهور الخلفية عندما سمعت صوت تحطم شيء ما من خلفي. تبع ذلك على الفور صوت صراخ فعلمت أن ما يجري أكثر من عثرة أو حدث عارض فنهضت وعدت أدراجي.

أي مشهد مؤلم وحزين ذاك الذي رأيت! تلك المرأة ماري ممددة على الأرض وحولها أصدقاؤها يلفهم الحزن والوجوم ويقعي إلى جانبها الدكتور بوتر زميل ويلسون الذي رأى وجهي المتسائل، فأجاب بهزة خفيفة من رأسه. «أظنها سكتة قلبية».

هز السيد إلدريج رأسه بحزن أمام مصاب حزين لا بد أنه تكرر أمامه مرارا خلال السنوات الماضية. وشعرت أنا نفسي

بموجة من الأسى تغمرني. كم هي قريبة يد القدر، تماما معنا في كل لحظة ونحن ننجرف في وهم سعادتنا وننسى الموت الوشيك في روتين حياتنا اليومية. منذ لحظة فقط كانت هذه المرأة تقف بيننا والحياة تنبض في عروقها، وها هي تُخطَفُ من بيننا. كاد قلبي ينفطر حزنا على أولئك السود المفجوعين، وحتى على كرومويل، الذي جثى بجانب أمه وانخرط في نحيب مرير، وهو يهزها متضرعا كأنما بوسعه إعادتها إلى الحياة.

وفي تلك اللحظة القاسية فوجئنا بمن لا يبالي بأحزان غيره. ولا بتلك المسكينة التي خطفها الموت.

«لقد تحطمت. هي من فعل ذلك». صاح جابلونغ وهو يشير إلى آلته الملقاة قرب ماري.

لم أتحمل صفاقته. «كيف تجرؤ على قول هذا؟».

«رأيتها من خلال العدسة تقترب لتدفعها. أسقطتها ثم تهاوت».

«كلامك غاية في السخف ويجافي الحقيقة». قلت له مؤنبة بحدة لكن من دون جدوى، تابع تفحص حطام آلته دون اكتراث. كان السود قد انخرطوا في نحيب مؤثر، لكن ما لفتني أن تعبيرهم عن الحزن لم يكن صاخبا كعادة شعوب البحر الأبيض المتوسط، بل تجمعوا على أنفسهم وطغى على وجوههم أسى عميق وخاص. ومع ذلك لاحظت أن المشهد جذب أنظار بقية الحضور، وأن الممثلين في المسرحية صمتوا ووقفوا واجمين. تجمع البعض عند حاجز الشجيرات يراقبون ما يجري وسرني أن جيرالد بينهم. هز رأسه بحزن عندما أخبرته ما الذي جرى.

«أحضروا العربات أرجوكم». صاح كروموبل وقد عادت لهجته العدائية. «يجب أن نعود. سنأخذها معنا».

نهض الطبيب زميل السيد ويلسون الذي كان قد غطى وجه ماري بشالها. «من الأفضل نقلها إلى المشفى».

هز جيرالد برأسه موافقا. «أجل، يجب نقلها».

رد كروmويل مصرا على العدوانية. «إنها لنا. اتركوها لنا».

«لا تقلق، ستعود إليكم سريعا». قال السيد إلدريج وهو ينظر إلى جيرالد مطمئنا، ورغم ما يحيط بالرجل من سمعة سيئة فقد وجدت فيه شخصا متعاونا.

تجاهلت كروmويل وحاولت إقناع بقية السود بالبقاء لعلي أقدم ما أستطيع لهم من مواساة، إلا أنهم كانوا متلهفين لمغادرة المكان. استدعيت العربتين على مضض، وخلال لحظات غادروا مسرعين. نظرت إلى طاولتهم، فناجينهم مليئة وأطباق الحلوى على حالها فغمرتني الكآبة والحزن.

لم يمنع مشهد الموت والفقدان الحفلة من الاستمرار. استؤنفت المسرحية مع تصفيق حار من الحضور، وبشجاعة تابع ضيوفنا أحاديثهم. وأنا فعلت ذلك أيضا بإحساس داخلي قوي بأن روح ماري المسكينة لا تريد سوى ذلك. وهكذا عدت بكل جوارحي إلى متابعة واجبات ضيافتي، ورغم كل الأسى، أستطيع القول إن الحفلة كانت ناجحة إلى حد أني نسيت في غمرة التفاصيل ما تم من إجراءات بخصوص الفقيدة.

«وضعناها في غرفة المخزن». أخبرتني مدبرة المنزل السيدة موري. «نقلناها عبر الحديقة كي لا يراها أحد».

«حسنا فعلتم، فالمخزن واسع وبارد. هل أعلمتم المشفى؟»

«نتوقع وصول عربتهم هذه الليلة».

وخطر لي لحظتها فكرة. «هل لا يزال السيد جابلونغ هنا؟»

قالت السيدة موري إنها رأته قرب طاولة السود. ووجدته هناك لا يزال يعبث بآلته. وبصرف النظر عن سلوكه المشين، لم أستطع إلا أن أتفهم غضب الرجل، بسبب فقدان آلته. «هل ما زالت تعمل؟»

أومأ لي متشككا فرافقته إلى غرفة المخزن. لو رأت ماري المسكينة التي منعها خجلها من الوقوف أمام الكاميرا صور أصدقائها البديعة لما ترددت، ولتمنت أن تكون بينهم. شعرت أن أقل ما أفعله تجاه تلك السيدة المسكينة أن ألتقط لها صورة وأخلد ذكراها. أن أسجل تلك اللحظة الحزينة التي تغادر فيها العالم.

«سأحاول، لكني لا أضمن النتيجة». قال السيد جابلونغ.

كانت إحدى أرجل الآلة قد كُسرت، لكنه استطاع تثبيتها في الوضعية المطلوبة بواسطة سلة بطاطا. استغرق في طقوس عمله وفتح الصندوق ليجهز ألواحا زجاجية وشاشات سوداء، ثم دس رأسه من جديد تحت ذلك الغطاء. أثناء ذلك استدعيت اثنين من عمال الحديقة وطلبت منهما تثبيت ماري في وضعية الجلوس بإسنادها على صندوق تفاح بطريقة لا تكشفها الصورة. لكن ذلك كان متعذرا كما أخبرني البستاني. «لا يمكن تحريكها. جثتها متصلبة».

أطلق جابلونغ لحظتها وهو يخرج رأسه من تحت غطائه العجيب لعنات وشتائم. «إنها معطوبة تماما. لا جدوى منها».

كم كان ذلك مخيبا لي. شعرت وكأني أخذل ماري المسكينة.

السيدة إيميلي سيتون، ديسمبر 1857

فوجئت عندما سمعت وقع خطوات نيكولاس في الممر، فمن المفترض أنه لن يعود من المشفى قبل المساء.

«لا أستطيع البقاء أكثر من دقائق يا إيميلي. أريد منك معروفا. هل تذكرين الطبيب الذي التقينا به في حفلة الحاكم؟ بوتر الذي تعرفت عليه عندما كنت طالبا». قال لي وهو يبتسم كعادته كلما تذكر أيام دراسته في لندن. «زارني اليوم في المشفى وقال إنه يرغب كثيرا في أن نلتقي مرة ثانية. والحقيقة، لم أستطع سوى أن أدعوه للعشاء معنا، لأني أعلم أنه سيرحل قريبا». قال وقد بدا عليه الارتباك. «أعلم أن ذلك قد يحرجك ولا يترك لك وقتا لتجهيز المائدة».

لم أشأ أن أخذله. «لا تقلق، سأتدبر الأمر».

لم تخفف كلماتي من تردده. «أريدك أن تشرفي على الطاهية لأني أريد أن أترك لدى بوتر انطباعا جيدا، فهو الآن شخصية مهمة».

زيارة الرجل أتت في ظرف حرج؛ عيد الميلاد على الأبواب ومصاريف البيت بالكاد تسد الحاجة. لكني لا أريد أن نترك لدى الضيف انطباعا بأننا فقراء. «سأفعل ما بوسعي، ليس الأمر سهلا كما تعلم».

انفرجت أسارير نيكولاس لما قلت، كعادته شفاف وعفوي دائما في التعبير عن تقلبات مزاجه. «سأطلب من دوبس تنظيف العربة. أريد أن أحضره بنفسي إلى هنا، وربما نقوم بجولة في المدينة ليطلع على معالمها وأهم الأمكنة المميزة فيها. أريد أن يتفاجأ بأن حياتنا غنية أكثر مما يظن».

أقبلت بسعادة على تحضير كل شيء، وفي المقدمة تجهيز الأطفال لاستقبال الضيف بمظهر لائق مع كل ما يحمله هذا من عناء الشكوى والتذمر من تمشيط الشعر أو حتى البكاء. تذمروا لتأخر نيكولاس وتململوا ضجرا في الوقت الذي كان علي أن أراقب الطاهية التي أعرف أنها ستفسد كل شيء بعجلتها لو غابت عيناي عنها.

قام فرانسيس الصغير بتلويث ثيابه بصلصة التفاح، ولحسن الحظ تمكنت من تنظيفها بسرعة؛ وكاد توبي، أن يسبب كارثة، عندما دفع لويز التي ارتطمت بالطاهية وهي تخرج السمك المشوي من الفرن. حدث كل ذلك وأنا أسمع وقع عجلات العربة تقترب من مدخل البيت. لم يكن هناك وقت للتأنيب لأني ركضت مع الأولاد إلى غرفة الاستقبال جاهدة لكي أجعلهم يقفون بهدوء فيما يشبه الصف بينما كانت الطاهية تلقي بمئزرها الملطخ بالسمك وتسوي ثيابها لتهرع إلى الباب.

دخل نيكولاس مع ضيفه والابتسامة تملأ وجهه، لكنني في الحقيقة شعرت بشيء من الفتور تجاه الرجل. فمنذ لقائنا الأول في حفلة الحاكم لمست فيه نزعة غريبة من التعجرف بدت لي في بيتنا أكثر وضوحا وجعلتني أميز التصنع في طريقة حديثه ومجاملته. تكلم بتكلف ومبالغة ووزع المديح والثناء علينا، الأولاد أولا ثم أنا وغرفة الاستقبال والأثاث، ولم يوفر شيئا على المائدة

من أصناف الطعام إلا وأسرف في الإطراء على مذاقه، حتى تلك التي فشلت الطاهية في إعدادها كما يجب. لكن عدم ارتياحي لم يمنعني من الإحساس بالرضى لأن نيكولاس كان بالفعل سعيدا.

تحول الحديث بعد ذلك إلى أيام الدراسة عن أماكن وأسماء كثيرة تكررت ولم تكن تعنيني بشكل شخصي، ولاحظت رغم وجود معارف وأصدقاء مشتركين بينهما أنهما لا يعرفان بعضهما عن قرب كما تخيلت. لم يغير ذلك من حرارة الحديث والمتعة في استرجاع الذكريات على أية حال، وكانت أمسية ناجحة بكل المعايير. هكذا مضى الوقت حتى غيّر بوتر الحديث فجأة.

«هل تذكر العجوز إدوار؟».

انخرط نيكولاس في قهقهة ثم تحول صوته إلى ما يشبه حشرجة تحاول تقليد من يتحدثان عنه فيما يبدو.

أطلق بوتر قهقهة عالية جعلتني أشعر بالنفور من نفاقه. «رأيته قبل أن أغادر لندن. أذكر أنه ذكر اسمك ونوه بإمكانياتك».

برقت عينا نيكولاس.

«لا بد أنه فوجئ برحيلك عنا ومغادرتك لندن».

لماذا لم يصمت؟ لماذا تطرق إلى هذا الموضوع؟ كان نيكولاس سعيدا يستمتع بوقته إلى أن نطق بوتر وفتح أوراقا قديمة فخيم الوجوم. أعلم كم يزعج نيكولاس الحديث عن الأيام التي تلت دراسته في لندن وكم تحمل ذكريات مؤلمة. لو كان من عائلة غنية، بوسعه الاعتماد على مواردها، لما كان الحصول على عمل مشكلة كبيرة ولكان قد امتلك عيادته الخاصة به. إلا أنه وبسبب ضيق الحال اضطر للعمل خارج البلاد، ليتمكن من الحصول على فرصة عمل في اختصاصه. صحيح أن الأمور فيما بعد سارت بشكل

لا بأس به، ولكن ظلت التجربة جرحا في ذاكرته. رمقت الضيف بنظرة باردة فتجاهلها وتابع حديثه.

«كان من الحكمة أن ترحل على أي حال. أتعلم لماذا؟ لو أنك لم تغادر لندن لما التقيت بإيميلي الرائعة. لكن لو عدت الآن فلن يستغنوا عنك بسهولة».

نظر إليه نيكولاس متفكرا. «أتعتقد ذلك؟»

«أجل، أنا أعني ما أقول. نحن تخرجنا في أكثر الأوقات صعوبة. لكنك لو عدت إلى لندن فسأساعدك بنفسي». ثم التفت نحوي: «ما رأيك يا سيدة سيتون بأن تكوني زوجة طبيب في لندن؟».

بدأت أشعر بالضيق من نبرة صوته. «أنا في الحقيقة سعيدة وراضية كما أنا يا سيد بوتر. هنا بيتي وحياتي».

«تماما، تماما». قال وهو يصفق بيديه ضاحكا. تغيرت لهجته بعد أن صدع رؤوسنا بحديثه عن لندن وكيف تغيرت، بل كيف تطورت بعد رحيل نيكولاس. تكلم عن المسارح الجديدة والأسواق ودور الأزياء ومحطات القطارات والحدائق التي يتمشى فيها نخبة المجتمع. وتكلم عن علاقاته مع الطبقة الراقية من أطباء وأعضاء برلمان، وحتى مع مقربين من العائلة المالكة. كان نيكولاس يصغي مأخوذا. لم أرغب وما فكرت يوما بالذهاب إلى لندن، وها هو بوتر يأكل من طعامنا ويسبب لي الضيق بثرثرته التي خفت أن تخلق موضوعا للخلاف مع نيكولاس وأن ترفع جدارا بيننا بعد أن كنا على وئام تام.

لم أكد أصدق حين انتهينا من تناول الحلوى ورفعت الطاهية الأطباق عن الطاولة فنهض الضيف ليغادر. «أنا في غاية الامتنان لك يا سيدة سيتون على هذه الأمسية الرائعة».

«سأرافقك في العربة». قال نيكولاس.

«لكن عليك أن تصحو باكرا في الغد». قلت محاولة منعه من قضاء مزيد من الوقت مع بوتر. «سأستدعي دوبس».

«دوبس يغط في نوم عميق الآن. وسنجد فرصة لمتابعة حديثنا في الطريق».

سر الدكتور بوتر للعرض. «هل أنت متأكد. هذا لطف كبير منك».

لم ألح أكثر وذهبت إلى سريري بعد انصرافهما. كنت أعلم أن المسافة إلى مقر إقامة الدكتور بوتر لا تتجاوز ربع ساعة، لذا حاولت النوم لكن أفكارا وصورا لكوارث وسفن تغرقها العواصف أقضت مضجعي فرحت أتقلب إلى أن انتبهت إلى مرور الوقت. مرت ساعة كاملة ولم يعد نيكولاس. استبد القلق بي وراودتني أفكار شتى. ماذا لو كان الحصان الجفول قد حرن وقلب العربة وترك نيكولاس المسكين وحيدا في زقاق ما مظلم. ازدادت مخاوفي مع مرور الوقت. لا أثق ببوتر هذا. ماذا لو استدرج نيكولاس لارتكاب حماقة ما أو فعل طائش كما في أيام الدراسة؟ منطقة المرفأ تعج ببؤر ذات سمعة رديئة وترتكب فيها شتى الموبقات من أعمال العنف إلى السكر. وهناك ما هو أدهى. رأيت بنفسي كيف تنتظر المومسات بثيابهن الفاضحة في الأزقة الضيقة ليوقعن بالرجال ذوي السمعة الطيبة. فكرت أن نيكولاس لا يمكن أن ينحدر إلى مستوى ينظر فيه إلى العاهرات، لكن مخاوفي لم تهدأ فقد رأيت كيف يقع تحت تأثير بوتر.

لم أهدأ حتى سمعت صوت خطوات تقترب من باب البيت فتنفست الصعداء وأنا أنتظر صوت مفاتيح نيكولاس وخطواته في الممر.

لكني انتفضت ذعرا عندما سمعت بدلا من ذلك صوت قرع عنيف على الباب. هرعت إلى الباب فوجدت رجلا فجا يقف نافد الصبر.

«سيدة سيتون؟ لدي رسالة لك».

استطعت تمييز خط نيكولاس، لكن ما أثار حفيظتي ركاكته إلى حد صعّب علي قراءة الكلمات. ما فهمته أن أحد النزلاء في مقر الدكتور بوتر أصيب بمرض مفاجئ ووضعه يتطلب علاجا فوريا. لكن ذلك سيستغرق وقتا قد يطول. عدت إلى سريري وتضاعف قلقي وهواجسي. لماذا يتطلب علاج ذلك المريض الذي لم يكلف نفسه عناء ذكر اسمه وقتا طويلا؟ وأي مرض هذا الذي لا يكفيه طبيب واحد؟ ندمت لأني لم أستبق المراسل لأستوضح منه أكثر. وهكذا مضت الساعات وأنا أتقلب في سريري إلى أن بزغ الفجر وأنا مستيقظة. عندها فقط سمعت الصوت المألوف لعجلات العربة تقترب من البيت.

راعني وجه نيكولاس الشاحب عندما دخل. «آسف جدا يا إيميلي. لم أكن أعرف أن الأمر سيستغرق كل هذا الوقت».

أعرفه جيدا، كل حركة وكل نفس فيه وكل طيف في مزاجه. نظرت إليه فسرت في جسدي قشعريرة رهيبة. رأيته، رأيته في عينيه، في لحظة واحدة رأيت كل شيء كأنه صرخ به في وجهي. أجل رأيت الكذب واضحا في عينيه. في تلك اللحظة المخيفة شعرت بالعالم كله يتهاوى دون أن أدري كيف ولماذا حدث كل ذلك. ما أدهشني هو صوتي عندما تكلمت. لا أدري كيف استطعت تمالك نفسي والتكلم بطريقة طبيعية.

«من الذي أصيب بالمرض؟»

«إحدى النساء في نزل بوتر».

«وما الذي أصابها؟»

«التهاب».

«ولماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت؟».

ارتبـك عندمـا شـعر بشـكوكي. «كان علينـا إجـراء عمليـة جراحيـة صغـيرة».

«عمليـة مـاذا بالضبـط؟» لاحقتـه بالتفاصيـل دون أن أخـشى ما سـيلحق بي مـن وراء ذلـك.

«وفيـم يهمـك الأمـر؟» بـدأ الغضـب يسـيطر عـلى صوتـه. «المعـذرة يـا إيميـلي، أنـا متعـب. سـأذهب لأسـتحم».

غـادر الغرفـة فارتديـت مناميتـي عـلى عجـل وتبعتـه إلى الحـمام. كان قد أوصـد البـاب وسـمعت صـوت رشـق المـاء مـن الداخـل. لا بـد أن الطاهيـة سـتتنصت بعـد ليلـة غريبـة كهـذه، لكنـي لم أكـترث وخاطبتـه بصـوت خافـت: «أخـبرني أيـن كنـت؟».

«لقد أخبرتك».

«أنت تكذب».

«ما بك؟».

لـن أدعـه يتملـص مـن أسـئلتي. لم يكـن بـاب الحـمام يُقفـل بشـكل جيـد، وبرفعـة صغـيرة دفعتـه فانفتـح. كان قـد خلـع قميصـه ووقـف أمـام وعـاء الاسـتحمام، وعندمـا رآني هـم بإلقائـه في المـاء لكنـي خطفتـه مـن يـده بسرعـة رغـم مقاومتـه.

«ماذا تفعلين يا إيميلي؟».

سـأجد عليـه آثـار أحمـر الشـفاه ومسـحوق التجميـل، روائـح العطـور والأجسـاد الرخيصـة، وقبـل كل شيء رائحـة الخيانـة. لكـن لا، لم أجـد شـيئا مـن ذلـك، بـل لطـخ بنية صغـيرة لآثـار دم متخـثر ورائحـة الجراحـة النفاذة.

الكولونيال تايمز، ديسمبر 1857

حادثة فظيعة في مشفى هوبارت - سرقة جثة امرأة من السكان الأصليين

فعل شنيع وشائن وقع صباح يوم الثلاثاء حين تمكن ثلاثة رجال من سرقة جثمان المرأة وتهريبه خارج بناء المشفى. ثارت الشبهات حول الواقعة عندما رأى أحد العابرين -وهو السيد توماس بيرش- رجلين ينقلان ما يشبه جسدا آدميا إلى عربة قرب المشفى. وعندما حاول إيقافهم للسؤال عما يجري قفز الرجلان إلى العربة، بينما قادها رجل آخر كان ينتظر بسرعة.

بلّغ السيد بيرش مخفر الشرطة في هوبارت، وخلال وقت قصير كان أحد الضباط مع عناصره يفحصون المكان. وعند معاينة النوافذ الأرضية في بناء المشفى عُثر على نافذة مكسورة وقد تلطخت حوافها بالدماء. ولدى فحص الغرفة اكتشفت الشرطة واحدة من أبشع الجرائم، بقايا جلد ولحم بشري ملقاة على الأرض. أوضح مدير المشفى أن تلك الغرفة تستعمل لتخزين الجثث وأن البقايا تعود بالتأكيد لسيدة من السكان الأصليين تدعى ماري. كشفت التحقيقات الأولية أن الفاعلين لم يتمكنوا من فتح النافذة سوى جزئيا لذلك عمدوا إلى تقطيع الجثة ليتمكنوا من نقلها. أما بالنسبة

لدوافع هذه الجريمة فإن التقديرات تتجه إلى أنها بهدف جمع عينات من الهياكل العظمية للسكان الأصليين. فبعد أن قارب هذا العرق على الانقراض تماما، تحولت عظامهم إلى هدف تسعى إليه كل المتاحف ومواد يقتفي أثرها العلماء.

أعربت السيدة جيرالد دينتون، زوجة الحاكم، التي أعلنت نفسها أيضا صديقة كبيرة للسود البائسين، عن حزنها وغضبها من الجريمة. احتفت جيرالد عندما توفيت السيدة ماري بجميع السكان الأصليين الباقين على قيد الحياة في مقر الحكومة، فيما أصر زوجها على أنه سيتم اكتشاف الفاعلين ومعاقبتهم. لم يكن موقع جثة المرأة معروفا على نطاق واسع، وكانت هناك تكهنات بأن أعضاء طاقم المستشفى ربما تورطوا في الأمر، وبينما أصر الدكتور جيفورد على أن هذا الأمر بعيد الاحتمال، فقد أكد أن أي طبيب يتبين أنه متورط سيتم التعامل معه بقسوة كبيرة. وعد القائم بالأعمال ماك برايد، من شرطة هوبارت، بإجراء تحقيق كامل. أما السيد بيرش، شاهد الإثبات، فعلى الرغم من أنه رأى اللصوص لفترة وجيزة فقط، فقد وصف السائق بأنه قصير القامة، ولكنه قوي البنية، مبينا أن أحد أولئك الذين يحملون الجثة كان طويلا وملتحيا. أما اللص الثالث، فإنه لم يتمكن من ملاحظة ملامحه بوضوح.

الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
19 ديسمبر

كان جبانا لا فائدة منه. ارتبك في اللحظة الحرجة. صفعته على وجهه لينتبه.

قلقت وانتابني الشك. لكن هوبر أنقذني بتصرفه السريع في العربة. خطر أن يكشف أمرنا، العمل، المستقبل.

أسرع بالعربة خارج المرفأ. حظ جيد؛ الشوارع فارغة.

نحو منطقة هادئة على الشاطئ.

حضّرنا ماء مغليا ورمينا البقايا في البحر. الأحمق لم يفعل شيئا. أرسلت هوبر إلى زوجته حتى لا تقلق وترتكب حماقة. لم أتوقع أن يستغرق العمل وقتا طويلا.

عندما عاد هوبر ساعدني. أثبت أنه مساعد ممتاز + يمكن أن يصبح جراحا بالخبرة.

انتهينا في الفجر. شعرت بالسعادة لأن العينات ممتازة + أفضل من فليندرز. اكتشفت خصائص جديدة = هشاشة + نقص ألياف.

وجدت أيضا قلادة جلدية حول العنق فيها عظام حيوانات. عينة من فصيلة الهمج ممتازة = الجهود رغم الأخطار.

أحضرت معي صناديق تخزين. وضعت أولا القطع الكبيرة

ولففتها بالقماش ثم جمعتها كلها في بطانية كي لا تنكسر. وضعت كل شيء في أكياس قطنية + كتبت عليها النوع والجنس والفصيلة.

حذرت الأحمق قبل أن أرسله إلى البيت = ألا يخبر أحدا على الإطلاق حتى زوجته البلهاء. سيسبب ذلك متاعب.

عدت إلى الميناء في السابعة. لم ينتبه البحارة. كلهم مشغولون. في النزل استحممت واستلقيت لأستريح.

_20_ ديسمبر

الطقس في الصباح دافئ ولطيف. اشتريت جريدة كولونيال تايمز. أقلقني وجود مقالة عن حادثة فظيعة ارتكبها مجرمون... إلخ.. إلخ... مثير للاستفزاز. لو أحضر أحد عينات إلى إنجلترا فلن يهتم أحد بمصدرها وقصتها. هنا الأمر ينذر بعواقب وخيمة. حظي جيد أن وصف الشاهد لا يشبهني.

بيفاي، ديسمبر 1857

أتى السيد فوربز على حصانه في الصباح، كما اعتاد أن يفعل بين حين وآخر. سألني إن كنت أريد العمل في تقطيع الحيتان مقابل بعض المال. أجبته أني لا أستطيع لأن أمي ماتت. نظر إلي عندها من فوق صهوة حصانه نظرة ملؤها الحزن وقال شيئا أدهشني: «لم أكن أعلم أنها أمك. أنا آسف لما حصل وآمل أن يقبضوا عليهم أيا كانوا».

حيرني كلامه فسألته: «يقبضون على من؟».

أحرجه سؤالي وحاول التهرب، لكني ألححت عليه ولاحقته بأسئلتي حتى قال كل شيء عن غرفة المشفى والنافذة المكسورة والجلد والدماء العالقة على الزجاج وعن اللصوص الثلاثة والعربة والشاهد. وأي اكتشاف كان! تغير العالم كله دفعة واحدة لحظتها. كل ما جرى، القتل والمطاردة وحرق الأطفال بالنيران، الانتظار في جزيرة الموت والرمال تلفح عيوني وكل الخداع والكذب ليس شيئا. كل ذلك ليس بفظاعة ما حدث لأمي. القتل أفضل لأنه فعل كراهية فحسب. أما التقطيع والتشويه فلا يمكن لشيء أن يكون أكثر هولا. كنت أتخيل أني رأيت الحضيض الذي يمكن للرجل الأبيض أن يصل إليه، لكن لا، يبدو أنه ما من قاع لذلك الحضيض.

ذهب فوربز خجلا مضطربا ربما لأنه اعتقد أني سأكرهه بعد ما اكتشفت حقيقة الجريمة لأنه أبيض مثل أولئك القتلة. أجل، كرهته بعض الشيء ووجدت نفسي وحيدا دمي يفور غضبا ولا أدري ماذا أفعل. سرت نحو شاطئ أويستر علّي أجد باجرلي والآخرين وأتحدث معهم. لكني شعرت بالعار. إنها خطيئتي أنا. كان يجب أن أمنعهم من أن يأخذوها منا. وهكذا عدت إلى كوخي تحت وطأة خجلي من مواجهة نظراتهم. جلست هناك في الخارج أراقب الشمس والنهر في البعيد حتى حل الظلام والبرد فدخلت إلى الكوخ، وما حدث لأمي لا يفارق ذهني. وفي سكون الليل، كان كل شيء صامتا عدا الزواحف، وعاد إلي كل شيء من جديد. لم تفارقني صور الفظائع التي ارتكبت بحق أمي.

في ذلك الظلام تداعت أول الأفكار في ذهني. رأيت كيف ينظر البيض إلينا. فكرة بدأت صغيرة لكنها كبرت واتسعت كما تصنع الريح فجوة صغيرة في جدار الكوخ ثم تتسع وتكبر حتى يسقط السقف كله. وهكذا اكتشفت وأنا أستلقي في الظلام أني كنت مغفلا عندما اعتقدت أن علي أن أتعلم لغة البيض وطرائقهم كي أقاتلهم بها. كان أحرى بي أن أرمي بسهامي وأردي من استطعت منهم قتلى. أجل، كانت أمي على حق.

بعد تداعي الأفكار ذاك، نهضت وقررت ماذا سأفعل. أشعلت شمعة لأرى، ثم تناولت أبريق الشاي، وقذفت به إلى الجدار فتهشم إلى قطع صغيرة. بعد ذلك حطمت الكراسي والطاولة ونزعت قوائمها ورحت أضرب بها الرفوف بكل ما أوتيت من قوة حتى سقطت بما عليها محدثة ضجة كبيرة. جمعت حطام الكراسي والطاولة وكومت فوقها الكتب والقبعة العالية إلى جانب الستائر

وتناولت الشمعة وأضرمت النار في كل شيء. تصاعدت ألسنة اللهب جميلة ومبهرة واحترق الكوخ بما فيه.

ومع شروق شمس الصباح كانت النار قد أتت على الكوخ وما فيه فجلست أشم رائحة الرماد وأتأمل الدخان المتصاعد. ماذا أفعل الآن؟ رغبت في إحراق كل شيء حولي لكن المطر الذي هطل في الليل جعل كل شيء رطبا وما كانت النار لتشتعل. لم أجد بعدها ما أفكر فيه سوى قتل البيض، أي عدد منهم. ورغم أن الفكرة لم تكن واقعية رحت أمشي باتجاه هوبارت.

كانت الشوارع مغبرة تحت حرارة الشمس كما أذكر، فرحت أتجول في أنحاء المدينة وسط نظرات البيض، المئات والآلاف منهم يرمقونني باستغراب كأنني لست من هذا العالم. فكرت لحظتها متى أصبح العالم ملك أولئك البيض. أجل، أصبح عالمهم هم عندما مرضت أمي وعندما أحرقت تلك الشجرة فعثر روبسون على مكاننا. نعم، كان علي أن أقتله مع كل من معه. كان ذلك أسهل، لكن الأوان فات الآن. أجل، فات الأوان لأني مهما قتلت منهم فلن يحدث ذلك أي فارق لأنهم كثر الآن.

وهكذا وجدت نفسي يومها أرغب بشرب الروم. لم أكن فعلت ذلك من قبل لأني كنت أعلم أن شرب الكحول سيجلب نهايتي وسيقضي على قدرتي على المقاومة. رأيت كيف كان يشرب البعض من قبيلتنا وكيف تخور قواهم وتذهل عقولهم ويستسلمون لرغبتهم المجنونة بالمزيد من الشراب. لكني لم أكترث لكل ذلك، لأن كل ما رغبت فيه وقتها أن أشرب وأنحدر إلى نهايتي بسرعة. وهكذا ذهبت إلى حانة لأول مرة في حياتي.في الداخل أضاءت أشعة الشمس المتسللة من النوافذ دخان الغلايين العابق في المكان،

فأضفت عليه لمسة ساحرة. الأرضية خشب يطقطق تحت الأقدام والرجال البيض توزعوا على الطاولات بينما اصطفت على الجدران زجاجات المشروب من كل الأنواع والألوان. لم أبالِ بنظرات الاستغراب والذهول كأني مخلوق عجائبي، وعندما اقتربت من الرجل قرب الزجاجات، عرفت من نظرته أنه يريد نقودا. أعطيته بعض ما جنيته من تقطيع الحيتان فناولني كأسا مليئة وثقيلة.

فوجئت بمذاق الروم، إذ كنت أعتقد أنه يشبه عصيرا من شجرة ما، لكن طعمه كان حادا دون أية حلاوة، ويشبه المعدن أو شيئا محترقا. جعلتني الرشفة الأولى أسعل فانطلقت ضحكات الآخرين تسخر مني وصاح رجل بدين: «ثقيل جدا عليك، أليس كذلك؟». تجاهلتهم وقررت أن أشرب وأتعلم مهما كان المذاق، تماما كما تعلمت أبجدية سميث من قبل. ظننت أني بدأت أفهم الروم وتوقعت أن يجعلني سعيدا، لكن بدلا من ذلك سبب لي إحساسا بالفراغ أو اللا شيء، وهذا ما كنت أريده بالضبط، لهذا رحت أشرب كأسا تلو الأخرى. عندها بدأ يتكشف لي أن فهم ذلك الشراب أصعب مما تخيلت. فجأة شعرت بالدوار والغثيان وبقواي تخور فغادرت المكان وسط ضحكات وسخرية البيض، ورحت أمشي وساقاي تنثنيان تحتي إلى أن تقيأت وشعرت بأن كل ذلك اللا شيء الجميل قد تبخر من داخلي.

انهرت بعدها وأسندت ظهري إلى جدار وصدري يفيض ضيقا وغما. هل سأموت هكذا مثل أي جبان يفر من معركة. أي عار! كيف أفعل هذا بعد كل ما ارتكبوه بحق أمي؟ لا، هذا ليس وقت الموت بالنسبة لي. لا وقت لدي سوى لأبحث عن أمي المسكينة وأجدها لتنال ما تستحقه من طقوس الوداع. وهكذا عادت رغبة

المقاومة بعد أن عثرت على هدف. ولكن كيف؟ لن أتمكن من فعل شيء إن لم أحصل على مساعدة من البيض أنفسهم، فهم الذين أخذوها وهم من يستطيع إرشادي إلى السبيل. لم يكن هذا سهلا، فأنا لا أعرف سوى بضعة من الرجال البيض مثل فوربز وآخرين يعملون معه في تقطيع الحيتان، ورغم طيبتهم إلا أنه لا حول لهم ولا قوة. لا بد لي أن أحاول مع غرباء.

نهضت وعثرت على مكان غسلت فيه وجهي ويدي ومعطفي الذي اتسخ من الجدار ثم توجهت إلى بيت الحاكم، فهو أفضل من يساعدني لأنه رئيس البيض كلهم هنا. أخبرني الخادم أن الحاكم مشغول لكن زوجته يمكن أن تقابلني فوافقت على الفور. أدخلوني إلى غرفة كبيرة توزعت الأزهار في أنحائها ورأيت زوجة الحاكم تجلس على كرسي كبير متوردة وجميلة. رحبت بي وطلبت من خادمة إحضار الشاي ثم انخرطت في البكاء وقالت إنها تشعر بالأسى والغضب لأن جثة أمي سرقت بهذا الشكل. راودني الأمل للحظات عندما رأيت تأثرها، لكن أملي سرعان ما تلاشى. فقد ردت علي بحدة وشيء من الغضب عندما سألتها فيما إن كان الحاكم سيلاحق الفاعلين للقبض عليهم. قالت إنه بالتأكيد يفعل كل ما بوسعه لتحقيق العدالة، وكأنني اتهمته بعكس ذلك. تابعت بعد ذلك ودموعها تسيل، الحديث عن حزنها وتأثرها لحالة أمي عندما رأتها أول مرة وكيف سبّب لها ذلك الأرق ومنعها من النوم. أدركت لحظتها أن دموع زوجة الحاكم لم تكن في الحقيقة من أجل أمي إنما من أجل نفسها. أي حماقة أني صدّقت أن كل ذلك الحزن من أجلنا نحن! رأيتها كيف تدير وجهها المبلل بالدموع نحو النافذة وتقول: «أنا آسفة يا سيد كرومويل،

ما جرى لأمك فظاعة لا أستطيع احتمالها». وكأن من تتحدث عنها أمها هي، وليست أمي أنا. أخبرتني بعدها أن علي الذهاب إلى رجل شرطة يدعى ماكبرايد، كلام يعني: اذهب الآن أيها الأسود فأنا لدي مشاغل غيرك.

مع ذلك ذهبت إلى رجل الشرطة ذاك. وعلمت حتى قبل أن أدخل أن أمري لا يهمه من انتظاري الطويل على مقعد خشبي خارج مكتبه ورجال الشرطة يتثاءبون ويحملقون فيَّ، كأني مخلوق مسلٍّ. وهذا ما تأكدت منه عندما دخلت إليه فوجدت أنه يهتم بالنظر إلى الجدار أكثر مما يستمع إلي. «لا تقلق يا سيد كرومويل وحاول ألا تستسلم لليأس فنحن نبذل كل ما بوسعنا لمعالجة الموضوع». كلمات لم تكن تعني سوى: أنت أيها الأسود شخص مثير للمشكلات.. انصرف، فمن يهتم بعظام امرأة سوداء. وفي النهاية قال إن علي مقابلة رئيس المشفى الدكتور غيفورد.

كان غيفورد ذاك رجلا عجوزا شديد النحول يتلمس صلعته بأصابعه بين لحظة وأخرى وكأنه يتحرى عن أي شعر قد نما فجأة. لم أكد أتكلم حتى ثار غاضبا، وقال إن ما حدث جريمة رهيبة، لكن لا علاقة له بها، وإن المسؤول مجرمون استطاعوا اقتحام المشفى. قال إن مشفاه مؤسسة محترمة وكل شيء فيها يسير بانتظام فلا داع لقلقي. لكن قلقي ازداد وبدأت أشعر بالتعب والسأم من هؤلاء البيض الذين لا يفعلون شيئا سوى الثرثرة عن ذكائهم وصوابهم. ما شأني أنا بكل ذلك؟ ما يهمني أمي فقط.

كم كانت لحظة مؤلمة! خرجت ومشيت تحت أشعة الشمس الدافئة لا أدري إلى أين أذهب وأنا أشعر أني لست سوى أبله. ألم أتعلم بعد؟! ألم أتعلم أن البيض لا يمكن أن يساعدوا رجلا أسود

ضد أبناء جلدتهم؟ لم يفعلوا ذلك من قبل ولن يفعلوه أبدا.

تذكرت فوربز من جديد وأنا أمشي. ألم يخبرني أنه علم بموت أمي من الصحف عندما مر بي ليسألني إن كنت أرغب بالعمل معه في تقطيع الحيتان؟ أجل، كنت دائما أنظر إلى الصحف على أنها أمر يخص البيض وحدهم. ولكن الأمر يخصني أنا الآن أيضا. لم يفكروا بنا يوما وهم يكتبون لأنهم يعرفون أننا لا نقرأ صحفهم ولا تهمنا في شيء. سألت رجلا أبيض من المارة فأرشدني إلى مقر صحيفة كولونيال تايمز.

كان المقر عبارة عن بضع غرف مغبرة فيها رفوف ترتفع إلى السقف. لم يكن في المكان سوى رجل أبيض واحد نظر إلي باستغراب عندما دخلت ثم تركني ليعود بعد قليل بجريدة أشار فيها إلى الخبر حول مأساة أمي. جلست أقرأ وهو يحدق بي بذهول، ربما لأنه لم يرَ أحدا منا يقرأ من قبل. راعني ما قرأت. كل ما في المقالة وصف لتقطيع جثمانها دون أي اعتبار لها كإنسان، لكني وجدتها مفيدة وأفضل من لا شيء. وأهم ما فيها: أولا أن الفاعل طبيب. هذا مؤكد. ثانيا شهادة توماس بيرش تقول إنه رأى سائق العربة قصير القامة وقوي البنية ورجلا آخر طويلا وبلحية.

أضاءت الجريدة جانبا من الموضوع، لكن لم يكن ذلك كافيا بالنسبة لي فقررت أن أذهب وأرى توماس بيرش في الحانة التي يرتادها، والتي ذكرت المقالة أنها أنكور تافيرن. وجدت المكان مكتظا والبيض فيه يغنون عشية عيد الميلاد. سألت رجل البار فتملص من الإجابة متشككا، لكني استطعت انتزاع إجابة منه، وأشار في النهاية إلى توماس بيرش وهو رجل بدت عليه علائم البلاهة كان يجلس قرب النافذة. سألته فيما إن كان قد رأى شيئا

لم يذكره للصحيفة فصمت وأخذ يحك ذراعه كأنه لا يعرف إن كان عليه الإجابة أم لا. أجابني بعد لحظات: «أجل، أذكر أني رأيت». قال أولا إن العربة كانت صفراء، وهذا أمر لم يكن يعنيني. بعد ذلك قال شيئا مثيرا للاهتمام. فمن الذي قال منذ البداية إنه يجب نقل أمي إلى المشفى؟ أجل، قال توماس بيرش إنه رأى رجلا بلحية حمراء.

الدكتور توماس بوتر، ديسمبر 1857
25 ديسمبر

كنت أرتدي ثيابي لحضور عشاء عيد الميلاد في النزل. ويلسون يصيح: تبارك الرب... إلخ... اعتقدت أنه يردد عبارات بمناسبة العيد، لكن عندما خرجت رأيته مع ذلك الأسود الهجين كرومويل. علمت أنه غيّر رأيه وقرر أن يكون دليلا لبعثتنا.

انتابني القلق لهذا التغيير.

أي عبث! إنه ليس حتى من الأصليين بشكل كامل. فسد عرقه باختلاطه مع مؤثرات أخرى من أعراق معادية. تحدث التغييرات بعد 28 أسبوعا في الرحم.

لكنني بعد ذلك فكرت من جديد وتوصلت إلى أنه لا داعٍ لقلقي من نظرات الاتهام في عيني الهجين. ذلك أن هذا العرق لا يتمتع بخصائص التفكير المنطقي التي يمكن أن تقوده إلى أي نتيجة أو اكتشاف.

النتيجة أن عمله معنا قد يكون مفيدا، خصوصا أنه قد يوفر لي نموذجا لدراسة هذا الصنف من البشر.

الفصل الثالث عشر
الكاهن جيفري ويلسون، يناير 1858

وأخيرا، في اليوم الثالث من السنة الجديدة الذي سيذكره التاريخ بدأت رحلتنا. أي نشوة شعرت بها في تلك اللحظة التي اعتليت فيها صهوة حصاني وأطلقت نداء البداية، فتحركت مئتان من حوافر الدواب محدثة جلبة عظيمة كأنها تعلن بداية مسيرتنا المسيحية المظفرة التي شرُفتُ بقيادتها. لكن لحظة انطلاقنا المجيدة لم تلقَ ما تستحق من اهتمام. كنت قد أعلنت الموعد الذي أردت أن يكون في الصباح الباكر، لكن يبدو أن ذلك كان مبكرا جدا بالنسبة للتاسمانيين الكسالى. وهكذا لم نرَ في ضوء الفجر الخافت سوى صيادي السمك وهم يحضرون شباكهم ويتجهون إلى المرفأ وبضعة سكارى لم نكن بحاجة لوجودهم. وخلال تقدمنا في شوارع هوبارت سرني أن موكبنا نال نصيبا من الاهتمام، فقد رأيت ستائر تفتح ورؤوسا تطل من النوافذ وتنظر إلينا بدهشة.

لم يطل بنا الوقت حتى غادرنا المدينة وقطعنا الميل الأول من رحلتنا تلاه ميل ثم آخر حتى ارتفعت الشمس فوق نهر دروينت الذي بدأت أتخيله لحظتها على أنه الفرات العظيم. توزعت الحقول والبيوت على امتداد طريقنا وكان الناس يخرجون

ليسألوا من نحن وإلى أين نسير، وكم كانت الدهشة تبدو على وجوههم عندما أخبرهم أننا ذاهبون لنعثر على جنة عدن.

لم يسبق لي أن سافرت لمسافات طويلة هكذا، وفاجأتني السرعة التي تأقلمت بها مع ظروف السفر القاسية، ولم تمض بضعة أيام حتى وجدت نفسي معتادا على الحياة في الهواء الطلق كأي فرد من السكان الأصليين. أصحو مع الفجر وأنتظر بصبر الرحالة أن يوقد سائس البغال النار لتحضير وجبة الإفطار من بيض مسلوق وشاي وخبز، وما إن ينتهوا من تنظيف أواني الطعام حتى أقفز من جديد على صهوة حصاني لأقود الموكب من جديد. ومع منتصف النهار نتوقف لتناول وجبة بسيطة لا تتجاوز بعض الخبز ومرتديلا وقطع فواكه مجففة، ونحتفظ معنا بكمية من البسكويت نستعين بها على الجوع حتى موعد العشاء. نتوقف في نهاية النهار ونختار موقعا للتخييم حيث أجلس مع رفيقيَّ حول طاولة قابلة للطي بانتظار وجبتنا التي عادة ما تتألف من أرز مطبوخ ولحم مقدد أو سمك السلمون المجفف.

يصر رينشو وبوتر على كأس من البراندي، ورغم أني لا أشرب وجدت أنه لا ضير من بعض التساهل في ظروف كهذه.

الأمر الذي لم أكن أتساهل به البتة هو روحانية بعثتنا ورسالتها المسيحية، فكنت أعمد إلى ترتيل بعض الصلوات والأناشيد وأنا أقودهم فوق جوادي، لأقوي روح الإيمان داخلي من جهة ولأرفع معنويات الآخرين من جهة أخرى. لكن خيبتي كانت عظيمة، فلم أكن أسمع ردا سوى همهمات أو أصوات متلعثمة.

ساهم دليلنا السيد كروموول في إضافة منغصات أخرى إلى رحلتنا. لم أتوقع منه شيئا من ناحية إيمانه، إذ إني أعرف منبته

وعادات أهله من السكان الأصليين، لكني توقعت أن يكون على الأقل عونا لنا في الطريق. ما حدث أنه تصرف بغرابة ورفض أن ينام مع سائسي البغال في خيمتهم رغم اتساعها، مفضلا النوم في العراء أينما وجد بعض الحشائش. بعد ذلك راح يشكو من طعامنا ويرفض الانضمام إلينا في مواعيد الوجبات ليمضي باحثا عن طعامه الخاص. كنت أراه أحيانا يحفر في الأرض ليستخرج جذورا ينظفها ويقشرها أو يرمي بضعة سهام ويختفي ليعود بعد ذلك بحيوانات تشبه الأرانب الصغيرة فيشويها ويأكلها بنهم.

أما مظهره وثيابه فكانت من الإزعاجات الإضافية، خصوصا عندما نراه يذهب إلى النهر للاغتسال أو لملء المياه. كلنا كانت ملابسنا قد بدأت تتمزق لكننا حاولنا كل ما بوسعنا أن نصلحها. أما هو فقد تحولت ثيابه إلى أسمال ومزق لا تكاد تستر من جسده شيئا. وما زاد حضوره ثقلا كان رائحة منفرة أخذت تفوح من بدنه بعد مدة من بداية الرحلة. أخبرنا رينشو أنه رآه يدهن جسده بدهن أحد الحيوانات التي اصطادها. وعندما أَنَّبْتُه على ذلك تعنّت أكثر وبرر فعله بأن دهن الحيوان يجلب له الدفء.

عند هذا الحد بدأت أشك بجدوى مرافقته لنا كدليل. فكم من مرة سألته أن يبحث في ذاكرة طفولته عن أي صورة لموقع أو تضاريس غير مألوفة. وكذلك سألته مستعينا بسفر التكوين إن كان قد رأى نارا تشع من جهة ما. ففي الكتاب المقدس يضع الرب سيفا من اللهب شرق عدن ليحمي الطريق المؤدية إلى شجرة الحياة. ورغم أني في طبعي لست ظنونا، إلا أن تقاعسه وعدم اهتمامه بأسئلتي جعلتني أتساءل فيما إن كان حقا قد سبق له أن تجول في تلك الأنحاء من قبل.

لحسن الحظ لم يطل بنا الوقت حتى لم نعد بحاجة لخدماته. فبعد أيام من سيرنا بمحاذاة ساقية ضحلة أخذ المجرى يتسع شيئا فشيئا حتى صار نهرا عريضا جارفا لا تبعد ضفته عنا سوى خطوات. وصلنا بعدها إلى مستوطنة صغيرة بدت لي أنها نهاية العالم المأهول وكل ما بعدها قفر وعر ينفتح على أفق مجهول.

سألنا رجلا عابرا عن الجهات فقال إنه لم يسبق له أن غامر بالابتعاد كثيرا، لكنه سمع من رعاة فعلوا ذلك أن النهر ينبع من بحيرة. والأكثر إثارة من هذا الاكتشاف كان أن الوصول إلى تلك البحيرة لم يكن مستحيلا بعد أن رأينا ممرا كان يسلكه الأصليون في زمن مضى على طول مجرى النهر. أي نعمة هذه! كل المؤشرات تدل على أن البحيرة تلك منبع غي بيرن والأنهر الثلاثة الأخرى التي ذكرها سفر التكوين، ولو تمكنا من الوصول إليها فسنكون على مشارف جنة عدن ذاتها وربما نستطيع رؤيتها من هناك.

وهكذا انطلقنا باتجاه البحيرة في صباح اليوم التالي.

بيفاي، يناير 1858

كان هدفي في البداية أن أقتلهم جميعا. نعم، كم سيكون ذلك رائعا، كلهم؛ بوتر بلحيته الحمراء والخادم هوبر وساسة البغال الذين كرَّهوني في مسكن القماش ذاك الذي يسمونه خيمة. كلما دخلت كانوا يتلفظون بكلمات غريبة لا أفهمها ويحاولون إخافتي بأشياء رهيبة ستحدث لي في الليل، لهذا تركتهم وذهبت للنوم بجانب النار. أجل، لا بد من قتلهم جميعا.

لكن ذلك لم يكن سهلا لسوء حظي. فقد كانوا أكثر من أن أنال منهم بالسهام وحدها، عدا عن تلك الأسلحة التي لديهم. بندقيتان جديدتان ولامعتان لدى كل من هوبر وسائس البغال البغيض. المسدسات كانت أكثر، وكان بوتر يرمقني بحقد وتشكُّك كلما نظرت إلى مسدسه باهتمام. وعدا ذلك لم أكن أعرف كيف تستعمل تلك الأسلحة، فأنا لم أمتلك أي نوع منها ولا حتى جربت استخدامها في أيام المعارك والقتال. لذلك قررت أن أفضل ما أفعله أن أكون يقظا وأنتظر الفرصة المناسبة.

اجتزنا ما عرفه البيض من دروب ومسالك ودخلنا تلك الأراضي البكر، وطننا القديم وعالمنا نحن. وكم كان غريبا ومدهشا أن أجد نفسي مرة أخرى هناك بعد سنوات طويلة. لم أطأ هذه الأرض

منذ كنت صغيرا عندما كنا نهرب مع جماعة أمي من روبسون. غمرني إحساس بالألم والضيق وأنا أجد نفسي في وطني غريبا، وحدي بين كثرة من البيض يدوسون بأحذيتهم الضخمة الأرض التي كنت أمشي عليها مع من أحب، ويستنشقون روائح الأشجار التي صنعت ذاكرة طفولتي. هذه الأرض ليست لهم، ولن تكون أبدا.

كانوا حمقى وأغبياء هنا. أجل، في هوبارت كان بمقدورهم لعب دور الأذكياء يثرثرون ويتبجحون بإجابة على أي سؤال. لكن هنا لا، كل شيء كان لغزا بالنسبة لهم ولأحصنتهم. أجل، أعرف أنهم يحبون تلك الحيوانات، يمتطونها بخيلاء وغرور، لكنها في عالمنا هذا تجفل وتصهل ذعرا لأي مخلوق صغير تصادفه. فعندما كنا نعبر ممرا وعرا مليئا بالصخور حرن أحدها حين أطلَّت أفعى سوداء من جحرها ورمى برينشو فكاد يموت. تلا ذلك أرض أكثر وعورة وتعذر على الأحصنة اجتيازها، فطلب ويلسون من الآخرين تركها ومتابعة المسير مشيا. كان بإمكاني أن أحذرهم مما سيحدث، لكنهم لم يسألوني.

كان بوسع البغال متابعة الطريق، لكنها حيوانات غبية تخب وتقرقع بحمولتها وهي تسير مربوطة إلى بعضها بحبل، بحيث لا يرى أحدها سوى مؤخرة الآخر. وفي النهاية لم يجد السفلة البيض سوى أن يسيروا على الأقدام وتوجب عليهم اجتياز مساحات مغطاة بالوحل كادت تصيبهم بالجنون وهم يشتمون ويتلفظون بكلمات غريبة. ألم يتوقعوا أن لكل أرض وحلها وأن عليهم أن يصبروا ويجتازوا ما يعترض طريقهم، لا أن يشتموا ويتذمروا كالحمقى! لم تكن حالهم أفضل مع الأدغال والشجيرات الشائكة أو الحشرات اللاسعة أو الصخور الزلقة.

من يراهم وحالهم تلك يتساءل كيف استطاعوا حقا أن يقتلوا كل شعبي ويحتلوا عالمنا، أو حتى لماذا يريدون هذه الأرض إن لم يكونوا قادرين على احتمالها والتأقلم معها؟! لا يستطيعون العيش هنا سوى مع الأشياء التي أحضروها من المدينة. ينصب ساسة البغال الخيام للنوم مع أننا في الصيف والطقس حار. أحضروا طاولات وكراسي ليجلسوا عليها وكؤوسا للبراندي، وكل يوم يوقدون نارا لطهي طعامهم الكريه، دائما من معلبات لحوم مالحة ولزجة. نحن لا نحمل معنا شيئا، فقط مشاعل وذكرى من ماتوا وحكايات نرويها. كل ما نحتاج إليه نعثر عليه في طريقنا. لكن من يملك كل شيء الآن؟ لست أنا الوحيد من قبيلتي، بل هم الذين يمتلكون السلاح بينما أنا أعزل ووحيد. يهزؤون مني لأني أعيش كما ينبغي، على طريقتي أنام بجانب النار تحت النجوم التي أعرفها، وآكل ما تمنحني الأرض من نبات وجذور أو ما أصيد من طرائد.

لم يزدهم ذلك سوى كراهية وحقد ونحن وحدنا في القفر. في إحدى الليالي أتى اثنان من ساسة البغال ثملين من شرب الروم وأخذا يسخران ويطلقان النكات السخيفة عن أهلي وأنهم انقرضوا جميعا وأني سألحق بهم قريبا وأموت. وعندما أطلقت عليهم اللعنات بلغتي أمسكا بي وتبولا على فراشي الذي صنعته من أوراق الشجر. جعلني ذلك أعيد التفكير، هل أخطأت بمجيئي إلى هنا؟ بدأت المخاوف تسيطر علي في الليل وأتساءل فيما إن كنت قد وقعت في فخ نصبوه لي لينالوا مني هنا ويقتلوني ليحتفظوا بعظامي، تماما كما فعلوا مع أمي. دفعني الخوف إلى مزيد من الحذر واليقظة فوضعت سكينا في جيبي بشكل دائم، وما إن أحس باقتراب أحدهم في الليل حتى أتلمسها وأستعد للدفاع عن نفسي.

وفي غمرة خوفي وهواجسي خطرت لي فكرة. ماذا لو كانت أمي هنا؟ هؤلاء البيض لديهم متاع وحقائب وصناديق كثيرة تثقل ظهور بغالهم، فلماذا لا تكون معهم؟ وهكذا بدأت بالبحث. أولا كنت أصغي بحذر إلى أصواتهم في الليل، إلى ثرثرتهم الخافتة عن خيمة تدلف الماء أو عن شوكة ضائعة أو غير ذلك من ترهاتهم. أنتظر حتى يصمتوا ويعلو صوت شخيرهم وتقلبهم فأعرف أنهم ناموا ثم أبدأ. لم يكن الأمر سهلا، وكان علي أن أفتش في الحقائب والصناديق في الظلام متلمسا بأصابعي أغراضهم، شوك وملاعق وزجاجات شراب يسمونه شامبانيا. ومع الوقت يئست من العثور على أي شيء وفكرت أن ما أبحث عنه لا بد أن يكون في حقائب صاحب اللحية الحمراء التي كان يخبئها مع هوبر في خيمته وينام عليها كوسائد. كان البحث هناك صعبا، لكنني لم أستسلم وقلت في نفسي إنه لا بد من وجود طريقة ما.

الدكتور توماس بوتر، يناير 1858
19 يناير

إرهاق شديد في الصباح. كل شيء رطب وموحل حولنا. البغال تتزحلق، وحدث هذا لي أيضا حتى تلطخ كل شيء وغرقت أحذيتنا في الطين. الوحيد الذي لم يتأثر ذلك الهجين الذي لا ينتعل حذاء. عنيد جدا كما ينسجم مع سماته العرقية. جذوره التي تعود إلى السكان الأصليين توضحت بسلوكه. ينام في العراء ويأكل كل شيء يجده في الأرض بدوافع همجية... إلخ...

وصلنا أخيرا إلى منطقة جافة. بدأ ويلسون بالصراخ ودعوتنا كعادته إلى الصلاة عندما سمعنا صوت صراخ. كان هوبر قد ذهب لقضاء حاجة وعاد يقود الأسود الهجين أمامه تحت تهديد بندقيته. قال إنه ضبطه يسرق من صناديق البغال ورآه يفتح حقيبته.. الهجين صاح بهياج.

حادثة مثيرة للاهتمام لأنها أكدت نظريتي، وأظهرت كيف تصرف ذلك المخلوق بدافع من سماته العرقية الهمجية، نوازع أصيلة تعزز الرغبة في السرقة.

قلت لويلسون: ألم أخبرك بأنه لا يصلح دليلا لنا؟ ها قد اتضح أنه ليس أكثر من لص همجي.

وقبل أن يجيب صرخ الهجين: «ولكنك أنت اللص.. لقد سرقت عظام أمي».

أعترف أنها كانت صدمة بالنسبة لي. فكيف استطاع التوصل إلى نتيجة منطقية كهذه؟! هل هي سمة بدائية غامضة؟ كيف لمخلوق من هذا العرق أن يفكر بطريقة منهجية؟! إلا إن كانت الفكرة قد تسربت إليه من أحد الأوروبيين!

وضعني ذلك في موقف حرج. صمت ويلسون وراح يتأمل بفضول، وكذلك رينشو أيضا. قلت لهم إن ذلك افتراء، وإن الأسود يختلق الأكاذيب ليصرف الأنظار عن جريمته. ولحسن الحظ ارتكب الهجين حماقة أخرى أنقذتني. طلب تفتيش حقيبتي قائلا إن عظام أمه فيها. بالطبع وافقت، وعندما فتشوها ولم يجدوا شيئا رأيت ملامح الخيبة على وجه ويلسون الذي تصرف بنمطية متوقعة تدل على أصله النورماندي. فعندما طلبت أن يعاقب كرومويل ويطرد ليعود من حيث أتى رفض ويلسون وقال إن علينا أن ننسى الموضوع.

لم تحل المشكلة، وكان لا بد لي من فعل شيء.

تابعنا المسير بعدها، ولم يمض وقت طويل حتى سمعت صياحا من مقدمة الموكب: إنها هنا.. هنا.. وجدناها... إلخ... تقدمت ونظرت من خلال فروع الأشجار التي كانت تحجب الأفق فرأيت بحيرة كبيرة تحيط بها جبال جرداء لم تكن تختلف عن الجبال التي رأيناها من قبل سوى أنها أكثر ارتفاعا.

لم أرَ في المشهد أي شيء يثير الاهتمام بينما وقف ويلسون ينظر مشدوها.

الكاهن جيفري ويلسون، يناير 1858

إياك والقنوط يا فيكار. لا، لن أستسلم لليأس. هكذا قلت في نفسي وأنا أنظر إلى تلك الجبال الشاهقة. كنت قد توقعت أن أصل وأرى جنة عدن تمتد بكل بهاء أمامي. وها أنا الآن لا أرى شيئا سوى جبال جرداء. كيف لنكسة كهذه أن تضعف من قوة إيماني العظيمة؟!

لم تمض سوى لحظات حتى أعاد إيماني صفاء الذهن فتكشفت لي الحقيقة واضحة كيقين المؤمن. أنا الذي أعلم أن الرب يختبرالخلق فيرفع في وجوههم العقبات والمصاعب ليمتحن إيمانهم، وها نحن الآن أمام الامتحان العظيم الذي سيثبت ما في قلوبنا. أي نعمة من الرب ليمنحني هذه الفرصة كي أبرهن على أن الإيمان في وجداني قوي كصخرة عظيمة. لن أضيع هذه الفرصة ولن أقابل اختبارا كهذا سوى بالفرح والغبطة.

«أنا واثق أننا سنراها إذا ما انعطفنا حول البحيرة». قلت للآخرين.

تجاهلت نظرات التشكك التي تبادلها بوتر ورينشو والآخرون وعزمت على المضي في مسيرتنا. سيبدد نور الحقيقة الذي سيشرق قريبا كل شكوكهم. تناولنا وجبة طعام بسيطة ثم أشرت للموكب بالتقدم وأنا أترنم بترتيلة تمنح روحي الإشراق والعزيمة.

بعد مسافة قصيرة أصبح الشاطئ موحلا فاضطررنا للعودة إلى للسير في الممر الذي أبعدنا عن البحيرة. كل ذلك لم يكن سوى عقبات اعتدت على مصادفتها في رحلتي الطويلة والتغلب عليها. ألم أتغلب من قبل على أولئك الجيولوجيين الملحدين؟ ألم أتمكن من تذليل المصاعب التي واجهتني في استئجار السفينة ومن ثم واجهت كل أهوال السفر في المحيطات؟ بالمقارنة مع ما اجتزته حتى الآن ليست هذه التفاصيل الجغرافية الغريبة سوى هنات عابرة. وهكذا مضيت والإيمان يملأ قلبي إصرارا وعزيمة، وفعلت كل ما بوسعي للتشبث به. صليت وابتهلت من أجل خلاصنا ومن أجل أن يعيننا الرب على إتمام رسالتنا المقدسة. صليت لرفاقي أيضا أن يفتحوا قلوبهم ويصلوا أيضا.

لم أكن من الطمع بحيث أنتظر لصلواتي أن تؤتي ثمارها بسرعة. لكن هذا ما حدث، فما كدنا نبتعد قليلا عن شاطئ البحيرة حتى رأيت شيئا جعلني أصفق دهشة. لم يكن سوى غصن شجرة سقط على جانب الطريق، ولا يمكن لإنسان عادي أن يثير اهتمامه. فقط أصحاب البصيرة والقلوب النيرة يمكن أن تتكشف لهم الدلالة العميقة لذلك، فقد كان شكل الغصن يشبه السهم الذي يشير إلى جهة مسيرنا. ولم يكن هذا كل شيء، فبعد مسافة أخرى رأيت شكلا لا يمكن للعين أن تخطئه، حرف J مرسوما على صخرة ضخمة وكأنما لإرشاد النبي موسى ذاته. وفي غمرة استغراقي في قداسة ذلك الحرف أتاني المزيد من العون فسمعت صوت غناء طير تناهى إلى مسامعي من جهة البحيرة. كيف لي أن أخطئ ما يتردد في ذلك الغناء، صوت ع... دن ع.... دن.

بعد ذلك بدأ الطريق يتجه صعودا خلال غابة وبشدة جعلت من سيرنا غاية في المشقة. ورغم الوهن الذي شعرت به في أطرافي وقرب أفول شمس النهار استنهضت كل ما فيَّ من عزيمة وتابعت قيادة الموكب إلى أن اجتزنا الأشجار وانكشفت أمامنا أرض تحيط بها هضاب واطئة بصخور وعرة. هنا تفرع طريقنا في اتجاهين، أحدهما ينحدر إلى يساري نحو غابة والآخر إلى يميني يصعد إلى سفح أحد الهضاب. يبدو أنه امتحان آخر من الرب.

«علينا أن نتجه إلى اليسار». قال بوتر بإصرار رغم أني لم أسأله رأيه. «الطريق في هذه الجهة أسهل».

لم أشأ أن أتسرع في القرار: «ماذا تقول يا سيد كرومويل؟ هل تعرف هذا المكان؟».

«لا، لا أعرفه». صمت متأملا كأنه يفكر في أحجية ما، ثم استدرك وقال: «الطريق الصاعدة أفضل. إنها تقود إلى البحيرة».

لم يرق هذا لبوتر بالطبع: «كيف نسمح للص بإرشادنا؟».

تجاهلت كلامه لأني لم أكن أريد العودة إلى موضوع الخلاف القديم: «وأنت يا سيد رينشو، ما رأيك؟».

«أعتقد أن الطريق إلى اليسار ستوفر علينا عناء وعورة المنحدر».

كنت على وشك اتخاذ قراري بسلوك الطريق السهلة عندما تنبهت إلى ما جعلني أتريث. نظرت إلى الطريق المنحدرة باتجاه الغابة فرأيت ملامحها قد غابت في ضوء المساء الخافت، بينما كانت الطريق الصاعدة نحو الهضبة مضاءة بنور الشمس الباهر. «هناك، ذلك هو طريقنا».

امتعض بوتر: «ضوء الشمس الخافت هذا لا يمكن أن يكون دليلا».

لم أجد أمامي سوى أن أقرر، فالفعل خير إجابة. أشرت بيدي وأوعزت للموكب بالتقدم في الطريق الصاعدة.

عجيب أمر الهضاب، تبدو صغيرة من الأسفل وما إن تبدأ بتسلقها حتى تكتشف خديعة البصر. كنا نشق طريقنا بمشقة نحو الأعلى والمطر ينهمر فوقنا، وكلما خلت أننا قاربنا على بلوغ القمة فاجأنا انحدار آخر يرتقي بنا إلى مستوى أعلى. إننا نتسلق جبلا وليس مجرد هضبة، قلت لنفسي. استمر الحال هكذا حتى انكشف أمامي مشهد فهتفت: «هاهو». رأيت ممرا يفضي إلى غابة أمامنا. ومع دخولنا الغابة أصبح طريقنا غامض الملامح.

«من هنا». هتفت بهم وأشرت نحو الممر الذي يفضي إلى أشجار تطل من ورائها قمم هضاب أخرى. «هناك، عدن هناك، وراء تلك القمم». قلت وأنا أتخيل كيف سأطل وأرى ذلك البهاء الذي جعل قلبي يخفق حد الألم. هناك، ذلك الجرف الشاهق يعلو بصخوره الملساء كحصن عظيم. هناك، تلك هي العتبة التي تفضي إلى عدن المحروسة بسيف اللهب. ووراء كل ذلك أفق ممتد من خضرة ساحرة تخلب الألباب، نظرة واحدة إليها تكفي لمن يبصر بقلبه. رحت وأنا أتقدم في طريقي أتخيل أعدائي، أولئك الذين حاربوا منشوراتي وأفكاري يجلسون في مكاتبهم يعميهم الجهل غافلين عن الأحداث العظيمة في الطرف الآخر من العالم. لم تكن مشاعري تجاههم عدائية، بل متسامحة كما يجدر بأب مسيحي يعامل أولاده الضالين. أجل، لا بد أن يشعروا بالغبطة عندما يغمرهم نور المعرفة، وسيكتشفون في النهاية اليقين الذي كانوا يفتقدون في الكتب المقدسة.

نظرة واحدة تكفي. أحقا تكفي؟ رحلتي الطويلة والشاقة إلى المعرفة على مدى أيام طويلة عبر مجاهل الأرض الوعرة جعلت الشك ينتابني. لا يصح أن يدخل بقية أعضاء البعثة أرضا مقدسة كتلك، وأنا بالتأكيد لا أريد تدنيس المكان، لهذا وجدت نفسي تحت عبء مسؤولياتي. أيصح وأنا أول رجل كنيسة يصل إلى أكثر بقاع الأرض قداسة أن أتخلى عن مسؤولياتي؟ وبالإضافة إلى ذلك هناك الأحلام الغريبة التي رأيتها مرات عديدة خلال رحلتي المضنية، كلها لها ذات المسار.

أحلم بنفسي أمشي في ذلك المكان مأخوذا بعظمة ما حولي. أتقدم وكل ما يصادفني يدهش ويبهج إلى أن وقعت عيناي على مشهد رهيب يصعب احتماله. شجرة لم يسبق أن رأيت مثلها من قبل، ليست كبيرة لكن جذعها أسود مليء بالعقد وأغصانها تلمع بلون قاتم. وبينما كنت أتأملها برعب سمعت صوتا هادرا يتردد ويملأ الفضاء حولي بالحكمة، وكما يحدث السحر وجدت في يدي فأسا ذهبية. تقدمت وقد استيقظت في ذاكرة الشباب وهويت على الشجرة بالفأس وأخذت أضرب جذعها بكل قواي مستغفرا الرب على تلك الخطيئة الأولى. مالت الشجرة البغيضة وهوى نصفها الميت على الأرض متقصفة بعنف. وكمعجزة انتبهت إلى الهواء حولي فوجدته قد فقد ثقله الخانق وشف نظيفا ومنعشا. أعلم أن أحلاما كهذه لا تعدو كونها مجرد خيال، لكن تكررها يمنحها دلالة خاصة.

لم يطل الوقت حتى وجدنا أنفسنا نخرج من الغابة إلى منطقة جرداء حيث يصعد الممر في منحدر شديد ويتلاشى بعيدا بين الصخور. «علينا الذهاب من هنا». قلت وشيء ما يشدني إلى ذلك الطريق.

«إنه شديد الانحدار». قال بوتر الذي لا يمل من إثارة المتاعب.

شجع تعليقه سائس البغال، وربما هذا ما كان يريده بالضبط. «لست متأكدا أن هذا ممكن. الأرض موحلة وزلقة. أليس من الأفضل أن تذهبوا أنتم ونبقى نحن هنا مع الدواب؟».

نظرت إلى دليلنا: «ماذا تقول يا سيد كرومويل؟».

فكر للحظات ثم قال: «لا، أعتقد أن على البغال أن ترافقنا أيضا. سيحل الليل قريبا ولا يمكن البقاء هنا في الظلام».

ها هو الهجين يثبت أنه مفيد أخيرا. «تماما، هيا بنا إذن».

لا أنكر أن تسلق المنحدر لم يكن سهلا. فمع تقدمنا كان الانحدار يشتد والممر يضيق وتتكاثر الجلاميد حولنا إلى درجة كان علينا أن نحشر أنفسنا بينها حشرا لنمر. وتحت سماء ملبدة ومطر ينهمر بغزارة صارت الصخور تحت أقدامنا زلقة.

كنت أول من وصل إلى القمة. وقفت على حافة صخرة فوجدت نفسي محاطا بالسماء من كل الجهات. نظرت وإذا بي على حافة سطح القمة الذي يميل كسقف بيت قرميدي ويجعل الوقوف صعبا ومثيرا للتوتر، لكن مع بعض الحذر لم أجد الأمر مستحيلا. لكن أكثر ما لفتني هو المشهد. كنت كمن يقف على شرفة تطل على امتداد شاسع، ومن الجهة المقابلة رأيت واديا عميقا تحده سلسلة جبال شاهقة. أما من طرف القمة المنخفض فكانت الإطلالة على مساحات ممتدة إلى الأفق من أرض تملؤها الجروف الصخرية والخضرة.

تأملت ما حولي وتيقظت حواسي إثارة وغبطة. نحن في قلب مجاهل هذه الجزيرة الكبيرة، وهنا لا بد أن نكتشف شيئا ما. انصرفت إلى العمل متجاهلا شكوى وتذمر بقية

الفريق وهم يتجمعون مع الحيوانات أعلى القمة. عدت أدرس ملامح المشهد الممتد أمامي. هناك النهر الذي عبرنا به قبل وقت يبدو لي الآن دهرا. انتظرت بكل ما تحتمل جوارحي ووجداني من صبر أن تنقشع الغيوم في جهة البحيرة، وعندما رأيتها أخيرا تنفست الصعداء ورحت أنظر. لا بد أن نرى شيئا ما الآن.

«ما كان علينا المجيء إلى هنا». قال بوتر وهو يجثو ورائي متمسكا بالصخرة. «لا أرى شيئا مختلفا هنا».

الحقود المتعجرف، يتكلم كأنه قادر على تمييز ما نبحث عنه. من أين له أن يفقه في الجيولوجيا! لن أدع رجلا كهذا يشوش على عملي. حتى لو لم أعثر على أي شيء ملفت للنظر قرب البحيرة، كما يبدو لي للأسف، فلا بد من وجوده في مكان آخر. ماذا عن تلك المنطقة الأبعد إلى حيث تمضي الغيوم؟

«آه..». صاح الدليل بصوت متهدج.

«هل رأيت شيئا ملفتا؟» سألته مشجعا.

«ذلك الجبل... هناك..». نظرت إلى حيث يشير، جبال عادية لا تختلف في شيء عما رأيناه حتى الآن.

«كنت أعيش هناك عند ذلك الجبل».

«أجل..». قلت له بشيء من الخيبة. كنت أنتظر شيئا أكثر أهمية من بعض الذكريات.

أي لغز هذا، كل شيء يبدو عاديا. لا أستطيع فهم ذلك. فبصرف النظر عن روعة المشهد لا شيء يستحق الذكر من الناحية الجيولوجية لا بجانب البحيرة ولا في أي مكان آخر.

«تبدو عليك الخيبة يا فيكار؟».

لا يفترض أن يفاجئني تعليق كهذا من بوتر لأني أعرفه جيدا. لكني في تلك اللحظة صدمت حقا بنبرة التشفي في كلماته، وراعني أن كل ما كان يهمه أن يستغل لحظات قلقي أو ضيقي ليرضي نزعة الشماتة لديه بشكل يفوق اهتمامه ببعثتنا ذاتها.

«لا، لا أشعر بالخيبة مطلقا». أجبته بثقة.

«إذن هل رأيت شيئا؟».

يا للأقدار العجيبة. في هذه اللحظة العصيبة أتاني العون من آخر مصدر يمكن أن أتوقعه، من الدكتور ذاته. أجل، المحن والشدائد اختبار لإرادة الرجال. لن أستسلم ولن أسمح لأحد بالشماتة. وتجلى لي في لحظتها ماذا علي أن أفعل. يجب أن أركع على ركبتي الآن، هنا على قمة هذا الجبل الذي لا أعرف اسمه. ركعت، وبصوت هادئ لكن كله ضراعة وخشوع ثم ناديت باتجاه الهاوية المفتوحة أمامي:

«أيها الرب لا تتخلَّ عنا. اسمع صلاتي، أتضرع لك ألا تتركنا بعد أن أوصلتنا إلى هنا».

أنهيت صلاتي بينما خيم صمت على كل شيء حولي عدا بوتر الذي بدأ يصفر في إشارة إلى نفاد صبره، لكني انتظرت بكل تضرع المؤمن وقلبي يخفق بشدة. ولم يذهب انتظاري سدى، وما حدث لحظتها يرقى إلى المعجزات، تجلٍّ إلهي لا يقل عما ورد في الكتب المقدسة. فجأة توهجت السماء بشعاع نور يشير كإصبع القدر إلى ما وراء الجرف الذي نقف عليه، إلى ناحية محجوبة عن أنظارنا. كل ما رأيته من إشارات في ذلك اليوم لم تكن تشبه هذا التجلي.

«هناك». هتفت والسعادة تغمر كياني بينما دوى صوت الرعد فوقنا. «عدن هناك. يجب أن نذهب إلى هناك».

«بحق السماء يا فيكار. ماذا تريد أن تفعل بنا أكثر في يوم كهذا؟!» قال بوتر الذي لا يستطيع التخلي عن خبثه وضغينته.

لم أعر كلماته أي اهتمام وأغلقت في وجهه ذهني كأنما أريد حماية أفكاري مثل راعٍ يذود عن حمل وديع من الكواسر. لا، لن أدعه يسمم الرضى والنشوة التي غمرتني. لم أجبه وأخفضت رأسي وأنا أبتهل بصلوات الشكر.

«رأيت ضوءا مثل هذا تماما قبل قليل، وأظن أنه كان أكثر تألقا».

«علينا متابعة الطريق في الحال». قلت ذلك ولكي لا أفسح مجالا لأي اعتراض اقتربت من صف البغال.

تبعني بوتر: «هذا جنون. الطريق إلى هناك وعرة وغير سالكة. لا يمكن أن أسمح لك بأن تضعنا كلنا في مخاطرة كهذه».

كظمت غيظي وحاولت جاهدا ألا أرد على استفزازه: «كف عن ترداد الترهات».

امتقع وجهه وتقلصت ملامحه كأنه يتألم، ثم تكلم بوضوح هذه المرة من دون أي قناع أو مراوغة: «ألا ترى أيها المغفل؟ ما من جنة عدن هنا، ولم تكن في أي وقت من الأوقات. والآن بحق الرب دعنا ننزل من هنا قبل أن تودي بنا جميعا إلى التهلكة».

ما أسرع ما تتكشف الحقائق أمام الإنسان! في دخيلة هذا الرجل من الشر والغدر أكثر مما تخيلت بكثير. لم يؤمن يوما برسالة بعثتنا السامية، وما من سبب دفعه لمرافقتنا سوى أن يفسد علانية كل شيء ويحول دون اكتشاف جنة عدن. نعم، تكشف كل شيء بلمح البصر. لقد تم إرساله من قبل خصومي، الجيولوجيين الملحدين. أليس هو من سعى إلينا وألح على جوناه

الطيب ليقنعه أن يكون طبيب الرحلة؟ ألم يحاول الوصول إلى موقعي كقائد للبعثة؟

«يهوذا» قلت له: «يهوذا يكشف عن نفسه. لكن لن ندعك تفوز مهما أوتيت من الشر والخيانة». ولكي لا أفسح له مجالا لإضاعة مزيد من الوقت في الكلام انصرفت عنه وأمسكت بلجام البغل الأول في الرتل.

توقعت أن يخجل بوتر من نفسه بعد أن تعرى وانكشف على حقيقته أمام الجميع. ولكن من أين للشيطان صحوة الضمير! «لا، لن تفعل». صرخ بي وخطف لجام البغل من يدي وهو يحاول إدارته إلى الجهة المعاكسة.

لم يترك لي خيارا سوى أن أقبض على اللجام في يده وأسحبه بكل قوتي لاستعادته. فعلت ذلك بكل طمأنينة وكبرياء، لكن حقده جعله يقاوم بعناد أكثر. عندها صرخ سكيغس سائس الدواب: «توقفا عن هذا».

جفلت البغال من جراء شد بوتر المحموم فاضطربت وحرنت بعنف دفعنا للابتعاد عنها. أما ما حدث بعدها فكان خاطفا ورهيبا بحيث لا يمكن وصفه سوى أنه كابوس. لم يسعفني الوقت لتهدئة الحيوانات المسكينة التي فقدت توازنها في هياج وسقطت على الأرض في حركة جذبت كل الدواب كأنها مربوطة إلى بعضها.

انتبه سكيغس إلى الخطر المحدق وصاح: «فكوها».

كان ذلك لسوء الحظ متعذرا لهياج الحيوانات وتدافعها، ولست متأكدا في الحقيقة مما إن كان أي أحد منا فكر بالمحاولة. لم يكن بوسعنا سوى أن نقفز مبتعدين عندما بدأت الحيوانات تتهاوى وتنزلق على الصخرة تحتنا، قوائمها تضرب في الهواء بينما يجر

بعضها بعضا. كان البغل الذي في وسط الصف أول من وصل إلى الحافة واختفى شادا الحبل الذي يربط بغلين آخرين وراءه حتى توتر وقذف بهما أيضا ثم تبعهما البقية إلى الهاوية.

خيم الصمت على الجميع. كانت الكارثة أسرع وأفدح من أن يستوعبها أحد. نظرت حولي فراعني كم بدونا قلة على تلك الجبال الجرداء، ودون أن ينطق أحد بكلمة أخذنا نزحف على سطح الصخرة الرطب نحو الحافة. جثوت هناك ومددت رأسي لأنظر. لا شيء سوى قمم أشجار تلمع أوراقها المبللة، وما من أثر لما حدث سوى بعض أغصان متكسرة وصوت متألم تناهى خافتا كصدى بعيد على وقع هطول المطر وصفير الريح. كان الجرف عموديا كأي جدار ولم يكن هناك طريق نسلكه حتى تلك التي أتينا منها صعودا.

وبدل أن تصحو الضمائر تحت وطأة كارثة كهذه سمعنا صراخا. كان هوبر خادم بوتر يشير بغضب إلى كروموبل: «إنه هو، الأسود من أحضرنا إلى هنا». سمعت همهمات موافقة من بعض ساسة الدواب ثم انتبهت مفزوعا إلى هوبر وهو يشهر بندقيته.

«توقف عن هذا». صرخت به.

كنت بالتأكيد سأفعل كل شيء لمنعه لو كنت قريبا مهما كانت المخاطر على حياتي. لكن الذي حدث أن رينشو وحده كان قريبا، وقبل أن يتمكن هوبر من التسديد بشكل جيد ضرب سبطانة البندقية فانطلقت الرصاصة باتجاه الهواء. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد تشابك الاثنان في عراك على السلاح، وبينما كنت أسرع باتجاههما سمعنا صوت ارتطام حاد يشبه صوت خشب يضرب صخرا. مال رينشو فجأة إلى الخلف وحاول هوبر الإمساك

بـه وكاد يفقـد توازنـه. لكـن دون جـدوى، فقـد رأيـت وبذهـول يشـبه الـدوار كيـف سـقط في الهاويـة ببـطء رهيـب واختفـى بـين الأشـجار في الأسـفل.

لفنـا الصمـت مـرة أخـرى. كان هوبـر يرتجـف اضطرابـا: «لم أكـن أقصـد، وقـد حاولـت الإمسـاك بـه». وكأن فعلـة شـنيعة كهـذه يمكـن تبريرهـا بـأي شيء! أي دلالـة في أن خـادم بوتـر لا غـيره هـو مـن ارتكـب تلـك الفظاعـة.

اقـترب أحـد ساسـة البغـال مـن الحافـة وصرخ: «سـيد رينشـو» وخـلال لحظـة كنـا جميعـا نـصرخ معـه بـكل مـا أوتينـا مـن قـوة تحـت المطـر، وكأن علـو الـصراخ سـيعيده. لم نسـمع شـيئا سـوى ذلـك الصـوت البعيـد لنهيـق البغـال الفظيـع. لم ينطـق أحـد لكـن الجميـع كان يفكـر بـذات الفكـرة المرعبـة.

«هل تظن؟..». بدأت أنا بالكلام.

«لا، ليس من ارتفاع كهذا». قال سكيغس وهو يهز رأسه.

تذكـرت كروموِيـل لحظتهـا ونظـرت فوجدتـه قـد ابتعـد باتجـاه المنحـدر الـذي أوصلنـا إلى هنـا. ناديـت عليـه أن يتوقـف فلـم يـرد أو يلتفـت. لا أسـتطيع لومـه عـلى الرغـم مـن سـوء نصيحتـه لنـا، فهـو لـن ينجـو عـلى هـذه الجبـال الجـرداء. المسـكين، كنـت سـأحميه في كل الأحـوال. وهكـذا اكتملـت الكارثـة وأطبقـت علينـا مـن كل الجهـات.

«كل هذا بسببك أيها الأبله».

أجـل، هـذا مـا قالـه بوتـر. ولمـن؟ لي أنـا. الأمـر يصعـب تصديقـه. الملحـد الخائـن يوجـه لي هـذا الـكلام وهـو الـذي تسـبب بـكل مصائبنـا.

«كنت تسعى إلى القضاء علينا، وها أنت نجحت». قلت له.

«أنت الذي قدتنا إلى هذا المكان اللعين».

نهضت منتصبا بقامتي شامخا بكبرياء كما يجدر برجل كنيسة وقلت له: «بالصلاحية التي منحني إياها جوناه تشايلدز والرب نفسه أطردك من هذه البعثة. خذ خادمك القاتل وانصرف من هنا يا دكتور بوتر. أنت مفصول من البعثة».

لا حياء لدى هذا الرجل فقد جلس على صخرة وأخذ يرمقني ووجهه يحتقن بالكراهية. تجاهلته والتفتُّ نحو ساسة البغال بثقة مستجمعا ما في صوتي من رباطة جأش كنبيل مسيحي من العصور القديمة: «أستحلفكم ألا تستسلموا لليأس. فكل ما حدث رغم فداحته وقسوته لا يعدو كونه اختبارا. هو اختبار كشف هذين الرجلين على حقيقتهما. لكن علينا أن لا نستسلم وأن نتابع مسيرتنا نحو هدفنا المقدس».

«لن أتبعك مترا واحدا يا فيكار». رد سكيغس ثم تبعه آخر: «ولا أنا».

كانت صدمة قاسية بالنسبة لي أن ألقى كل ذلك الغدر. تنقلت بنظري بين وجوه الرجال الثلاثة فلم يجب أحد، بل سمعت تمتمات خافتة يتبادلونها. لحظة قاتمة انهار فيها كل شيء. لا بد أنهم وقعوا تحت تأثير خصمي، ذلك الملحد. أجل، رأيته مرارا يتكلم معهم بصوت خافت خلال رحلتنا، ولا بد أنه نجح في بث سمومه في عقولهم.

لكنني لم أتراجع. رفعت رأسي بشموخ وقلت لهم: «حسنا إذن، سأذهب وحدي».

«هيا اذهب يا فيكار». قال بوتر متهكما.

وعندما اقتربت من حقيبة كانت قد سقطت من أحد البغال عليّ أجد فيها ما يعينني من مؤونة على مشاق رحلتي

وحيدا، قفز معترضا بفظاظة لا مثيل لها مصرا أن نحصي كل شيء بدقة كأنني أريد سرقته. لم يكن قد تبقى ما ينفع، أشياء مثل أغطية طاولات وكراسٍ مطوية وبعض الأواني. كان هناك زجاجة براندي فاخرة لكنها تهشمت إلى جانب صندوق سجائر كوبي تناثرت محتوياته تحت المطر. أما الطعام، السلمون المجفف والمعلبات واللحوم المقددة والسكر فكله نفد قبل أيام. عد بوتر بجشع ما أخذته بدقة متجاهلا أن من حقي الحصول على حصة أكبر من غيري، بما أني الوحيد الذي سيستمر في البحث عن جنة عدن. ولولا بخله وطمعه لما أخفيت علبة الثقاب في جيبي عندما أدار ظهره ولا علبة السكر الإضافية التي تمكنت من دسها تحت معطفي.

وهكذا حملت خرج البغل على كتفي وأدرت ظهري لهم ومشيت. وعندما التفت إلى الوراء بعد مسافة قصيرة كانوا قد ذهبوا ولم يبق في المكان سوى بضع حقائب ملقية على الأرض ووسطها كرسي كان قد فتح أثناء البحث في مخزون المؤن ليبقى هكذا كأنه شاهد يطل نحو الأفق البعيد. ورغم سعادتي لمفارقة رفقة السوء إلا أن الحزن والضيق أطبقا على صدري وأنا أجد نفسي وحيدا في تلك الأرض الموحشة. حاولت الترنم بأناشيد لأشد من عزيمتي لكن صوتي تلاشى مع الريح القوية.

اقتربت من طرف الجرف الآخر فبدأ المشهد المحجوب يتكشف لي شيئا فشيئا. توقف المطر وانقشعت الغيوم، وعندما وصلت إلى الحافة حيث تنحدر الصخور كأنها شلال مياه تمكنت من الرؤية بوضوح ولمسافات بعيدة. كل الجبال والصخور في هذه الأرض متشابهة، مثلها مثل كل ما رأيناه خلال رحلتنا، وما من

شيء يمكن أن يكون علامة ترشدني إلى أين أذهب. قاومت اليأس وأخذت أصلي بأعلى صوتي.

«أتوسل إليك أيها الرب أن ترشدني إلى طريقي». وانتظرت، ثم صليت ثانية وانتظرت، وثالثة وكنت أنتظر... لكن لم يأتني جواب، لا إشارة ولا ضوء أو وميض يدلني إلى جهة ما. شعرت أن الجبال ترمقني بحزن على مشارف تيه لا ينتهي.

لم أكن من ضعيفي الإيمان، أولئك الذين يتسرب الشك إلى قلوبهم سريعا، لكنني في تلك اللحظة شعرت بالشك كتيّار يجتاح كياني أو سمّ ينتشر في دمي ويزعزع من يقيني. هل كنت مخطئا منذ البداية؟ هل كل تلك السنوات من الدراسة والبحث والعمل المضني ليست سوى أوهام؟ شعرت بأني أقترب من هاوية أفقد فيها كل ما لدي فقررت أن أوصد على عقلي كي لا يتسرب إليه ما يخيفني. لكن عبثا، فقد سيطرت علي رؤيا مخيفة بأن العالم فقد دليله ومن يوجهه، وأن الأرض لا يحكمها سوى المصادفة المجنونة. أنا نفسي لا شيء، وهمٌ، أو ذرة غبار في مهب الرياح. تداعت أفكاري المحمومة وشعرت بروحي تستسلم وكأنها تسقط في الهاوية المفتوحة أمامي.

تركت تلك القمة المقيتة ورحت أنزل، لا لأي هدف، بل ببساطة بحثا عن مأوى يقيني في العراء الموحش. بللني المطر وكنت أرتجف بردا وكان من المستحيل البقاء على ذلك الجرف والريح تعصف. سلكت المنحدر إلى جهة اليسار ظانا أنه أسهل، لكن خاب ظني سريعا إذ كلما كنت أتقدم قليلا أجد صخورا تسد الطريق في وجهي فكان علي العودة إلى الوراء لأبحث عن مسلك جديد. وعندما نال مني الوهن وكادت قواي تخور أصبحت الأرض

تحتي هشة ورطبة فرحت أفتش عن أي بقعة جافة يمكن أن أرتاح فيها قليلا. وعندما عثرت أخيرا على مساحة صلبة جمعت بعض العيدان الجافة، كومتها وحاولت أن أشعل نارا بعدة أعواد ثقاب، لكن عبثا فكل شيء كان رطبا. لم أجد عندها سوى أن أصنع فراشا من أوراق الشجر والحشائش كما كان الأسود الهجين يفعل. تمددت وفتحت صفيحة خضار وأكلت ما فيها فاسترد جسدي بعض قوته.

لم أكن أريد سوى أن أنام، وأطبق يأس قاتم على روحي إلى درجة أنني لم أبالِ إن كنت سأصحو ثانية أم لا. لكن النوم صعب وأنا أرتجف بردا، وكل ما في الليل أسمعه صاخبا أعلى مما اعتدت سماعه في خيمة. يوقظني في لحظة طنين حشرة تحوم عند أذني، وفي لحظة أخرى قطرة ماء تسقط على وجهي، والأسوأ أصوات الزواحف الخافت في مجاهل الأرض تحتي. حاولت إقناع نفسي بأنها ليست سوى أصوات طيور أو فئران، لكن لم يفارقني الخوف من أن تكون عقارب أو أفاعي تزحف نحوي أو حتى واحدا من تلك الذئاب المخططة كالنمور. لماذا يحدث لي هذا؟ راودتني أفكار سوداوية لم أستطع التخلص منها وأنا أتساءل، هل ارتكبت خطيئة ما أُعاقب عليها الآن؟ لم أجد في حياتي ما قد يغضب الرب. قضيت عمري وأنا أتمسك بالفضيلة والاستقامة، فكيف يكافئني الرب هكذا؟!

كنت لا أزال صاحيا عندما شممت رائحة خشب يحترق كأنها نار تأتي من مخيم. تنبهت حواسي التي تلقفت الرائحة بلهفة فجمعت أشيائي ومشيت أتبع مصدرها، وبعد مسافة بدأت أصوات بشر خافتة تتناهى إلى مسامعي. أيكونون مجموعة رحالة

مـن بعثـة أخـرى أرسـلهم الـرب إلى هنـا لإنقـاذي؟! وعندمـا اقتربـت أكـثر رأيتهـم مـن بـين الأشـجار يجلسـون حـول نـار متوقـدة، بوتـر وساسـة البغـال يتناوبـون عـلى شرب جرعـات مـن زجاجـة برانـدي. مـن أيـن لهـم النـار! أليـس مـن المفـترض أن يكونـوا في الجهـة الأخـرى مـن الجبـل. لعلهـم ضلـوا الطريـق أيضـا.

شيء مـا في رؤيتهـم مجتمعـين هكـذا جعـل روحـي تسـتنهض مـا فيَّ مـن عزيمـة وإيمـان. إنهـم هنـا، هـؤلاء أعـدائي يحتسـون البرانـدي وينعمـون بالـدفء. الدكتـور تومـاس بوتـر سـبب كل مصائبـي ولـولاه لكنـت الآن قـد وجـدت جنـة عـدن. أجـل أرى الآن كل شيء بوضـوح ومعنـى الكـوارث التـي لحقـت بنـا. فكيـف لبعثـة تحمـل رسـالة مسـيحية وتنشـد أكـثر الأمكنـة قداسـة أن تنجـو وفيهـا مـن يمثـل الـشر والفسـاد؟! كيـف لي أن أبحـث عـن الفـردوس بمعونـة شـيطان!

الآن أعـرف رسـالتي. يجـب أن أحاربـه. سـأجد جنـة عـدن لا شـك لـدي في هـذا، لكـن ليـس الآن. عـلي أن أنتظـر الوقـت المناسـب، فالشـيطان أمامـي ولـن أتخـلى عـن واجبـي في القضـاء عليـه.

الدكتور توماس بوتر، يناير 1858
19 ديسمبر (يُتبع)

اعتقـدت أننـا تخلصنـا مـن ويلسـون، لكنـي كنـت مخطئـا. فبينـما كنـت أسـتمتع بالبرانـدي ودفـء النـار سـمعت صوتـه الكريـه في الظلام. تقـدم وهـو يناشـد الرجـال الذيـن معـي أن يتخلـوا عـن الشـيطان ويلعنـوه قبـل فـوات الأوان... إلـخ. صرخ بـه سـكيغس أن يذهـب بعيـدا ورمـاه هوبـر بحجـر، لكنـه ركـض وخطـف فرعـين مشـتعلين مـن النـار وهـرب راكضـا.

تيموثي رينشو، يناير 1858

لم أعتد على القيام بجهد عضلي كبير من قبل، ومرت لحظات كثيرة لعنت فيها اليوم الذي استدرجت فيه إلى مرافقة هذه الرحلة إلى تاسمانيا. ثم أتى صباح فوجئت فيه أني أصبحت معتادا على هذا النوع من المشي الطويل، ساقاي تخطوان برشاقة راقص فوق الطين وبين الصخور وأشعر بحالة من الرضى عن نفسي. حالة غريبة من الرضى في أن يكون وجودك وأنت تسير رهن يقظتك وحذرك من زلة قدم أو من أفعى متربصة، ومع كل ميل تقطعه من المسافات الممتدة أمامك تزداد ثقتك بنفسك.

مفاجأتي الأخرى كانت جمال هذه الأرض الذي وجدت نفسي فيها، جبالها الشاهقة وأنهارها المتدفقة وأشجار غاباتها الغريبة. كم هي جميلة الكناغر حين أراها عند الغروب تقفز هنا وهناك برشاقة أدهشتني. ومع الوقت رحت أصحو كل يوم وشعور جديد يغمرني أني هنا في وطني، وبدأت أدرك كم كنت محروما من متعة الوجود في الطبيعة في إنجلترا.

ثم كانت رحلة ويلسون تلك إلى الجبال. آخر ما أذكر منها أني أتعثر وأسقط ثم أشعر بالعالم يفلت مني بسرعة نحو الأعلى ولا أستطيع الإمساك به إلى أن شعرت بجسمي يرتطم بالأغصان

والأوراق. بعد ذلك وجدت نفسي أنظر إلى السماء، جسدي مبلل وأنا ممدد فوق فراش من أوراق الشجر وجثث البغال. كان اثنان أو ثلاثة من الحيوانات فقط على قيد الحياة كما علمت من النهيق الخافت.

حاولت تحريك أعضائي بحذر ومع كل حركة اكتشفت إصابة ما. وعندما تمكنت في النهاية من الجلوس تبين لي أني مصاب في رجلي ورسغي وأضلاعي وظهري ومؤخرتي وفي جبهتي أيضا. اللعنة كيف خطر لذلك الوغد أن يدفعني بفوهة بندقيته. لا أدري من ألوم، ويلسون الذي قادنا إلى تلك القمة بتهور أم كرومويل دليلنا الذي تركه يفعل ذلك دون أن يرشده، أم بوتر الذي أجفل البهائم بعنفه ورعونته، أم ساسة البغال الذين تركوا دوابهم تتزحلق إلى الهاوية، أم هوبر الذي أراد أن يلعب دور القاتل ودفع بندقيته في صدري! كم أنا محظوظ أني ما زلت على قيد الحياة، سقوطي أولا فوق الأغصان ثم فوق هذه الحيوانات أنقذني من موت محتوم. نهضت على قدمي فاستطعت المشي ولو بمشقة، ونظرت إلى الأعلى ولم أرَ أحدا من الآخرين رغم أني صحت عليهم، ولكن دون أن يأتيني جواب. يبدو أن رفاقي الرحالة ذهبوا وأنا هنا وحدي. لا جدوى من التفكير في أي شيء سوى أن أبذل ما بوسعي للحفاظ على نفسي. وأول ما كان علي فعله أن أجد مأوى. حالفني الحظ أني وجدت خيمة في خرج أقرب البغال إلي. تحاملت على جروحي وبشق الأنفس استخرجتها وتمكنت من نصبها، ليس كما ينبغي ولكن بما يفي بالغرض. لم أواجه مشكلة بخصوص الطعام إذ إن حمولة البغال من

المؤونـة كانـت متناثـرة عـلى الأرض، وعـثرت عـلى أعـواد ثقـاب وورق فأشـعلت نـارا قبـل أن يحـل الظـلام. وهكـذا جلسـت أمـام خيمتـي قـرب النـار آكل السـلمون وقطعـة مـن صـدر البـط مـع زجاجـة شـمبانيا سـلمت مـن الكارثـة.

حاولـت أن أبقـي النـار مشـتعلة طـوال الليل لعـل دخانهـا ورائحتها ترشـد الآخريـن إليَّ. لم يخـب ظنـي، فمـع الصبـاح سـمعت وقـع خطـى تقـترب بـين الأشـجار. توقعـت أن يكـون رفـاق الرحلـة جميعـا، لكنـي فوجئـت بواحـد منهـم فقـط، الدليـل كرومويـل.

«شكرا للرب». هتفت عندما رأيته. «أين الآخرون؟».

لم يجـب بـل اقـترب وجلـس أمامـي مصوبـا نحـوي نظـرة متفحصـة وقـال: «أخـبرني شـيئا واحـدا فقـط. لمـاذا تعاركـت مـع هوبـر؟».

«أي سؤال غريب هذا! لم يكن بوسعي أن أدعه يقتلك».

انقبـض وجهـه للحظـات كأنـه يعـاني مـن ألم أو قلـق ثـم مـد يـده ولمـس ذراعـي. نظـر بعـد أن اسـترخت ملامـح وجهـه وتـلاشى عبوسـه إلى الجـروح الموزعـة عـلى جسـدي. «رينشـو، هـل تسـتطيع المـشي؟».

«بالكاد».

«وهل ستستطيع بعد فترة؟».

«أظـن ذلـك، لكنـك لم تخـبرني بعـد عـن الآخريـن. هـل هـم قادمـون؟».

نظـر إلي كأني سـألت أكـثر الأسـئلة حماقـة: «انسَـهم.. لا فائـدة منهـم».

«ماذا تعني؟ هل تعلم أين هم؟».

«ذهبوا».

«لا بد أنهم سيأتون للبحث عني».

«لـن يأتـوا، انسَـهم». شيء مـا في نظرتـه جعلنـي أتـردد في الإلحـاح عليـه بالسـؤال. اقـترب مـن الخيمـة وأخـذ يفـك الحبـال التـي تثبتهـا. «إنهـا قريبـة جـدا مـن البغـال. سـتفوح رائحـة جثثهـم قريبـا».

كل حركاته وتعليقاته بدت لي ألغازا. «ألن تبقى؟».

«لـدي مـا أفعلـه». قـال وهـو يهـز رأسـه ثـم بـدأ بالعمـل رافضـا أي مسـاعدة منـي. نقـل الخيمـة إلى مـكان أبعـد بجانـب سـاقية صغـيرة ثـم أخـذ يحمـل الأشـياء المتناثـرة إلى جانبهـا جيئـة وذهابـا، حتـى جمع كومـة مـن المؤونـة والمعلبـات وكميـة كبـيرة مـن الحطـب. جلـس بعـد ذلـك قـرب النـار وانكـب عـلى صناعـة سـهام بـرؤوس حـادة. أخـذ ثلاثة منهـا واختفـى بـين الأشـجار ليعـود بعـد وقـت حامـلا كنغـرا صغـيرا اصطـاده للتـو. سـلخه بسرعـة وقطعـه ثـم راح يشـويه فـوق النـار، بعـد أن مـلأ جوفـه الفـارغ بالرمـاد السـاخن، وعندمـا تذوقتـه فوجئـت بـأن طعمـه لذيـذ فأكلـت بشـهية بعـد أيـام طويلـة لم أتنـاول فيهـا وجبـة طازجـة. بعـد أن انتهينـا مـن الأكل أشـار إلى السـهام المتبقيـة.

«احتفـظ بهـذه في حـال واجهـت أي خطـر، كذئـاب أو ضبـاع مثـلا. ربمـا تجذبهـم رائحـة البغـال». رسـم بعدهـا مـا يشـبه خريطـة عـلى الأرض. «عندمـا تتحسـن عليـك أن تسـير بهـذا الاتجـاه، هنـا في الممـر بعيـدا عـن الشـمس، وأهـم شيء أن تلـزم هـذه الجهـة مـن الجبـال. إيـاك أن تسـلك طريقـا آخـر حتـى لـو بـدا لـك أسـهل. هـذا سـيوصلك إلى حيـث الرجـال البيـض». نهـض وقـال: «والآن عـلي أن أذهـب».

«ألن تعود؟».

«لـدي مـا أفعلـه. عندمـا تتحسـن اسـلك الطريـق الـذي أرشـدتك إليـه وسـتصل إلى جماعتـك». ودون أن ينطـق بكلمـة أخـرى اسـتدار ومـضى.

الدكتور توماس بوتر، يناير - فبراير 1858
20 يناير

صباح دافئ ومشمس. أوقدت نارا جديدة بدل التي سرقها ويلسون، جلست في الشمس وأعددت الشاي لأرتاح من عناء الليلة الماضية. فكرت بوضعنا الحالي. وافق الجميع على أن أكون قائدا جديدا للبعثة، وكان علي أن أجد طريقة للعودة من هذا القفر المجهول. ليس من الواقعي أن نعود من ذات الطريق التي أوصلتنا إلى هنا عبر الجبال الوعرة، لهذا قررت أن نسير عبر هذا الوادي متبعين مجرى النهر.

انطلقنا دون تأخير ووجدنا ممرا بمحاذاة النهر. ليس اتجاها مثاليا، لكنه السبيل الوحيد. اجتزنا مسافة طويلة عبر الوادي، واكتشفنا أن ويلسون يتبعنا على بعد ميل وراءنا.

24 يناير

يوم آخر سرنا فيه بشكل جيد. لكن بعد أن قطعنا مسافة من الأرض المفتوحة علنا نجد مستوطنة أو أي مكان مأهول قررت أن نعود ونسلك طريقا آخر لأن أحراشا كثيفة اعترضتنا. بعد مسافة رأيت أن الطريق مسدودة بالجبال.

زيارة أخرى في الليل من ويلسون الذي صاح على الآخرين بهياج أن لعنة أبدية ستلحق بهم لأنهم يخدمون وكيل الشيطان... إلخ.

29 يناير

التقى النهر مع آخر أكبر. يمكن أن نتبع المجرى إلى مصبه على ساحل البحر. ولكن أي ساحل؟

تكاد المؤونة تنفد، وقررت أن نقتصد بها مما جعلنا نجوع. مرة أخرى انعطفنا لنعبر منطقة مفتوحة وعدنا أدرجنا بسبب الأحراش الكثيفة.

ما من أثر لويلسون منذ يومين. هل مات؟

3 فبراير

اصطاد سكيغس كنغرا صغيرا فقمنا بشيه على النار، لكننا أكلناه بصعوبة لأنه نصف نيء.

لم يمت ويلسون وظهر مرة أخرى في الليل مهددا أننا سنحاكم بتهمة الخيانة لدى وصولنا إلى هوبارت. أطلق هوبر النار في الهواء فهرب بعيدا.

6 فبراير

لم نعد نتقدم بسرعة بعد أن أُنهكت قوانا بسبب شح المؤونة. اليوم نفدت آخر كمية من السكر، واضطررت لتقليص الحصص الغذائية التي كانت بالأصل غير كافية. ما كان يجب أن أدع ويلسون يأخذ أي شيء، فهو الذي ترك المجموعة ولا يستحق أن نعطيه.

ما من أثر لأي مستوطنة أو طريق... إلخ. حتى على مسافات بعيدة. أشك أن أحدا وطئ بقدميه هذه الأرض سوى سكانها الهمج الأصليين. هطل المطر في الليل للمرة الثالثة ولم ينفعنا الاحتماء بالأشجار. تبلل كل شيء وأصبنا جميعا بالزكام.

12 فبراير

أُنهكت وخارت قواي تماما حتى بدأت أفقد القدرة على التفكير. أمشي وأنا أتخيل أني أشم روائح شواء من شدة الجوع وأرى في هذياني الدهن يقطر من اللحم المحمر... إلخ. من أين تأتي رائحة كهذه! لا أحد على بعد أميال من هنا سوى ويلسون الذي لا يملك بندقية ولا يعرف الصيد.

13 فبراير

اكتشاف أصابني بالهلع في الصباح ونحن نجمع أغراضنا بعد الإفطار. صندوق الذخيرة اختفى. بحثنا في كل مكان دون جدوى. كان الرجال يحملونه معهم ولا يمكن أن يكون سقط، فكيف اختفى؟! ويلسون؟ هذا مستبعد.

كارثة... لم يعد معي سوى ما في جيبي، 12 طلقة بندقية و7 طلقات مسدس.

14 فبراير

يوم فظيع. ذهب سائس البغال لإحضار ماء من أجل الشاي ولم يعد. بحثنا عنه فوجدنا دلو الماء فارغا قرب النهر وقربه حجر ملطخ بالدم.

شعرت بغضب شديد... من فعل ذلك؟ أحد الذئاب؟ مستبعد.

قال هوبر إنه يمكن أن يكون كرومويل، لكني استبعدت ذلك لأن الهجين ليست لديه القدرات العقلية لاكتشاف مكاننا. وعدا ذلك لا يمكن أن يكون على قيد الحياة كل هذا الوقت دون مؤونة. لا بد أنه ويلسون.

قررت البحث عنه ووجدته بسهولة. كان يختبئ بين الأشجار على بعد بضعة أميال في حالة مزرية، نحل كثيرا وفقد القدرة على التركيز وعيناه شاردتان. صنع صليبا من عودين وجلس يهذي وينزل اللعنات... إلخ. عندما رآني أقترب انتفض فجأة وابتعد باتجاه النهر وراح يطلق عباراته المعهودة. كنت أهم باللحاق به لكني عدلت عن الفكرة.

صحت أسأله مهددا إن كان قد سرق الذخيرة وقتل فليندر سائس البغال. فوجئ لوهلة ثم بدا عليه السرور وقال إن هذا عقاب الرب الذي لا مفر منه... إلخ. تركته ومضيت متشككا بأنه هو من فعلها. لا يمكن له أن يتغلب على رجل قوي مثل فليندر بكل هزاله وضعفه. من إذن؟ الذئاب؟

15 فبراير

تفرع الممر إلى فرعين بعد بداية مسيرنا هذا الصباح. أول إشارة نصادفها قد تدل على اقترابنا من منطقة مأهولة منذ أن غادرنا جبال ويلسون. سرنا في الطريق وأنا قلق من أن نفقد الاتجاه الصحيح أو أن يكون قد فات الأوان.

17 فبراير

أكثر أيامنا رعبا حتى الآن. كنت أغلي بعض الماء لأتناوله مع الفطور بعد أن نفد الشاي فسمعت صراخا. ركضت بين الأشجار فرأيت بيتس مطروحا أرضا وقضيب حاد مغروس في بطنه، تبينت أنه سهم. سمعت صوت خطوات تبتعد مسرعة فلحقت بها ورأيت قامة رجل يركض ويختفي بين الأشجار لكنه لم يكن ويلسون. الأسود الهجين. لم أصدق عيني. أطلقت عليه النار لكني أخطأته.

أعطيت تومي رايت بندقية وتركته مع الجريح بيتس وأخذت معي سكيغس وهوبر وهوجس لنطارد الهجين. لم يكن ذلك سهلا، كنا نتبع أثره إلى الساقية ثم يختفي تماما، وكل محاولاتنا باءت بالفشل إذ كنا نصطدم بالنبات الكثيف والأشواك. تملكني القلق وأنا أرى كيف يمكنه أن يتخفى في الأدغال المنتشرة دون أي أثر. يستطيع أن ينقض علينا بسهامه متى أراد. لم أجد أمامي سوى العودة وعزمت على توخي اليقظة والحذر طوال الطريق. لكن أكثر ما حيرني: من أين لذلك الهجين ملكات عقلية ومهارات لازمة ليتبعنا ويراقبنا هكذا! أي لغز هذا! هل تكون مؤثرات المكون الأبيض في عرقه قد طغت على بعض الدوافع والخصائص البدائية؟ أمر يستحق الدراسة والبحث.

قبل حلول الليل شممنا رائحة نار وشواء. لا يمكن أن أتساهل مع استفزاز كهذا، ولا بد لي من مفاجئة الهجين الأسود، أقتله وآكل شواءه. وهكذا تبعنا الرائحة في الظلام أنا ويتبعني كل من هوبر وسكيغس.

واجهنا صعوبة ونحن نمشي. الليل والقمر هلال صغير، لكننا لمحنا بعد عناء وهج نار متوقدة. لم يكن الهجين لسوء الحظ، بل ويلسون جالسا وحده قرب النار وهو يستنزل اللعنات علي كالعادة. فوجئت أن سهام الهجين لم تقتله.

تركته وتابعت المسير فشممت رائحة شواء ودخان، لكني لم ألمح أي نار. بحثنا في الظلام ونحن نتبع الرائحة حتى وجدنا في النهاية نارا صغيرة مخفية في حفرة. ما من أثر للهجين، لكن في طريق عودتنا انهالت علينا السهام لا ندري من أين. أصيب هوبر إصابة طفيفة. أطلقت النار وحاولت مطاردته لكن ذلك لم يكن ممكنا فعدت أدراجي وانضممت إلى الآخرين.

قمت بتنظيم نوبات حراسة في الليل، ومع ذلك تعرضنا لهجوم آخر. مات بيتس في الليل. أي خسارة، لكن على الأقل سيجعل نقصاننا فردا، نزيد من حصص الطعام قليلا.

الكاهن جيفري ويلسون، فبراير 1858

لم يتبق لدي سوى القليل أسدُّ به رمقي.

لم أرَ الشيطان لكنني كنت أشعر بوجوده، في الصداع وفي الأصوات التي أسمعها في الظلام، وفي الوحول التي أخوض فيها، وفي صورة اللحم المشوي التي لا تفارقني. يوسوس لي بأني على خطأ ويوهمني أحيانا بأنه ابتعد عني، لكنني دائما أستعين بالصليب لأتقي شره. بوتر ورفاقه وكلاء الشيطان، وكانوا حين يبتعدون عني ليومين ولاأرى سوى آثار أقدامهم يبلبلني الخوف من أني فقدتهم. كانت أوقاتا عصيبة تطغى فيها صورة بوتر في مخيلتي وهو جالس في غرفة طعام فاخرة يتناول لحم البقر المشوي مع البطاطا والجزر والفاصولياء أو فخذ خروف مشوي مع خبز مدهون بالزبدة وبعده طبق من الحلوى، كل ذلك وهو يتفوه بالأكاذيب عني ويقول إني مت، وإنه ما من جنة عدن هنا. وبعد وقت أعود لأراهم ثانية يسيرون في حالة لا تقل سوءا عني. إلى أن علمت من بوتر نفسه أن الرب لم ينسني وأن عقابه نال منهم وأودى بحياة سائس البغال فعادت سكينة الإيمان إلى روحي.

في تلك الليلة رأيت شيئا عجيبا لم أتبين إن كنت أراه في الحلم أم في اليقظة. كروميل دليلنا الذي اعتقدت أنه مات منذ زمن

ظهر فجأة من حيث لا أدري ووقف قرب النار وفي يده رزمة من السهام الحادة. رمقني بفضول للحظة فخلت أنه أتى لسرقة السكر. «ماذا تريد؟».

«لماذا لست مع الآخرين؟».

«لأنهم أعوان الشيطان. إنهم أعداء الرب». أمسكت بخرج البغل الذي أخفي فيه السكر وضممته إلى صدري، لكنه لم يبال، بل استدار ومضى. ثم فجأة خطرت لي فكرة. ناديت عليه: «هل أنت يده على الأرض؟ هل أنت من قتل فليندر؟».

سمعت ضحكته الخافتة في الظلام فعلمت أني على حق. وفي الصباح سمعت صراخهم من جديد لدى مقتل سائس بغال آخر. هذا جزاؤهم. ألم أحذرهم من العقاب إن لم يلعنوا ذلك الشيطان ويتخلوا عنه؟ لو أنهم فقط أصغوا إلى نصيحتي لترفّق بهم الرب. مصيرهم هذا ولحمهم يتمزق بسهام يد الرب على الأرض يمنحني اليقين بأني على حق.

لكن الخوف عاد إلي اليوم مرة أخرى. تبعتهم بعد الظهر وهم يصعدون التلال في طريق أرهق ساقيّ الضعيفتين، لكني تحاملت على نفسي وتابعت حتى رأيتهم يتوقفون عند إحدى القمم ويصيحون مهللين وملوحين بأيديهم ابتهاجا. أي فرح يصيبهم لا بد أن يكون شرا. أسرعت الخطى وحاولت اللحاق بهم، لكن المسافة إلى النقطة التي كانوا يقفون عندها تطلبت وقتا طويلا.

وقفت ورأيت البحر، هناك على بعد بضعة أميال في آخر المنحدر. هذا هو سبب ابتهاجهم إذن! كم كان غريبا أن أرى البحر بعد كل ذلك الوقت من الضياع. حيرني الأمر للحظات، فالمشهد الممتد أمامي كله انحدارات وجروف حادة مع جزء من خليج

لم يظهر كله دون أي أثر لطريق أو إنسان. لكن ما الذي هناك؟ دققت النظر فتبين لي من وراء قمم أشجار في البعيد ما يشبه منصة أو لسانا ممتدا في البحر. أيكون سبب تهليل ذلك الشيطان وأعوانه؟ أيكون رصيفا؟ إنه يشبه شيئا كالمرسى مع أني لم أرَ أي شيء يدل على وجود مناطق مأهولة في الجوار. أي نذير شؤم هذا! قد يكونون الآن في هذه اللحظة يتحدثون إلى غرباء ويتفوهون بأكاذيب عن أمور حدثت وأخرى لم تحدث وينشرون إشاعاتهم وافتراءاتهم.

أحتاج إلى القوة، السكر لدي نفد عدا حبيبات تجمعت في قعر الكيس. أكلتها كلها ولحست الكيس أيضا فشعرت بشيء من القوة تتسرب إلى عروقي، ثم أخذت أصلي بتضرع كما لم أفعل منذ أيام. استنهضت ما منحتني الصلاة من عزيمة وبدأت أسير نزولا في المنحدر.

الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير

معجزة، معجزة!... البحر ورصيف أيضا؟ وقفنا جميعا نصفق ونصيح كالأطفال. أملنا بالخلاص.

اقترح توم أن نأكل كل ما تبقى لدينا من طعام دفعة واحدة، لكنني توخيت الحذر وسمحت بتناول ملعقتين من علبة الخضار لكل واحد.

رحنا نركض بأقصى ما نستطيع رغم أن الممر أخذنا عبر غابة صغيرة، ومع الوقت اتضح لنا أن المسافة أطول مما حسبنا من أعلى التلة. أبقيت المسدس جاهزا في يدي خشية أن يظهر الهجين في أي لحظة، الشمس على وشك المغيب ولم نصل إلى أرض منبسطة حتى غروبها تماما. ارتفعت معنوياتي وأنا أقترب من الشاطئ الرملي وأشم رائحة الملح والماء، وأكثر ما أثارني أننا عثرنا على ممر. ممر حقيقي، عريض ويشبه طريقا من صنع البشر. رحت أحث الخطى بساقين منهكتين متلهفا إلى أن وصلنا إلى ذلك الرصيف الممتد في ضوء المساء الشاحب.

نظرت حولي وطغى شعور الخيبة. كل شيء ساكن وصامت، لا ضوء ولا أثر لأي بشر، فقط صوت الأمواج ورائحة الخشب

المتعفن. تقدمت بضع خطوات فوق الرصيف فرأيت ألواح الخشب تالفة ومحطمة. غرقنا جميعا في الصمت. لم أكن أريد الاستسلام أو التصديق فرحت أصرخ وأنادي، لكن تردد صوتي في الفراغ دون إجابة. بحثنا في الجوار والقلق يستبد بنا. كل ما عثرنا عليه من آثار البشر بقايا قارب صيد حيتان وكومة حبال بالية وعظام. ليس المكان سوى محطة صيد مهجورة. ما أصعب الخذلان بعد أن يبني الإنسان آماله ويراها تنهار دفعة واحدة.

قال سكيغس إن المكان هُجر منذ زمن بعيد، وهذا يعني أن هناك مسافات شاسعة تفصلنا عن أقرب منطقة مأهولة. كلنا اكتشف أي كارثة حلت بنا، نفد طعامنا وخارت قوانا ولم نعد نقدر على المسير لمسافات طويلة، عدا ذلك الهجين الذي يتربص بنا. تحدث هوجس عن أمله بمرور سفينة ما من هنا فنبهته أنها محض أوهام. «أي قبطان مغفل سيحضر سفينته إلى مكان مهجور كهذا!».

خيم علينا صمت ثقيل. بدأت أحضر لقضاء الليلة بداعي الضرورة لا الأمل في أي خلاص. أوقدنا نارا على أرض منبسطة وتناول كل منا ملعقتين من علبة الخضار. لم يبق لدينا سوى ثماني ملاعق فقط، وطغى علي شعور بأن هذا سيكون مخيمنا الأخير قبل أن نهلك جميعا في هذا المكان.

أيقظني صوت إطلاق نار وصراخ بينما كنت أغط في نوم عميق حالما بوجبة من لحم البقر المشوي والبطاطا والجزر والملفوف وصلصة الدهن المتبل. قفزت مذعورا فرأيت توم الذي كان يحرس مُلقى على الأرض وسهم مغروس في صدره بينما وقف الهجين مصوبا سهمه إلي. تحركت بسرعة فأخطأني السهم وتمكنت من إطلاق النار، لكنه كان قد ابتعد في الظلام.

اخترق السهم صدر توم حتى القلب ولفظ أنفاسه الأخيرة خلال لحظات. ذلك الهمجي ينوي القضاء علينا جميعا، لكني حتى لو كنت سأموت هنا فلن يكون ذلك دون أن أنتقم منه. لا بد من طريقة لمطاردة ذلك الهمجي المسخ وقتله.

بدأت مع سكيغس وهوبر وهوجس بالبحث. تبعنا أثره ونحن نحمل شعلة من النار، لكن سرعان ما فقدناه مع تصلب الأرض. لم ندر ما نفعل. فكرنا أن نتوزع في أكثر من مكان كي لا يعثر علينا. سمعنا صوت شيء ما زاحف يقترب.. فأر؟ سحلية؟ أم أنه الهجين الأسود ذاته؟ اضطربنا وهمَّ هوجس بإطلاق النار فمنعته. لم يتبق لدينا سوى طلقة بندقية واحدة وطلقتي مسدس.

عدنا في النهاية إلى النار لا أحد منا يجرؤ على النوم. اتفقنا على دفن توم كي لا تنهشه الطيور أو الوحوش... إلخ. إلخ. لم يكن قد تبقى من لحم على جسده سوى القليل على الكتفين والحوض والعنق، لكن مع هذا لن توفره الضواري. أخذناه إلى رمل الشاطئ حيث الأرض رطبة ويسهل علينا الحفر. رحنا نحفر على ضوء شعلة نار صغيرة، ولم يكن لدينا أي معول أو أداة أخرى فنبشنا الأرض بأيدينا إلى أن تعذر الحفر عندما اصطدمنا ببعض الجذور. وضعناه وبينما كنا نردم الرمل فوقه صاح هوجس: «انظروا، هناك أحد ما عند النار».

نظرت فرأيت رجلا انعكس ظله بضوء النار. بدا واقفا يمسك شيئا ما في يده فركضنا والبنادق في أيدينا. لم يكن الهجين، بل ويلسون وقف يلتهم ما تبقى في علبة الخضار الوحيدة لدينا. ركضت نحوه لكن هوبر كان أسرع وضرب يده لينقذ العلبة، إلا أنه كان قد أتى على كل ما فيها. لم أصدق عيني، العلبة فارغة. أكل كل الملاعق الثماني.

«أنت لص قذر».

لم يبال، بل قال بوقاحة إن هذا الطعام من حقه وهو منحة الرب له، وإن من واجبه أن يأكله حتى لا يقع في يد الشيطان.

«دعنا نشنقه». قال هوبر ببساطة.

أعجبتني الفكرة وخطر لي أن نستخدم الحبل عند الرصيف. كنت سأهم بذلك لولا هوجس الذي بدأ يقول إن ما سنفعله ضد القانون وإنه ليس من حقنا أن نشنقه. من يهتم لذلك، سنهلك جميعا قبل أن يطأ هذه الأرض أي قاضٍ، ثم إن الجميع رآه يسرق علبة الخضار. رأيت لاعتبارات الأصول أن نجري له محاكمة أولا، ووافق الجميع عدا ويلسون.

وباشرنا على الفور. وضعنا ويلسون في مؤخرة القارب المهجور وجهه يواجه مقعد المجذف، واتخذت أنا موقع القاضي بينما لعب هوجس دور محامي الدفاع وهوبر المدعي.

بدأ هوبر بالأسئلة. هل قمت بأكل آخر ما تبقى لدينا من علبة الخضار وفي نيتك أن تجعلنا نموت جوعا؟ إلخ... إلخ. قال ويلسون إنه لا يعترف بالمحاكمة وإنها من فعل الشيطان، ولا تصح محاكمته إلا من قبل الملائكة وبرعاية السماء التي قدمت له علبة الخضار.. إلخ.

شعرت بالإرهاق، وقد بدأ الفجر يبزغ وهبت نسائم الصباح الباردة. قضينا الليل كله دون نوم، ولا بد أن نسرع في شنقه لنرتاح. اقترح هوجس أن نؤجل الحكم ولا نقوم بأي إجراء الآن، وقال هوبر إنه لا داعي للتأجيل. وفي النهاية نهضت وأعلنت أنه وقت النطق بالحكم. وسألت الهيئة عن رأيها.

هوبر: «مذنب».

سكيغس: «مذنب».

أنا: «مذنب».

هوجس: «أعتقد أنه يجب أن نتروى».

أعلنت الحكم بأن ويلسون مذنب حسب رأي الأغلبية، وأن المحكمة تحكم عليه بالشنق حتى الموت. ابتسم ويلسون وقال إنه لا يبالي لأنه مهما فعلنا فسيعود ليقوم حيا على الصدر المقدس... إلخ.

تفحصت الحبل فوجدته ثخينا جدا ويصعب التحكم به، عدا أنه ما من أحد منا يعرف كيف يصنع العقدة المطلوبة. ثم واجهنا مشكلة كيف سنرفعه. اقترح هوبر أن نلف الحبل حول عنقه ببساطة ثم نقوم بتعليقه على شجرة وشده حتى يختنق. «ربما لا يكون الأمر متقنا تماما، لكنه يفي بالغرض الذي نريد». وكالعادة أصر هوجس على فعل كل شيء على أصوله.

اقترحت أن نبني منصة من ألواح الخشب المتكسرة في القارب، نرفع ويلسون عليها ونربط الحبل حول عنقه ثم ندفعه ليسقط. وبينما كنت أتفحص الألواح لأرى كيف سنصنع ذلك، سمعته يصرخ: «معجزة! معجزة! شكرا لك أيها الرب. باركني بنعمتك».

ظننت أنه أصيب بالخبل لكن سكيغس صاح فجأة: «سفينة!».

استدرت ونظرت حيث أشار. كان الضباب قد تلاشى مع هبوب الريح فرأيت بعيدا عند طرف الخليج ما يشبه كتلة وخطوطا عمودية وأخرى أفقية. من المؤكد أنها صوارٍ، ولم تكن سفينة واحدة بل اثنتين. حاولت متابعة ما كنت أفعل لكن الأوان كان قد فات، فقد قفز ويلسون من القارب وهو يصيح وتبعه الآخرون راكضين باتجاه السفينة الغامضة.

لم أجد ما أفعله سوى أن أركض لاحقا بهم.

القبطان إيليام كويليان كيولي، يناير- فبراير 1858

لم يسبق لي أن صادفت بطئا كهذا. في البداية باريك كواين الذي اعتقدنا أنه ثروة تضاهي ذهبا لكونه رجل جمارك من آيل أوف مان، لكن تبين أنه شخص ظنون وطماع إذ خاف لو عرَّفنا على التاجر الذي نسعى إليه، أن نعقد صفقة معه من وراء ظهره ثم نتركه ونبحر دون أن يحصل على نصيبه. ومن ثم أتى المشتري جِد غراي الذي حظينا به في النهاية؛ رجل ضخم أحدب تسيطر عليه كآبة وقلق ويبدو كمن أُوسع ضربا بإطار باب خشبي كبير، وكان أكثر بطئا من كواين. كان يخشى أن نكون جواسيس للشرطة فيصحو في صباح يوم ما ليجد نفسه في سجن مرفأ آرثر. وعندما وافق في النهاية ودفع بعض المال كان علي أن أتخذ ما يلزم من الاستعدادات وأن أملأ السفينة بالمؤن؛ إذ لم أشأ أن أغامر بعد ما وجهناه من سوء الحظ. احتطت لأسوأ الاحتمالات، أن نرسو على شاطئ مهجور أو نضطر للاستدارة في عرض البحر ونولي الأدبار هاربين. وما إن انتهينا من كل ذلك حتى هبت تلك الرياح الجنوبية التي لم تتوقف، باردة تحمل كل ما سمعناه عن صيف تاسمانيا الغريب، وحجزتنا في عنق زجاجة ننتظر في المرفأ حتى بدأت أخشى أن يعود مسافرونا الإنجليز من رحلتهم ليعرقلوا

الصفقة كعادتهم. لكن لحسن الحظ تحولت الرياح إلى غربية فأبحرنا في ظهيرة ذلك اليوم بعد أن تولى كواين إنهاء معاملات الجمارك بطريقته.

استمرت الرياح نشطة فقطعنا المسافة بسلاسة، وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى المرسى الذي حددناه على الخريطة وأنزلنا المرساة في خليج قريب. توجب علينا انتظار يومين آخرين لتصل سفينة جِد غراي إذ لم يكن ممكنا أن نبحر سوية. وصلت السفينة في موعدها وبدأنا العمل على الفور، أمر كان يجب أن يحدث قبل سبعة أشهر في مالدون. وبما أن عدد البحارة لدي لم يعد يكفي لأعمال كهذه قمت شخصيا بالمساعدة. أخرجنا البضاعة من مخابئها وجمعناها في المخزن الرئيسي. قمنا بعد ذلك بحزم كل شيء بحبال لنتمكن من رفع الحمولة وإنزالها معلقة بحبل إلى قارب أسفل السفينة أعد خصيصا لهذا. كررنا العملية عدة مرات وحل الظلام مع الضباب قبل أن ننتهي فأجلنا العمل إلى اليوم التالي. ومع انقشاع الضباب في صبيحة اليوم التالي باشرنا العمل من جديد، وفي غمرة انهماكنا رأيت برو يتوقف وينظر نحو اليابسة بوجه اجتاحته تكشيرة أكبر من مدينة بيل.

«انظر يا قبطان، هناك على الشاطئ».

على الشاطئ الحجري أسفل الجرف حيث لم نتوقع أن نرى غير النوارس وطحالب البحر، رأيت مجموعة من الرجال في أسمال بالية يلوحون بأيديهم ويصرخون كأن حياتهم معلقة بنا. أي مفاجأة لعينة هذه! كل الفكرة من وراء مجيئنا إلى هنا، أن المكان مهجور وما من أحد فيه. «ترى من يكونون؟».

«سجناء فارون؟».

أي حظ لي؛ لا ينقصني سوى رهط من الهاربين القذرين! «أعطني المنظار».

عندها تلقيت الصدمة الثانية ذاك الصباح. ليسوا مجرد تائهين، بل هم مسافرونا الإنجليز ذاتهم، لا يمكن أن أخطئهم رغم أسمالهم ونحولهم. ويلسون يلوح كالأبله وبوتر بلحيته الحمراء أشعث كرجلٍ مجنون، وهوبر خادمه، ورجلان آخران، لكن ما من أثر لرينشو ولا لجيش بغالهم. كان ذلك أسوأ من سجناء فارين، كأنهم فعلوها عمدا فقط كي يفسدوا علينا كل شيء. شهور طويلة ونحن نقاسي الأمرين لنخفي عنهم أمرنا، وفي اللحظة التي اعتقدت أننا بعيدون عن عيونهم ينقضون علينا هكذا بمصيبة أوقعوا أنفسهم بها.

خلال لحظات كان غراي يصعد إلى السفينة ووجهه يكاد ينفطر قلقا، ولم تنفع كلماتي في تهدئته. «هل يعرفونك؟ هذا أسوأ. بالتأكيد لا يمكن إحضارهم إلى السفينة يا قبطان».

وافقه برو: «ليس من الحكمة أن ندعهم يرون كل هذا». قال وهو ينظر إلى قوارير البراندي وعبوات التبغ تتدلى نحو القارب.

هما على حق بالتأكيد؛ ستكون مصيبة أن نأتي بهم إلى هنا، فهم إنجليز في النهاية ومهما وعدونا اليوم فسيفعلونها غدا ويشون بنا إلى الجمارك ليوقعوا بنا في متاعب لا تنتهي.

كان غراي يتميز غضبا ويجاهد كي يتمالك نفسه وكأنهم أساؤوا إليه شخصيا. «ليس ذنبنا أننا وجدناهم هنا».

هنا حاول برو إضافة لمسة قانونية إلى الحديث: «وبالإضافة إلى ذلك ما من شيء في الاتفاق الذي عقدناه معهم يلزمنا بنقلهم من هنا».

لم يكن علينا فعل شيء في الحقيقة، فمن مظهرهم كان واضحا أنهم لن ينجوا لأكثر من يوم أو يومين على الأكثر. وأي طريقة أفضل للتخلص منهم؟ فحتى لو عثر عليهم أحد هنا، وهذا ما أستبعده تماما، فمن سيعرف أننا كنا قريبين منهم؟ لا، الأمر سهل للغاية ولا داعي للقلق.

سحبت نفسا عميقا وناديت على كينفيغ: «أرسل القارب لإحضار أولئك الرجال».

صرخ غراي: «لن أدعك تفعل ذلك. ستودي بنا إلى السجن».

«ربما هو على حق». تمتم برو.

أفضل ما في عمل القبطان أنه ليس مضطرا لتبرير أي فعل يقوم به، هذه سفينته يفعل ما يشاء على متنها وانتهى الأمر. «إن كنت لا تريد أن يروا وجهك يمكنك الاختفاء في هذه اللحظة قبل قدومهم». قلت لغراي. «سأنقلهم إلى منطقة بعيدة لنكسب بعض الوقت ولن أدعهم هنا».

تجهم وجهه لكن لم يكن بوسعه فعل شيء فنزل إلى القارب وعاد إلى سفينته ليخفي وجهه الجميل.

لم يكن برو أقل قلقا: «ألا ننتظر على الأقل حتى نبعد الحمولة من هنا ونغلق المخازن؟».

«لا أرى جدوى من هذا، فلا بد أنهم رأوا كل شيء من مكانهم هناك. الأفضل أن نحضرهم إلى السفينة وننتهي».

توقعت أن يصعد المسافرون الإنجليز إلى سفينتي وهم يلهجون بالشكر والامتنان لما تحملته من أجل إنقاذ حياتهم، ولكن لا، فقد عاد القارب بهم ولم أسمع حتى كلمة شكرا يا قبطان. كانوا مشغولين بتبادل الاتهامات فيما بينهم. لم أتوقع أن يبلغ الإنجليز

هـذا الجنـون يومـا. ويلسـون كان أسـوأهم، وسـمعت صوتـه يبربـر حتـى قبـل أن يصـل القـارب بخمسـين يـاردة. «عليـك أن تعتقـل هـؤلاء الرجـال يـا قبطـان. لقـد حاولـوا قتـلي. إنهـم شـياطين».

بوتـر لم يكـن أقـل هياجـا: «ويلسـون مـن حـاول قتلنـا، ولو اسـتطاع لقتلنـا عـشر مـرات. إنـه يحـاول إلقـاء التهمـة علينـا الآن. لا تصـغ إليـه يا قبطـان».

كل مـا فهمتـه مـن اضطرابهـم أنهـم لم ينجحـوا في العثـور عـلى الفـردوس في نهايـة المطـاف.

نظـر الكاهـن بـلا مبـالاة إلى فـوضى المهربـات وهـو يصعـد إلى مـتن السـفينة. كان مشـغولا بتخاريفـه، عـلى العكـس مـن بوتـر الـذي حملـق في عبـوات البرانـدي والتبـغ فاغـرا فـاه، كأنـه يهـم بقـول شيء مـا، لكنـه كان مـن الـذكاء بحيـث اكتفـى بالصمـت. كنـت أعـرف حجم المشـكلة التـي تواجهنـي، ورغـم أنهـم كانـوا جميعـا في حالـة يـرثى لهـا مـن الضعـف والتداعـي، إلا أني لم أشـأ أن أغامـر وأدع أي شيء للمصادفـة. سـحبت المسـدس المثبـت عـلى خـصر بوتـر وقلـت لهـم: «مايلكرسـت سـيأخذكم إلى الأسـفل ويقـدم لكـم الطعـام والـشراب».

اعتقـدت أن تقديـم الطعـام في حالتهـم سـيجعلهم يهـدؤون، لكنـي كنـت مخطئـا.

«لن أجلس معهم في مكان واحد» صرخ الكاهن: «سيقتلونني».

وجـدت أنـه مـن الأسـهل مسـايرة ويلسـون بمـا يريـد فوضعتـه وحـده في مطبـخ السـفينة، وبمـا أن قمـرات النـوم أصغـر مـن أن تتسـع للأربعـة الآخريـن وضعتهـم في ورشـة النجـارة وطلبـت مـن تشـولز كريسـتيان تجريدهـم مـن أدواتهـم الحـادة ووضـع قفـل عـلى البـاب كي لا يخرجـوا. قـدم لهـم مايلكرسـت خبـزا ولحـم بقـر، وعندمـا عـاد

بأطباقهم فارغة قال إنهم ينامون كالقطط. ويلسون تعالى شخيره فلم أقفل عليه لمعرفتي أنه مجرد أحمق، لكني أعطيت مايلكرست مسدسا وكلفته حراستهم على الدرجات زيادة في الحيطة. سأحاول استمالتهم إلى طرفي في الصباح بعد أن يكونوا قد نالوا قسطا من الراحة، فلم يعد من المجدي إخفاء تجارة المهربات عنهم وقد رأوا كل شيء. قد لا أنجح، فالإنجليز يحبون القانون أكثر حتى من أنفسهم، ولكن لا ضير من المحاولة.

مع كل تلك العراقيل استغرق تحميل البضاعة أكثر مما توقعت، وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر كنا قد فرغنا وقبضنا المال. قمت بعدّ النقود ثلاث مرات وتأكدت من أني قبضت حقي إلى آخر بنس. لم يماطل غراي في الرحيل، رفع المرساة فور انتهائنا ومضى. أما نحن ففضلنا الانتظار يوما آخر زيادة في الحيطة. وجد برو برميل براندي نسيه غراي رغم أنه دفع ثمنه، ولم يكن أفضل من أن نرتوي به في تلك اللحظة بعد سبعة أشهر ورحلة قطعنا فيها نصف العالم لنتخلص من حمولتنا السرية تلك.

الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير (يُتبع)

لم أتوقع في حياتي أن يكون لخبز البحارة ولحم البقر المجفف مذاق شهي كهذا. أكلت حتى أصابني الدوار من التخمة ولم أشعر بالاكتفاء. وبينما كنت مستغرقا في وجبتي كان النجار يثبت قفلا على الباب زاعما أننا قد نكون مصابين بمرض ما، ولم تكن لدي القوة لأشغل بالي بذلك. استسلمت لنوم عميق على الأرضية الخشبية، وصحوت في الليل والآخرون يشخرون. عندها وبعد أن استعدت قواي أدركت أن وضعنا مقلق بالفعل. حاولت فتح الباب فوجدته مقفلا، واستطعت أن أرى من خلال شق الدرجات ساقي أحد البحارة. دققت النظر، في يده مسدس يسنده إلى حضنه. إنه مايلكرست. تأكدت مخاوفي، نحن رهائن!

لا شك أن السبب يعود لحمولة البراندي والتبغ تلك، فمن الواضح أن الإخلاص ما هي إلا سفينة تهريب. هذا يوضح كل تلك الألغاز التي صادفناها خلال رحلتنا، مثل الرسو والإبحار المفاجئ... إلخ. كل ذلك الوقت وهؤلاء البحارة يستخدموننا كغطاء لعملية التهريب. والآن لا بد أنهم يخططون لذبحنا هنا ورمينا في البحر كي لا يكشف أمرهم ويزجون في السجن... إلخ. وإلا فلماذا الحراسة المسلحة أمام الباب؟!

الأسوأ من ذلك كان ويلسون الذي لن يوفر جهدا لإلحاق الأذى بي. سيتهمني بمحاولة قتله ذلك الوغد. ليتني لم أتباطأ في تنفيذ الحكم به، فلو حدث ووصلت قضيتنا إلى المحكمة فلن يصدقوا سوى كلماته. لا يمكن فعل شيء بخصوص هذا الآن، والأهم في هذه اللحظة أولئك البحارة وما ينوون فعله بنا.

أيقظت الآخرين وأخبرتهم بما اكتشفت. أثار الأمر قلقهم مثلي وحاولنا إيجاد أي شيء ندافع به عن أنفسنا إذا ما هجموا علينا فجأة. نزعنا بعض العوارض والقوائم من المفروشات التي حولنا ورحنا نصغي بحذر لأي صوت قد ينذر بخطر. لم نسمع شيئا سوى تمتمات غامضة بلغة آيل أوف مان، ثم بعد ذلك أحد ما يغني.

بيفاي، فبراير 1858

خضت حربي ضد البيض متأخرا ثلاثين عاما. لم تغب أمي عن ذاكرتي وأنا أطاردهم وأتحين فرصتي المناسبة لأنقض عليهم بسرعة، وكثيرا ما تخيلتها سعيدة وفخورة بما أفعل. كم كانت حربي سهلة، فهم أغبياء لا يعرفون المسالك والطرق وأكثر بلادة وثقلا من أن يتمكنوا من اصطياد أي طريدة، مع أن الطعام كان وفيرا وكان بوسعي الحصول على ما أشاء من اللحم. كلما ساءت حالهم تيقظت أكثر واستعدت مهاراتي القديمة. علي الآن أن أقتلهم كلهم، بوتر وهوبر ورجال البغال الآخرين. بوتر كان الأصعب، يقظ دائما، يحمل مسدسا على الدوام ولا يمشي وحده، لكني كنت واثقا من أني سأنال منه في النهاية.

وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك تحقيق هدفي وصلت سفينتان وتم إنقاذهم. أي لحظة عصيبة كانت، هكذا تعتقد أن كل شيء في يدك وتفقده ببساطة دفعة واحدة. آلمني كثيرا أن أرى أولئك القتلة، من قطَّعوا جسد أمي، يفلتون من عدالة سهامي ويمضون بعيدا لمتابعة حياتهم كأن شيئا لم يكن.

جلست على الشاطئ والأسى يفيض في صدري، لا أدري ماذا أفعل. وما الذي بوسعي فعله الآن؟ أتيت إلى هنا وراء أولئك

القتلة، وها هم رحلوا. قبل انقضاء النهار رفعت إحدى السفينتين أشرعتها وأبحرت بينما ظلت الثانية في مكانها، واستطعت رغم ضوء المساء الخافت أن أتأكد من أن بوتر بقي على متنها. عاد إليّ الأمل وبدأت أفكر بفعل شيء ما، حتى لو كان آخر ما أفعله في حياتي. أجل، يجب أن أفعل شيئا ما مهما كان متهورا. نهضت وأوقدت نارا صغيرة أخفيتها وراء الأشجار وبدأت أصنع طوافة كما تعلمت في الماضي. كان أول زورق أصنعه منذ سنوات بعيدة وعندما انتهيت كان له شكل غريب، منحرف قليلا إلى اليمين كأنه ينعطف إلى جهة ما، لكنه اكتمل وعندما أنزلته إلى الماء طفا. غرست شعلة النار الصغيرة في لحاء الخشب ورائي كأنها إصبع كي تبقى مخفية، وربطت السهام إلى جسم الزورق ثم انطلقت بحذر أنحني قليلا إلى الأمام وأجذف بيدي الاثنتين. حجبت الغيوم القمر والنجوم ولم أكن أرى شيئا في الظلام سوى انعكاسات شعلتي على سطح الماء وضوء مصابيح السفينة تنوس بفعل الريح.

لم أركب البحر وحدي من قبل ولا حتى في ضوء النهار، وكم بدا الأمر غريبا في الظلام، كأنني وسط مجهول لا أعرف منه سوى ما تشعر به يداي من بلل الماء أو وجهي من حركة الرياح.

ارتفعت الأمواج مع تقدمي؛ لم تكن عاتية لكن زورقي لم يصمد في وجه أحدها فانقلب ووجدت نفسي في الماء لا أرى شيئا في الظلام. حاولت التحرك لأتبين موضعي واصطدم الزورق بظهري فصعدت إليه ونجوت. لكنني وقعت في مشكلة أخرى، فقدت الشعلة والسهام. فكرت بالعودة إلى اليابسة إذ لم يعد هناك ما أفعله ّبعد أن تحولت إلى مخلوق لا حول له ولا قوة. فكيف أواجه سفينة مليئة بالرجال البيض وأنا أعزل من أي سلاح؟! لكن

العـودة إلى حيـث لا أحـد ينتظـرني ولا شيء أفعلـه كان أقـسى عـلي وأمـرّ. لا، لا أسـتطيع أن أجلـس وأتفـرج عـلى السـفينة تأخـذ بوتـر بعيـدا ليهنـأ بنـصره مـرة ثانيـة بسـبب حادثـة. لا بـد أن أحـاول رغـم أني لا أعـرف مـا الـذي بوسـعي فعلـه. وهكـذا اسـتلقيت عـلى زورقـي ورحـت أجـذف بيـدي نحـو السـفينة.

الكاهن جيفري ويلسون، فبراير 1858

استيقظت متنبها كأنما يد ضخمة تهزني. جلست دون أن أبالي بتشنج أوصالي من النوم على أرضية المطبخ الصلبة وفكرة واحدة تسيطر على ذهني. يجب أن يفهم البحارة أن الشيطان قد حل بينهم. يجب أن ينظروا إليه كشيطان ويشيروا إليه كشيطان ويرفعوا أيديهم ليضربوه كشيطان.

المكان مظلم عدا بصيص ضوء يتسرب من تحت درفة الباب. وجدت طريقي إليه ودفعته فانفتح بسهولة ورأيت سطح السفينة في مشهد زاد من قلقي. وقف أعلى الدرجات المؤدية إلى المكان الذي وضع الآخرون فيه أحد البحارة، ولكن من؟ ألم يجدوا غير الخادم مايلكرست ليقوم بمهمة خطيرة كهذه! رأيته كيف يترك مكانه ويذهب إلى الدرابزين على حافة السفينة ليبصق ويتثاءب، بل إنه ترك المسدس وراءه! ألم أحذرهم من قبل! من المفترض أن يتجمعوا كلهم هنا مع كل ما لديهم من أسلحة ليحرسوه، لكنهم بدلا من ذلك يجتمعون في مؤخرة السفينة ليشربوا ويغنوا. هل أتحمل عناء تحذيرهم مرة أخرى؟ لقد تجاهل القبطان تحذيراتي وعلى الأرجح سيفعل ذلك من جديد.

ما أحتاج إليه الآن برهان، دليل قاطع على تبعية بوتر

للشيطان. لا بد من قرينة ما تثبت اتهامي له. رحت أفكر مسترجعا يوميات وتفاصيل رحلتنا وما حدث حتى لحظة مقتل المسكين رينشو، وفجأة لمع في ذهني خاطر. دفاتر ملحوظاته، كان دائما يكتب فيها خفية. لا بد من وجود شيء ما فيها. رأيته يملأ عدة دفاتر وبالتأكيد يحتفظ بها على متن السفينة، وعلى الأقل يخفي أحدها في متاعه. مددت رأسي إلى الأمام ونظرت فرأيت المخزن الذي كانوا يفرغونه عندما وصلنا إلى السفينة لا يزال مفتوحا وطرف السلم ظاهر في أعلاه. كان مايلكرست قد عاد إلى مكانه أعلى الدرج ظهره لي وهو مشغول بتحضير غليونه. فتحت الباب بحذر وانسللت إلى الخارج.

الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
20 فبراير (يُتبع)

سمعت جلبة في الأعلى وصوت يصرخ: ويلسون، ثم ارتطام أشياء بأرضية سطح السفينة تهاوت بغزارة كأنها مطر. زجاجات؟ حجارة؟ أم مهربات؟ لم أتمكن من التمييز على وجه الدقة، وتلا ذلك خبط أحذية وصياح البحارة فأصيب هوجس بالرعب. قال: لا بد أنهم قتلوا ويلسون وجاء دورنا الآن. حاولت تمالك نفسي وانتهزت الضوضاء فدفعت الباب بقوة إلى أن انفتح قليلا. نظرت فلم أجد مايلكرست في مكانه على الدرج. تشجعت ووضعت مع هوبر قوائم خشبية في شق الباب ثم عالجناه بما أوتينا من قوة حتى انكسر القفل وُفتح الباب على مصراعيه. خرجنا وصعدنا الدرجات بحذر شديد خوفا من أن يكون البحارة بانتظارنا مع أسلحتهم لقتلنا في أية لحظة.

المشهد على سطح السفينة فوضى غير متوقعة. أشياء متناثرة على الأرضية لم أستطع تمييزها في الظلام وأخرى تتطاير وتتساقط بينما بعض البحارة يحاولون الوصول إلى باب العنابر لإغلاقه. القبطان يصيح: «ما الذي يجري هنا؟» في اللحظة التي هوى فيها شيئان وتحطما على الأرضية. صوت ويلسون يصرخ: «أترون؟ أترون؟ هذه أفعال الشيطان».

وفي لحظة أدركت هول ما يجري. عيناتي التي جمعتها خلال شهور من العمل المضني كلها تتطاير وتتهشم. ثروتي العلمية التي لا تقدر بثمن والتي صنفتها بعناية ضاعت.

صرخت: «توقف عن هذا فورا».

تجمع البحارة ليتفرجوا والقبطان يصيح: «ما الذي تفعله هنا؟».

وقبل أن أتمكن من الإجابة زعق ويلسون كالمجنون من أعلى السلم: «اقبضوا عليه، أمسكوا به. اسجنوا هذا الشيطان». ثم رفع عينة من مجموعتي ليرميني بها.

نظرت حولي بردة فعل سريعة وأنا أبحث عن طريقة ما أوقف فيها هذا التخريب. كان مايلكرست يقف قربي ينظر مشدوها كالأبله والمسدس على خصره. انقضضت عليه، دفعته ونزعت المسدس ثم صوبته نحو ويلسون: «توقف في الحال».

أنزل ويلسون يديه بينما رمقني القبطان بنظرة مهددة: «الأفضل أن تعطيني ما في يدك يا دكتور».

لم أكن أفكر به، بل بويلسون. صمت الجميع ووقف سكيغس وهوبر وهوجس إلى جانبي. انتابني شعور غريب بأن الأمور تخرج عن السيطرة. لم أكن أريد للأمور أن تصل إلى هنا. «أخشى أني لا أستطيع يا قبطان».

تجهم وجه كيولي: «فكر جيدا يا دكتور.. هذا تمرد».

لم أعد أستطيع التراجع، وكان لا بد من الاستمرار مهما كانت العواقب. تقدمت بضع خطوات وأعلنت بصوت صارم: «منذ الآن أنا المسؤول عن هذه السفينة والسلطة تعود لي أنا وحدي. السبب: لدي ما يؤكد أنها تستخدم للتهريب».

هوبر إلى جانبي متوترا: «هل أنت واثق مما تفعل؟».

لم أكن واثقا في الحقيقة فنحن قلة بين البحارة. هم عشرة عدا ويلسون، وأصعب ما في الأمر أنهم طاقم السفينة التي لا نعرف شيئا عن تسييرها. وضعنا حرج للغاية، لكن ليس أمامي سوى أن أتعامل مع الظروف التي فرضت نفسها. خاطبتهم قائلا: «لا تخشوا شيئا، أعلم أنه لا علاقة لكم بجريمة التهريب. إنها مسؤولية القبطان وويلسون وحدهما».

لم أكن متأكدا أنهم صدقوني، وهذا ما أفصحت عنه وجوههم.

«لن أسمح لأحد بخطف سفينتي». قال القبطان بصوت متوتر بينما راح ويلسون يرغي ويزبد بترهاته: «إلى الجحيم يا خادم الشيطان..». إلخ.

العملاق شاينا كلوكاس كان الأكثر خطورة فقد بدا عليه الهياج وأخذ يتقدم نحوي مهددا. علي أن أتصرف بحزم، لكنني كنت أخشى استفزاز بقية البحارة ودفعهم إلى التهور. صوبت المسدس نحوه وأطلقت النار في الهواء فوق رأسه، ولحسن الحظ جعله ذلك يهدأ ويتراجع.

تصرفت بسرعة لأعزز سيطرتي فأمرت هوبر أن يفتش السفينة ويجمع كل الأسلحة. تردد قليلا، لكنه أذعن وعاد بعد قليل بما وجده. ألقمت كل قطع السلاح بالذخيرة وسرعان ما تغير المزاج، هوبر وسكيغس وهوجس أصبحوا أكثر ثقة بينما ظهرت على البحارة علائم الاستسلام. طلبت بعدها من كيولي وويلسون النزول إلى قمرة النجار فاحتجا، القبطان يشتم ويصفنا بالقراصنة والكاهن يردد لعناته وتخاريفه عن الشيطان والجحيم... إلخ. أصبح وضعنا أكثر أمنا، نحن أربعة مسلحين والبحارة تسعة فقط. لكن مع

هـذا كان عـلي أن أحـذر مـن تركهـم يتحركـون بحريـة. وهكـذا أمـرت الجميـع بالتجمـع في مقدمـة السـفينة وطلبـت مـن النجـار تثبيـت أقفـال عـلى الأبـواب.

في تلـك الأثنـاء سـمعت صيـاح هوبـر: «توقـف! أنـت هنـاك..». نظـرت فرأيتـه يشـير إلى شـخص لم أتبـين ملامحـه في الظـلام وكان يحمـل مـا يشـبه السـلة في يديـه. مـن يكـون هـذا! ألم نحجـز الجميـع؟

قفـز ذلـك الشـبح مـع سـلته عـلى درابزيـن السـفينة وعندهـا عرفتـه. الأسـود الهجـين! كيـف وصـل إلى هنـا؟! ثـم بعـد لحظـة ميـزت مـا يحمـل في يـده. كيـس القـماش الـذي يحـوي أثمـن عينـاتي، المـرأة مـاري. كيـف يجـرؤ!

أطلقـت النـار لكنـه أفلـت وقفـز في المـاء. ركضـت إلى الحافة،لكنـه كان قـد تشـبث بمـا يشـبه زورقـا صغـيرا وابتعـد. لم نتمكـن مـن إصابتـه، وفكـرت بإنـزال القـارب لمطاردتـه، لكـن هـذا سـيتطلب إطـلاق البحـارة وهـذا مـا لـن أخاطـر بـه.

بيفاي، فبراير 1858

وصلت بزورقي وتسلقت إلى سطح السفينة، وفيما أستند على الدرابزين رأيت بوتر والبيض الآخرين في الطرف المقابل يثبتون شيئا ما بمطرقة. لكن مشهدا رهيبا آخر استولى على كل حواسي. فعلى أرضية السفينة تناثرت أمامي هياكل عظمية لبشر، بقايا أموات هنا وهناك في كل مكان. تقدمت مذهولا والحزن يمزق قلبي. من هؤلاء؟ قد يكونون أهلي، من أحب وأفتقد. مونغانا وهيديك ودراي... رحت أتأمل تحت وطأة الغضب والصدمة. عندها لمحت كيسا كتبت عليه الكلمات التالية:

فصيلة السود الأصليين من تاسمانيا – أنثى. نموذج كامل.

عينة م.

ذات قيمة عالية. تحفظ وتنقل بعناية.

حقوق الملكية للدكتور توماس بوتر.

كلية لندن للجراحة.

أثار الحرف م فضولي فاقتربت لأتفحص الكيس. وجدت قلادة مربوطة إليه. تذكرتها، كانت أمي تحفظ فيها عظام تيالي وترتديها تحت ثيابها كي لا يراها البيض. وهكذا عرفت كل شيء. أرعبتني خفة الكيس، فأمي لم تكن بهذه الضآلة، بل امرأة قوية.

وعندها سمعت هوبر يصرخ ورأيت صاحب اللحية الحمراء يشهر مسدسه فكان علي أن أهرب وإلا قُتلت. أمسكت بالكيس جيدا وقفزت؛ سبحت تحت الماء متشبثا بالزورق كي لا أغرق إلى أن توقف إطلاق النار. وطوال الوقت لم يفارقني غضبي، بل كان يفور ويتصاعد داخلي، وعندما وصلت إلى الشاطئ سيطرت علي رغبة جامحة بأن أعود لأنقذ عظام أولئك المساكين وأحرق ذلك السافل مع خادمه وأحولهم مع سفينتهم اللعينة إلى رماد.

مضى بعض الوقت فهدأت نيران الغضب داخلي ورأيت أن رغبتي تلك مستحيلة، فمن المؤكد أنهم الآن يراقبون، وما إن يلمحوا بصيص ناري حتى ينقضوا علي بأسلحتهم. على الأقل أنقذت أمي المسكينة. كان هذا يكفي لأشعر ببعض الرضى، فهي تكره أن تكون لعبة في أيدي القتلة البيض. أجل، لم أتمكن من فعل كل ما أريد، لكنني استطعت على الأقل أن أفعل شيئا من أجل أمي. هكذا فكرت محاولا استعادة بعض السكينة إلى قلبي المفجوع.

مكثت بعض الوقت أراقب من بين الأشجار إن كان البيض قد تبعوني، ومع الفجر رأيت أشرعة السفينة ترتفع واحدا تلو الآخر ثم تبتعد عن الخليج. تنفست الصعداء، ها أنا وحدي هنا وأستطيع الآن أن أؤدي واجبي نحو أمي، وأمنحها طقوس الوداع التي تليق بها. بدأت بالتحضير لذلك على الفور فجمعت من بين الأشجار كمية من الحطب الجاف وكومته لأصنع لها المحرقة التي كان من المفترض أن تحظى بها عند موتها. ودعتها بكلمات فاضت بكل ما في قلبي من حزن وأشعلت النار. لم تكن تمطر وكان الحطب جافا فتصاعدت ألسنة اللهب ولم يمض وقت طويل

حتى أتت النار على كل شيء. وهكذا، على أرض وطنها حظيت أمي أخيرا بما يليق بها من كرامة. كان هذا عزائي الوحيد رغم الأحزان ولوعة الفراق.

فكرت بها فيما النار تتوقد، بالحياة القاسية التي عاشتها. مرارات وعذابات لا نهاية لها، قتال وكفاح من أجل البقاء، لكن مع كل ما مرت به من أهوال فقد عاشت بكرامة. صحيح أنها لم تحقق هدفها بالقضاء على البيض وطردهم من أرضنا، لكنها خاضت معركتها بكل شجاعة ولم يكن يهمها ما يقوله الآخرون عنها. كانت عظيمة، وليتني كنت مثلها. وعبر في ذهني خاطر فيما النار تستعر والرماد يتطاير. خلال كل تلك السنوات الطويلة من الكفاح والتنقل لم تتمكن من تحقيق أكثر رغباتها حرارة وقوة، أن تقتل أبي.

الفصل الرابع عشر
تيموثي رينشو، يناير - مارس 1858

هكذا وجدت نفسي جريحا ومحطما على سفح جبل مجهول في تاسمانيا. كنت على الأقل في جهة محمية من هبوب الرياح على الرغم من البرودة الشديدة في الليل والأمطار. لم أفقد الأمل من قدوم الآخرين للبحث عني رغم تحذيرات كروموبل، وكنت في حالة ترقب دائم لأي أصوات أو خطو يقترب. إلا أن مرور الوقت جعلني أستسلم لليأس لولا بعض اللحظات التي كنت أتخيلهم فيها يصلون إلى مستوطنة ما ليرسلوا إلي فرقة إنقاذ، ومع تقلبات مزاجي رحت بين حين وآخر أحسب الوقت اللازم لكل ذلك، أجده قصيرا في حالات تفاؤلي وطويلا أكثر مما ينبغي عندما تطغى علي الكآبة والقنوط.

ازداد إحساسي بالوحشة مع تقدم الوقت حتى بدأت أكلم نفسي في تلك العزلة وأستأنس بوجود أي مخلوق قربي، حتى ظهور ذئب صار بالنسبة لي حدثا يخفف من وحدتي. وكما توقع كروموبل ظهر زوج من تلك الضواري، ذئبان تاسمانيان بخطوط على الظهر اقتربا لكن دون أي عدوانية تجاهي كأن كل ما يهمهما البغال الميتة. وفي ساعات الغروب تقفز حيوانات الوالابي الصغيرة

من بين الأشجار، يقف أحدها ناظرا إلى خيمتي بعينين واسعتين ثم يمضي بعيدا. أما الأبوسوم فكان يقترب بحذر فيما أعد طعامي ويتحين فرصة أن أسهو لحظة عنه ليسرقه ويفر.

لم يكن لتعاقب الأيام أي جدوى سوى اندمال جروحي بالتدريج حتى بدأت أتجول حول الخيمة بسهولة، لكنني لم أجرؤ على الابتعاد خشية أن يأتي الآخرون ولا يجدوني. بدأت أتكلم مع نفسي عما ينتظرني هنا. الظلام يهبط رويدا رويدا، ومع صعوبة تحديد الوقت دون ساعة كنت على يقين أن الشمس تغرب قبل السادسة والنصف. برد الليالي يشتد علي وتملكتني فكرة أنه كلما طال بقائي هنا تضاءلت فرص نجاتي. لكن ماذا لو كانوا في طريقهم إلي لإنقاذي؟ قد يكونون في هذه اللحظة يتسلقون الطرف الآخر من الجبل. هذا إن لم يكونوا قد هربوا وتركوني. أوغاد، سفلة، حثالة! لكن لا، لا يمكن أن أصدق أنهم يفعلون ذلك بي.

هكذا كنت أدور في انتظاري يوما بعد آخر أوشك في كل لحظة على اتخاذ القرار الصعب، إلى أن أتى يوم بدأت فيه أجمع ما يلزمني في رحلتي. فاجأني ثقل الحمل، الخيمة بنسيجها السميك وعوارضها الغليظة والمعلبات وأواني الطعام التي كانت متفرقات خفيفة وحدها، لكنها تحولت إلى حمل ثقيل حين جُمعت. ومع خرج البغل الذي تمزقت رباطاته بدا لي الأمر أكثر من طاقتي فقررت أن أستغني عن الخيمة وأستعيض عنها بقطعة عريضة منها يمكن أن أستظل بها معلقة من الأشجار. أخذت من الطعام ما يكفيني لمدة عشرة أيام.

انطلقت في صباح اليوم التالي وفي يدي السهام التي تركها كروموبل لي وساقاي مازالتا متشنجتين من جروحي. بقيت مترددا

في البداية أقف كل عدة خطوات لعلي أسمعهم قادمين نحوي، لكن حفيف أوراق الشجر وطنين الحشرات الخافت كان كل ما سمعته. ثم أطلقت بعض اللعنات وأدرت ظهري للبيت الذي آواني خلال الأيام الماضية ومضيت. اتبعت الجهة التي أرشدني إليها كروموبل. لم أجد الطريق بسهولة إذ كان علي اجتياز منحدر شاق في البداية ثم وصلت إلى الممر الذي أشار إليه فسلكته باتجاه الجنوب. في اليوم التالي وصلت إلى قمة الجبل التي تشبه جمجمة فتابعت طريقي وهي إلى الشرق كما أوصاني، ومع اليوم الثالث خفت وعورة الأرض فتنفست الصعداء واستعدت حيويتي. حتى إني ضحكت من نفسي لكل التوتر والخوف الذي شعرت به من فكرة ترحالي، إذ بدا لي الطريق أسهل مما تخيلت.

لكن انطباعي لم يكن صحيحا، فبعد ظهيرة اليوم ذاته زلت قدمي وأصبت بجرح في ركبتي. نظفته في النهر معتقدا أنه ليس أكثر من إصابة عارضة. لكن في اليوم التالي بدأ الجرح يلتهب ثم تورم واشتد الألم حتى تعذر علي المشي فاضطررت للتعكز على غصن متين عثرت عليه. بعد ذلك صرت أسير ببطء إلى أن صحوت في اليوم التالي محموما ولم أستطع النهوض من تحت خيمتي الفقيرة. بقيت مستلقيا طوال ذلك اليوم بين الصحو واليقظة. عند الغروب أيقظني صوت حفيف وحركة فوق الحشائش ورأيت ذئبا تاسمانيا ينظر إلي بترقب وصبر. قفزت وتناولت أحد سهام كروموبل ورميته به، ورغم أني أخطأته بمسافة كبيرة إلا أنه فر مبتعدا. استنفر الخوف ما تبقى من قواي فتمكنت من إيقاد نار تعمدت أن تكون كبيرة ما استطعت وبشكل طولاني بحيث يحترق الحطب تدريجيا وتستمر أطول فترة ممكنة من الليل.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم ذاته رأيت بين الحلم واليقظة والديَّ وأخي الأكبر يجلسون وينظرون إلى النار التي بدأت تخمد.

«لم يوقد النار بشكل جيد». قال أبي وهو ينبش الرماد بطرف مظلته. «كان عليه أن يجمع كمية أكبر من الحطب. كان عليه أن يفعل ذلك حقا، فلن تستمر هذه النار وقتا طويلا».

«كان دائما ولدا كسولا». وافقته أمي بهزة من رأسها.

«لو التهمته الوحوش، وأعتقد أن هذا سيحدث، فستكون غلطته وحده».

نظرت أمي إلى أخي وقالت: «جيرمي من أوقدها».

هز أخي بكتفيه رغم أن تعليق أمي أعجبه: «كنت سأبذل ما بوسعي يا أماه».

«هذا تواضع كبير منك يا بني». ردت أمي موافقة.

شعرت فجأة باضطراب وبشيء من الغثيان. «أنا أتبرأ منكم أتسمعون؟ منكم كلكم. دعوني وحدي».

نظر الثلاثة إلي بذهول، بل وبسخط ثم أداروا ظهورهم واختفوا بين الأشجار.

استيقظت مع بزوغ الفجر وسرني أن النار لا تزال متوقدة. لم تغادرني الحمى لكني شعرت بالتحسن ووجدت القوة لأنهض وأمشي مستعينا بعكازي. لم أكن قد مشيت منذ وقت وبالكاد خطوت بضع خطوات ثم تقدمت قليلا بين الأشجار وإذ بي أفاجأ بخروف ينظر إلي. كان واحدا من قطيع على مقربة وما إن اقتربت حتى جفلت وابتعدت كسرب من الطيور. صرخت من الفرح وقد نجوت أخيرا، وعلى الرغم من الألم الذي اشتد في ساقي تابعت المسير إلى أن وصلت إلى ممر ترابي عليه آثار حوافر حصان حديثة

العهد. تابعت طريقي صاعدا على وهدة صغيرة فرأيت بيتا خشبيا صغيرا تحجب الأشجار جانبا منه ويتصاعد الدخان من مدخنته. وبما يشبه موجة من الضحك ركضت وأنا أعرج ودفعت البوابة الصغيرة فوجدت نفسي في حديقة تزهو بألوان لم تقع عيناي على مثلها منذ أسابيع طويلة.

لكن يا لغرابة ما رأيت! في كل مكان في تلك الحديقة، أينما نظرت، على الجدران وفوق الأحجار وعلى المرج ملائكة مجنحة وقفت ترمقني بوجوه رمادية مبتسمة.

الدكتور توماس بوتر، فبراير 1858
مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل أعراق البشر

بما أن الهمجية هي السمة الأساسية في السود فإن هذا العرق لا يستطيع التفكير إلا في الحفاظ على بقائه على المدى القصير الذي لا يتجاوز اللحظات القادمة. وعقلية هذا النمط لا تعرف أي إدراك لمفهوم الزمن والتخطيط ولا أي شكل من الأفكار المنظمة، لذا تنطلق دوافعه من غريزة بدائية تدفعه للعيش في الطبيعة دون كساء بحثا عن أي مواد تمكنه من البقاء لمدة لا تتجاوز بضعة أيام. وفي هذا السياق يمكن فهم قدره المحتوم بالانقراض...

مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل
أعراق البشر (تصويب)

يعتبر السكان الأصليون لتاسمانيا مثالا نموذجيا على ذلك المصير. فمنذ أن اكتشفت هذه الجزيرة من قبل العالم المتحضر تم تصنيف هذه المجموعة التعيسة كأحد أكثر الأعراق تدنيا وبدائية وذلك لافتقارها إلى المهارات والمعارف الأولية مثل الزراعة. وهكذا يقع هذا العرق في نقطة بين البشر وبين الحيوانات. وعلى الرغم من هذه الوضعية الحضارية المتخلفة فإن المستعمرين البريطانيين مدفوعين بخصائصهم الساكسونية لم يدخروا جهدا في تطويرهم وإصلاحهم. لقد قامت حكومة المستعمرة بكل ما يمكن لإعادة تأهيل أولئك السود الذين جمعوا في مستوطنات لنقلهم من البدائية إلى التحضر. وبدل أن يتلقى السود كل تلك الجهود بشعور من الامتنان والعرفان عبروا عن صلف ونكران كبيرين، إذ لم يتغير فيهم شيء، بل حافظوا على كل ما فيهم من توحش وهمجية. وحتى من تبقى منهم على قيد الحياة يتميز باستعداد لارتكاب كل الموبقات من الخيانة والسرقة والقتل.

لقد استنفدت تلك التصرفات صبر حتى أكثر الساكسونيين تسامحا والذين على الرغم من تساهلهم وعزوفهم عن الشراسة لن يتوانوا في الدفاع عن ممتلكاتهم وحقوقهم بكل ما يتطلبه الأمر من حزم وصلابة. لا شك أن السود سيكونون أول من يتلاشى من الشعوب حين تنشب الحرب العظمى بين الأمم، وعلى الرغم من أن مصيرا كهذا لا يمكن أن يقابل من الإنسان إلا بالأسف والحزن، إلا أنه لا يخلو من عدالة.

أما النمط النورماندي فإنه سيستمر في البقاء لوقت أطول، لكنه سيواجه قدر التلاشي ذاته. ذلك أن مكانته الحضارية ليست سوى حالة طارئة نتجت عن سيطرته على مساحة كبيرة من الأراضي. لكن هذا الوضع لن يستمر طويلا وسيصحو الساكسونيون من أوهامهم. ستشرق شمس صحوتهم ذات يوم ويكتشفوا كل تلك البربرية والتخلف الذي يرتدي أقنعة النبل. وبانتفاضة عظيمة سيحطم الساكسوني أغلاله ليستعيد كل ما سلب منه خلال القرون الماضية.

القبطان إيليام كويليان كيولي، إبريل 1858

منذ تسعة أسابيع ونحن نبحر. أسابيع طويلة وأنا في سفينتي سجين المسافر الإنجليزي الذي تحملت عناء إنقاذه من الموت كأبله. أيام توالت علي هناك وأنا أعرف أن ذلك القذر يصول ويجول على متن سفينتي وفي قمرتي وأشعر كأن رجلا غريبا يدس أصابعه أسفل تنورة زوجتي. كان علي أن أتركه ينفق جوعا على ذلك الشاطئ المهجور.

استمرت الرياح نشيطة بشكل عام خلال الفترة الماضية، وأتوقع أننا الآن على مقربة من كيب هورن أو في منتصف المسافة إلى وطن بوتر، إنجلترا. وطوال الوقت لم يفارقني سؤال لم أجد له إجابة. لو أراد برو لتمكن من السيطرة على السفينة مرات عديدة منذ انطلقنا. يكفي أن يضرب عن فعل أي شيء لتعم فوضى كبيرة، فبوتر ومن معه لا يستطيعون التقدم بالسفينة ياردة واحدة. لماذا لم يتصرف إذن؟ ينتظر الوقت المناسب؟ هكذا حسبت في البداية، لكني مع مرور الوقت يئست. كنا أنا والكاهن نؤخذ كل صباح ومساء للتنفس على السطح يقتادنا سكيغس وهوجس كل ببندقيته، وفي طريقي كنت في كل مرة أنظر بتفحص إلى برو ورفاقه بحثا عن أي غمزة عين أو إشارة ذات مغزى، لكن أحدا

منهم لم يوجه إلي نظرة واحدة. أثار ذلك ريبتي وتذكرت القول المأثور في بيل: إياك أن تثق بالخمر في السوق. أي حظ لو فعلها ذلك الدودة وألقى كل الاتهامات علي، تماما كما فعل بوتر لينجو بأمتعته السخيفة.

سنكون لقمة سائغة لأي قاضٍ لو تمكن بوتر من إعادتنا إلى إنجلترا، مهربون محجوزون في سفينة مع كل تلك الهياكل العظمية. أي قضية ستكون في إحدى محاكم لندن. في الجهة الأولى يقف بوتر الطبيب الإنجليزي صاحب الشهادات العليا مع أتباعه الثلاثة ورهط من بحارة آيل أوف مان التائبين. وفي الجهة المقابلة كيولي مالك وقبطان سفينة التهريب مع كاهن فقد عقله. كل ذلك لن يكون سوى توطئة لتقديمنا على طبق من فضة فريسة لغياهب السجون.

لا يمكن لرجل من آيل أوف مان أن يستسلم لورطة كهذه، فعزمت على فعل أي شيء يسبب لهم المتاعب حتى لو كنت وحدي. مهما فعلت سيكون أفضل من الجلوس هكذا فريسة للعجز. بعد أسبوع سمح لنا بوتر بسرير بدلا من النوم على خشب الأرضية العارية. نزعت لوحا منه ورحت أحاول خلع الباب به، لكن الأقفال كانت متينة ولم أتلق أي مساعدة من الكاهن، ربما لأنه غاضب مني الآن بعد اكتشافه تجارتي بمهربات البراندي والتبغ. حاولت عدة مرات، لكني لم أتمكن حتى من حشر اللوح في درفة الباب، والأسوأ من ذلك أني تركت علامات وخدوشا على الخشب فانتبه سكيغس وكشف أمري. كلفني ذلك زيارة من بوتر الذي أوسعني نظرات مهددة وأمر بتثبيت أقفال إضافية على الباب. تم أيضا حرماننا من السريرين وعدنا للنوم

على الأرضية. وهكذا انتهت محاولة هروبي البائسة بعد أن أصبح الباب منيعا كسد من الحديدوكل من هوبر وسكيغس يحرساننا بيقظة ولا يقتربان منا حتى لتقديم الطعام إلا بعد تأمين مسافة للتأكد من عدم قدرتنا على الاتيان بأي حركة غير متوقعة.

بعد ذلك كان علي أن أنعم بصحبة ويلسون لأسابيع خلت فيها أني كنت سأسامح بوتر على اختطافه سفينتي فقط لو أنه رمى بهذا الخَرِف في البحر. لم يكن يتوقف عن هرائه، وكلما حاولت تناسيه وقتل الوقت بِعَدِّ المسامير في أخشاب السقف أو الإصغاء إلى أي أصوات تتناهى إلي يعاود الكرة ويبدأ من جديد. المفضل لديه كانت صلواته، ولم يكن الأحمق يترك شيئا واحدا تحت الشمس لا يصلي من أجله، من أرواح المعذبين إلى نور الأمل في أحلك اللحظات. أما الأسوأ فكان حين يصلي من أجلي ويقول مبتهلا إنه يغفر لي تهريبي للبراندي والتبغ وشخيري في الليل، وهذا ما لم أفعله أبدا.

لا أدري ما السعادة التي كان يجدها في الشجار مع سكيغس وهوجس. استعراض لم يمل من أدائه. من جهتي لم أر جدوى من استفزاز خاطفينا، فهم ليسوا مسلحين فقط بل من هواة جمع جماجم البشر أيضا. لكن ويلسون لا يتغير، فما إن يرهما يدخلان حتى يبدأ بكل ما لديه من فصاحة بسيل من التقريع قائلا إنهما قذران لأنهما يتبعان بوتر الذي لم يكن سوى الشيطان ذاته، وإنهما سيحترقان في جهنم. الكارثة عندما يحلو له لعب دور الشهيد يوم الأحد.

«خذ طعامك الملوث هذا. لست بحاجة له لأن قوتي أسمى من وضاعتكم».

لم أكن أمانع أن يكون بطلا، لكن ليس على حساب حصتي في الطعام الذي كان متعتي الوحيدة في تلك الأيام، فأنا بحاجة للغذاء الذي لم نكن نحصل سوى على القليل منه. لم يكلف نفسه عناء حتى سؤالي قبل أن يقدم على حماقاته، ومن جهتي كنت أحاول تلطيف الجو بتعليقات مثل أما أنا فقوتي عادية كماء البحر تماما. لم يكن هذا يجدي إذ يقهقه سكيغس قائلا: «كما تريد يا حضرة الأب»، ثم يبدأ مع هوجس بالتهام طعامنا.

تمنيت لو نغرق أفضل من أن أرى بوتر يتشدق في محكمة إنجليزية بينما أُقاد إلى السجن. كنت أرى تلك النهاية أمامي لو استمر الطقس على حاله، الأمواج عالية تتلاطم بعنف على جوانب السفينة وتقذفها في كل الجهات كحصان داس بحوافره أفعى. لم تكن تلك الأنواء غريبة عن سمعة كيب هورن، ومع قلة البحارة سيسوء وضعنا بالتأكيد.

لم ينقطع سجانونا عن زيارتنا كما توقعت في طقس كهذا، بل واظبوا على تزويدنا بوجبات لحم البقر الجاف والخبز اليابس مع بعض الليمون المجفف أيضا. وبعد كل وجبة نصعد للتنفس. وأي طقس كان! ما إن أطأ السطح حتى يرشقني الماء المتطاير وأرى الأمواج تعلو فوق مقدمة السفينة التي كانت كدلفين يهم بالغوص إلى الأعماق ليلقي نظرة على قاع المحيط. أما الإنجليز فكانوا في حالة يرثى لها من الذعر، بوتر بوجه شاحب كالأموات يقف عند القمرة ويلف ذراعيه حول الصاري كمن يعانق أمه التي وجدها بعد ضياع. وبينما كنت أنظر إليه اندفعت موجة عالية من الخلف وطوحت به جاثيا على ركبتيه وهو لا يزال يتشبث بمسدسه.

أما البحارة فعجبت لأمرهم أكثر من الإنجليز. جيميس كينرد أمسك بالدفة كأنه يتشبث بها كي لا تقذفه الأمواج. لا شك أنه بحار جيد، لكن لو كان الأمر لي لكلفت العملاق شاينا كلوكاس مهمة كهذه، وما أثار ذهولي أن كلوكاس لم يكن بعيدا بل على مقربة يصلح عقد حبال الصاري. أي فوضى هذه أن ينصرف البحارة إلى عمل كهذا وسط عاصفة! رأيت برو، ولأول مرة غمز لي بعينه، فتنبهت مترقبا. يبدو أني قد ظلمت الرجل وأنه كان ينتظر لحظة كهذه حين يكون الجو عاصفا.

لم يكن من عادة سكيغس أن يقودنا بنفسه بل يترك المهمة لهوجس بينما يكتفي بالمراقبة. لكن هذه المرة ومع اضطراب كل شيء في العاصفة وقف عند أعلى السلم يراقبنا من بعيد، وما إن تقدمنا بضع خطوات حتى رشقت موجة كبيرة السفينة فبدأ ويلسون بالشكوى. «لا أستطيع التقدم أكثر». كنت سأضربه لأني لاحظت أن النجار يقف عند المقدمة يسترق النظر إلينا بينما يصلح بعض الحبال، لكن لحسن الحظ نكزه هوجس ببندقيته فأذعن وتابعنا المسير متمسكين بالدرابزين ونحن نبتلع الماء المالح مع اجتياح موجة جديدة. عندما وصلنا إلى الباب وبينما كان هوجس ينتظر أن أفتحه سحب كريستيان وتدا معدنيا من حزامه وسدد به ضربة إلى رأسه. لم أتردد فانقضضت على هوجس مع كريستيان محاولين أن ننتزع بندقيته، أمر لم يكن ليصعب علينا لولا أن موجة هائلة اكتسحت السفينة وأطاحت بنا كلنا.

عندها بدأ ويلسون بالزعيق بأعلى ما في صوته: «هوراي... هوراي... الشكر للرب».

هناك أوقات كثيرة للهتاف والتهليل، لكن ليس هذا الوقت بالتأكيد. نظرت فرأيت صديقنا بوتر يتقدم نحونا بينما يتهيأ كريستيان لتسديد ضربة بوتده إلى جمجمته العجيبة، وفي اللحظة المناسبة تفادى الضربة ولم يصب الوتد سوى لوح من الخشب. ورغم أن برو بادر إلى ركله عندما تمسك بالدرابزين إلا أنه لم يفقد توازنه وتمكن من إطلاق النار في الهواء مما أفزع برو وجعله يتراجع.

«هوراي... هوراي..». زعق ويلسون من جديد.

حين تمكنت من الإمساك ببندقية هوجس كان عراكا قد نشب. نظرت فرأيت سكيغس وقد اشتبك مع توم يتنازعان البندقية بينما تمسك بوتر بالدرابزين مصوبا مسدسه نحو الجميع والسفينة تتهاوى بين الأمواج. وقف أربعة من البحارة بينهم برو وشاينا في مواجهته يتحينون لحظة للنيل منه، وأعتقد أنه لم يطلق النار خشية من أنه لو أصاب أحدهم فسينقض عليه البقية.

كان علي أن أقوم بشيء ما لمساعدتهم فخطفت البندقية وصوبت نحو بوتر. لا بد أنها ملقمة وجاهزة للإطلاق وإلا ففما جدوى أن يحملها هوجس طيلة الوقت. ضغطت على الزناد فلم أسمع سوى صوت تكة. لا بد أنها تعطلت من جراء البلل! أي غش هذا! لا يكف الإنجليز عن التبجح ليل نهار حول ذكائهم وقطاراتهم لكن بنادقهم لا تعمل بمجرد أن تبتل. هل يتوقعون أن يحاربوا الصينيين ويقتلوا النمور فقط في الصيف والأيام المشمسة؟! أي معجزة جعلتهم يجتاحون نصف العالم!

هكذا انتهت معركتنا الصغيرة. لحظات واندفع هوبر ليسدد بأخمص بندقيته الغليظ ضربة قوية إلى رأس توم فأفلت سكيغس

من قبضته لنجد أنفسنا فجأة محاطين بثلاثة من الإنجليز مع بنادقهم. كان هذا كافيا لنستسلم لهم. تراجع برو وشاينا والآخرون متقهقرين إلى الوراء، ومن يلومهم أمام سطوة السلاح؟ تلا ذلك لحظة رهيبة حين صوب هوجس ببندقيته الفارغة نكزة موجعة إلى أضلاعي. أما أسوأ ما حصل فكان عندما التفت ويلسون نحوي لحظتها ورمقني بنظرة مجنونة.

«ألا تعتقد يا قبطان أن نهايتك ستكون أكثر رأفة لو كنت قد صليت واستغفرت الرب على خطاياك وآثامك كما نصحتك مرارا من قبل؟».

الدكتور توماس بوتر، إبريل 1858
مصير الأمم
الفصل الرابع: حول مستقبل أعراق البشر
(تصويب)

يواجه النوع الكلتي مصير الانقراض الشامل تماما مثل السود والنورمانديين خلال الصدام الأكبر بين الأمم. سيحاول هذا النوع المقاومة من خلال طباع السكونية لديه، لكن ذلك لن ينطلي على الساكسون الذين سيكتشفون سريعا ما ينطوي وراء ابتسامة الكلتي الهادئة من خداع وخبث ونزوع إلى العنف والغدر. وبما أن الكلتي في جوهره يفتقر إلى المنطق العقلي فستكون عملية فنائه سريعة، خصوصا إن أخذنا بعين الاعتبار نفاد صبر الساكسوني وعدم استعداده لمزيد من الاحتواء. وخلاصة الصراع أن الكلتي سيكون السبب الرئيس في فناء نوعه مما سيقود في النهاية إلى نجاة نوع واحد سيسود الأرض وحده.

قواعد جديدة للسيطرة على سفينة الإخلاص

قاعدة 1

للحيلولة دون وقوع حوادث عنف وصدام بين طاقم السفينة والحرس تطبق القواعد التالية بصرامة:

يمنع القيام بأي من أعمال الإصلاح والترميم للسفينة لأن مهمات كهذه ستوفر غطاء للتآمر ضد الحرس. يستثنى من ذلك ضخ المياه ونضحها من السفينة على أن يربط من يقوم بذلك بالحبال.

قاعدة 2

يمنع منعا باتا وتحت أي ظرف استخدام الشراع الخلفي الذي يجب أن يبقى مطويا بشكل دائم.

قاعدة 3

يمنع البحارة من الوقوف على سطح السفينة لأي سبب كان باستثناء ما يلي:

البحار المكلف إدارة الدفة على أن يربط إليها.

رئيس البحارة على أن يربط إلى الصاري الخلفي.

قاعدة 4

يحجز جميع أفراد الطاقم في العنابر عدا رئيس البحارة ومن يدير الدفة، ولا يسمح بخروج أي أحد إلا بتصريح من الدكتور بوتر لأسباب تتعلق بأعمال على سطح السفينة.

قاعدة 5

يتم تقييد السجينين في الأسفل بشكل دائم على أن يزودا بحاوية لقضاء الحاجة.

قاعدة 6

يمنع منعا باتا التحدث بلغة آيل أوف مان وأي مخالفة لهذا تعتبر تآمرا يترتب عليه أشد العقوبات.

تعليمات جديدة للسيطرة على سفينة الإخلاص:

عناية أفراد الحراسة:

قاعدة 1

يتوجب على الجميع حمل البنادق الملقمة بالذخيرة في كل الأوقات.

قاعدة 2

يجب وجود اثنين على الأقل من أفراد الحراسة عند مقدمة السفينة ليلا ونهارا.

قاعدة 3

يقف جميع أفراد الحراسة على سطح السفينة أثناء أداء البحارة لأعمال الصيانة ورفع الأشرعة وغيرها.

24أبريل

قمت بحجز جميع البحارة في العنابر لكني اضطررت خلال العاصفة لإطلاق سراحهم بعد أن تمزقت بعض الأشرعة. راقبتهم بحذر وسلاحي في يدي طوال الوقت.

25 أبريل

هدأت العاصفة واقترح هوبر إلقاء برو وكينفيغ في البحر باعتبارهما زعيمي العصابة التي أثارت الفتنة. أعجبني الاقتراح لكني عدلت عنه خوفا من العواقب، فنحن لا نضمن الظروف عند وصولنا إلى إنجلترا. وعدا ذلك كنا بحاجة إليهما للإبحار بالسفينة وتوجيهها. إلا أني سمحت لهوبر بجلدهما أمام البحارة وقمت بعد ذلك بسجن برو مع القبطان وويلسون. طلبت من النجار تثبيت قيودهم إلى الأرضية منعا لأي متاعب قد تخطر في بالهم.

حصنت مقدمة السفينة بمتاريس من صناديق الشحن وأثقال الوزن ومواد أخرى عثرت عليها. فكرت بعدها في الاستفادة من مدفع قديم لا توجد قذائف له. حشوت عبوة من الورق ببارود استخلصته من مخازن البنادق ثم وضعتها مع عبوة أخرى مليئة بطلقات وحصى وأشياء صلبة صغيرة متفرقة. جمعت البحارة على سطح السفينة ليتفرجوا على تجربتي. كنت قلقا في البداية من أن

أكون قد أخطأت في المقادير، إلا أن المحاولة نجحت. أشعل هوبر الفتيل المبلل بالوقود مع بعض البارود فانطلقت بعد لحظة كتلة النار بعيدا فوق البحر وسط دهشة الجميع وتهليل البحارة. ثبَّتُّ المدفع بعد ذلك فوق أحد المتاريس وحشوته بقذيفة جديدة مصوبا إياه نحو متن السفينة وأمرت أن يضاء مصباح طيلة الليل على السطح.

لم تكن خياراتي سهلة. قد تكون إنجلترا وجهة أفضل من هوبارت التي تعج بالانفعاليين المغفلين، لكن كل الجهات كانت في الواقع مجازفة بالنسبة لي. لا بد أن البحارة سيتهمونني بالقرصنة عند وصولنا، وويلسون سيردد لعناته وحماقاته عن عيناتي وسيتهمني بمحاولة قتله. ورغم ثقتي بأني لم أفعل سوى الصواب ولم أرتكب أي جرم إلا أني أخشى أن أحاكم بقسوة. على الأقل لن أنجو من فضيحة ستلحق بي كارثة على صعيد سمعتي وعملي وخصوصا فيما يتعلق بكتاب «مصير الأمم».

أقلقني أيضا أمر رفاقي الثلاثة. فرغم أني بذلت ما بوسعي لإقناعهم أن ما نقوم به ليس قرصنة بل عملا حضاريا وواجبا مدنيا وأننا سنكافأ على ذلك إلا أن تمرد البحارة أثار شكوكهم. لحسن الحظ لم يكن أمامهم مجال للتراجع فقد تورطوا بشكل تام في العملية، وكل ما كنت أرجوه أن يحتفظوا برباطة جأشهم.

كان علي أن أواجه مشكلة المؤونة أيضا. فكرت بالتوقف بمرفأ في جزر فوكلاند التابعة للأرجنتين لكني خشيت أن يستغل البحارة الفرصة للتمرد وإثارة الضجيج. لم يكن الطعام يكفي للوصول إلى إنجلترا فاضطررت لتقليص حصص البحارة بشكل كبير للحفاظ على ما لدينا أطول مدة ممكنة. قلصت حصصنا أيضا لكني

أبقيت لنفسي الحد الأدنى مما يليق بساكسوني وبما يضمن صموده في القيام بواجبه ومهماته. أما معاناة بحارة آيل أوف مان من شح الطعام فستكون جزاء لما فعلوه. هم جنوا على أنفسهم.

لم أهمل في غمرة مشاغلي إعادة إصلاح وترتيب العينات. اكتشفت استحالة ذلك بعد أن رأيت مدى الضرر الذي ألحقه ويلسون بها وبعد أن تبعثرت واختلطت. أثار كل ذلك غضبي ونال مني الضيق، لكني قاومت بالانغماس في العمل على مخطوطتي وأصبح الفصل المتعلق بشكل جمجمة الأقوام الدنيا شبه جاهز.

بيفاي، فبراير - أبريل 1858

أمشي فوق أرض الوطن للمرة الأخيرة، الطقس رائع ونسائم الخريف منعشة، لكن في قلبي غصة وأنا أفكر بأني آخر من بقي من قبيلة البالاوا هنا، وأنه لن يأتي بعدي سوى البيض أو لا أحد. لا يمكن أن يكون وطنهم هنا. أجل، قد يتنقلون هنا وهناك متوهمين أنها أرضهم، لكن يستحيل أن يشعروا بالانتماء إليها مثلنا. كيف لهم ذلك وهم لا يعرفون أسماء الأمكنة ولا كيف يصلون إليها! لا، هذه الأرض لا تعني قلوب أولئك البيض ولا يمكن أن يكونوا فيها سوى مستوطنين.

بدأت أشعر بقسوة الوحدة إلى حد أني افتقدت بوتر الذي أكرهه وحزنت لابتعادي عنه وأصحابه، كأن رغبتي في قتلهم وحقدي عليهم هو ما كان يصلني بالعالم.

مع مرور الوقت داهمتني كوابيس الوحدة في الليل وجعلت عظامي كلها تلتهب ألما كأنها امتصت دموعي فتعفنت كخشب رطب. لكني مع شروق شمس الصباح أنهض من جديد وأتابع المقاومة والصبر. وبعد فترة غادرت الجبال واتجهت نحو الدروب في مناطق البيض. هنا توخيت الحذر رغم أنهم لم يعودوا خائفين ويقظين كعادتهم من قبل. ولماذا الحذر بعد أن اندثرنا ولم يبق

أحد منا. أستطيع رؤيتهم من مخبئي يركبون عرباتهم ويتجولون على دوابهم ليقودوا قطعان الأغنام هنا وهناك، عيونهم فارغة إلا من هاجسهم الوحيد، ما العمل التالي؟ وماذا سآكل في الغد؟ هل سيكون الجو رائعا غدا؟ أجل، هذا ما يشغلهم بعد موتنا. كم أمقتهم!

راحت الأرض تنبسط أمامي سهولا مع تقدمي في المسير إلى أن انحدرت من تلة واطئة لأرى البحر. مشيت بمحاذاة الشاطئ حتى رأيت ذات صباح مشرق ذلك الجبل الذي أعرفه، شامخا بقمته الحادة كأنه رمح. إنها جزيرة روبسون التي أحضرنا إليها لنموت، مشهد قاسٍ كمن يشاهد أشباحا من الماضي. حثثت الخطى مسرعا حتى اقتربت من الجزيرة، وهناك وصلت إلى مكان للبيض صغير لا يتجاوز بضعة منازل قرب النهر وبضعة رجال بيض يقودون ماشيتهم إلى المراعي القريبة. كان النهر موحلا عند مصبه في البحر ورأيت هناك قاربين أحدهما مناسب جدا لي بمجذافين وصارية صغيرة للشراع. توجهت من فوري إلى الغابة وصنعت كمية كبيرة من السهام، وعندما حل الظلام وعاد البيض إلى منازلهم عدت إلى ذلك القارب، دفعته بحذر إلى الماء رغم ثقله ثم صعدت إليه ومضيت مبتعدا عن الشاطئ.

أضاء الليل نصف قمر في كبد السماء فرفعت الشراع ورحت أجذف إلى أن اقتربت من الجزيرة مع بزوغ الفجر وقد تلبدت السماء بالغيوم وراء التلال القريبة. لم أستطع رؤية أي شيء في البداية، لكني عندما اقتربت أكثر تبين لي ستة منازل طويلة ومنخفضة لا بد أنها تؤوي ما يكفي من الرجال البيض؛ سيتعذر علي قتلهم لو كانوا أكثر وربما قتلوني قبل أن أنال من أبي. لكني سرعان

ما اكتشفت ما حيرني. لم يكن في المنازل أحد وما من دخان ينبعث من مداخنها. هل اختبؤوا لينقضوا علي ويقتلوني في اللحظة المناسبة؟! أنزلت الشراع واقتربت أكثر لكن ما من أحد خرج ليطلق النار علي، وهكذا رسوت وركنت القارب على الشاطئ. حملت سهامي وتوجهت إلى أقرب منزل، وعندما دفعت الباب لم أر سوى طاولة وبضع كراس وانبعثت من الداخل رائحة نتنة لطيور ميتة، لكني عندما لمست الرماد في موقد النار كان دافئا. الشيء ذاته وجدته في المنازل الأخرى فأثار ذلك فضولي وقررت أن أنتظر وأراقب. أخفيت قاربي الثقيل بين الشجيرات ومكثت هناك متيقظا وسهامي جاهزة لأي مفاجأة.

صحوت قبيل حلول الليل على صوت بشر من جهة الشاطئ. نظرت ورأيت أربعة قناديل ينعكس ضوؤها فوق الماء فعرفت أنها قوارب. لم أتمكن من رؤيتهم جيدا لكن الأصوات جعلتني أقدر أن عددهم كبير. أقلقني ذلك، لكن لم يكن بوسعي فعل شيء سوى المكوث في مكاني والمراقبة ويدي على سهامي. هل صار لأبي قبيلة؟

القبطان إيليام كويليان كيولي، إبريل - يونيو 1858

كل يـوم كان الغـروب يتأخـر وتشـتد بـرودة الليـل، إشـارة لا يمكـن أن تفوتنـي. إننـا نقـترب مـن الشـمال، ولـن يطـول بنـا الوقـت حتـى نصـل إلى إنجلـترا، أمـر لم يكـن فيـه مـا يبـشر بالخـير.

تشير العلامـات التـي رسـمتها عـلى الجـدار إلى مـضي تسـعة أسـابيع منـذ عبرنـا بكيـب هـورن، شـهران كامـلان لا أذكـر أني رأيـت مثلهـما بؤسـا وفقـرا. لا أدري مـا الـذي جـرى لقراصنـة سـفينتنا، هـل تجمـدت أعصابهـم وهـدؤوا هكـذا بدافـع الخـوف أم نشـوة بانتصارهـم بعـد معركتنـا الأخـيرة؟! تفتـق ذهـن الدكتـور بوتـر عـن فكـرة عبقريـة تقـضي بتقييـدي مـع بـرو وويلسـون إلى الأرضيـة الخشـبية، وحـرص عـلى القـدوم بنفسـه ليتأكـد مـن تنفيـذ ذلـك بإتقـان مـما منحنـا قيودا محكمـة منعتنـا مـن النـوم بمـا يكفـي في الليـل. ومنـذ ذلـك الوقـت أصبحـت زياراتنـا القليلـة إلى سـطح السـفينة مليئـة بالإهانـات. حتـى هوجـس الـذي كان أكثرهـم لينـا معنـا أصبـح يسـدد لنـا الضربـات بأخمـص بندقيتـه كأنـه اكتشـف لعبـة جديـدة لم يكـن يجـرؤ عـلى ممارسـتها مـن قبـل. والأسـوأ كان هوبـر الـذي جلـد بـرو وكينفيـغ أمـام الآخريـن بتشـفٍّ وغـلٍّ، وكان يسـتريح بـين الفينـة والأخـرى ليعـاود صـب جـام حقـده عـلى ظهريهـما. كان ذلـك يزيـد مـن شـهوته

الحقودة، وكثيرا ما سمعت خطواته المتلصصة وهو يهبط الدرج آملا أن يسمعنا أنا وبرو نخالف تعاليم بوتر ونرتكب جريمة التحدث بلغة جزيرة مان.

لكن لم يتسنَّ له الاستمرار في لعبته تلك، إذ إن بوتر اكتشف أن ما لديه من بحارة لا يكفون لإدارة السفينة، وهكذا تحرر برو من قيوده. أعترف أن ذلك أزعجني كثيرا لأنني فقدت صحبته في سجني الضيق الذي لا أرى فيه سوى ذلك العجوز الخرف. إلا أن برو كان فيه الخير رغم كل ما حدث. فبعد أن قضى معي فترة عرف فيها موضع قيدي بالضبط سمعت في ليلة مغادرته صوت احتكاك واهٍ في خشب الجدار الذي ورائي. استمر الصوت طوال الليل كفأرة تقضم بدأب، وأثار الأمر فضولي لعلمي أن ذلك الجدار يفصلني عن العنابر حيث البحارة. وفي الصباح الباكر رأيت بريق أداة معدنية صغيرة من خلال الجدار سرعان ما اختفى مخلفا وراءه ثقبا صغيرا. قربت أذني منه فسمعت ذلك الإيقاع الجميل للغة أيل أوف مان. أخبرني برو عبر الثقب هامسا أن تلك القطعة المعدنية لم تكن سوى ملعقة صغيرة إذ لم يكن يُسمح لهم باستخدام سواها للأكل، فبوتر كان يخشى أن الشُّوَك والسكاكين قد تُسلِّح البحارة بما يتفوق على بنادق رجاله!

أحدث ذلك تغييرا مريحا في حياتي فقد صرت أسمع أحاديث البحارة وأعرف ما يجري في السفينة. لكن بالطبع لم يكن ذلك ليرضي الجميع، فويلسون كان يتشنج كلما سمع صوتا يقول لي مرحبا وتجحظ عيناه كأنه يستميت ليعرف ماذا نقول،وهو الذي لا يعرف من لغتنا كلمة واحدة. كانت الغيرة تنهشه رغم أنه كان طوال تلك الأيام يتجاهلني ويفضل صحبة مقدساته علي.

كان كلما سمع صوت برو يهمس لي يرفع صوته بالصلوات فقط ليمنعني من سماع أي شيء، وفي الحقيقة خشيت أن يفعلها ويخبر هوجس أو هوبر أو يحاول لفت أنظارهما إلى الثقب الذي كنت أحاول إخفاءه بذراعي قدر ما استطعت.

لم يكن كل ما وصلني عبر نافذتي الصغيرة تلك سارا، فكل ما سمعته كان أخبارا سيئة. علمت أن العنابر أصبحت سجن البحارة المقفل بإحكام والذي لا يمكن لأقواهم حتى محاولة الإفلات منه. والأسوأ أنهم بدؤوا يفقدون معنوياتهم ويستسلمون. شجعتهم على محاولة تمرد أخرى مستغلين وقت المساء حين يصاب الإنجليز بالتعب، لكنهم لم يتحمسوا أبدا. فحقيقة رجال آيل أوف مان تتجلى في أعماقهم حين يتعبون ويتساقطون فجأة كشراع يهوي عن صارية. لا يمكن لشيء أن يقف في طريقهم عندما تكون المعنويات جيدة وأرواحهم قوية، لكن ما إن يصابوا بأي خدش حتى يتهاووا. يبدو أن ما فعله الإنجليز بهم قد نال من عزيمتهم تماما، خصوصا بعد أن شاهدوا برو وكينفيغ يُجلدان وهما عاجزان عن فعل أي شيء. أجل، رجال جزيرتنا أنقياء كمياه عذبة، لكن ما إن يتسلل أي رعب إلى قلوبهم حتى تتسمم أرواحهم، وهذا ما فعلته عينات بوتر وجماجمه بهم. لقد أصبحوا الآن على قناعة بأن بوتر لديه الكثير ممن يقف إلى جانبه ويدعمه في إنجلترا، وأنه لن يتعرض للمساءلة مهما كنا أذكياء.

علمت أن حالة السفينة كانت في تدهور مستمر بعد قرار بوتر الأحمق بمنع عمليات الصيانة والتنظيف. وبعد كل ما تعرضت له من الشمس الحارقة والصقيع أصبحت الإخلاص تنوء تحت أوجاعها ويتناهى إلي صوتها عبر أنين الخشب في هيكلها.

ذات الصوت كان يصلني في طقطقة قضبان الحديد وفي وقع أقدام البحارة فوق الأرضيات الذي أصبح يتردد كطرق على تابوت رخيص لا على سطح صلب ومتين كما كانت الحال من قبل. وأكثر ما كان يقلق صوت الماء المتجمع في قاع السفينة الذي تحول إلى حركة بطيئة وعميقة والمضخات التي كانت بالكاد تفرغ قليلا مما تجمّع من المياه.

لم تكن أسباب كل ذلك غامضة. سفينتنا تتداعى ببطء ولكن باضطراد. أي سفينة يحكمها البؤس والتقشف لن يطول بها الوقت قبل أن تتحول إلى مجرد خشب متعفن وأشرعة ممزقة وحبال مهترئة ومعادن صدئة. قال برو إن الحبال تتآكل وترتخي لأن بوتر لشدة شكوكه لا يدعنا نشد عقدها باستمرار، وإن لم يتوخَّ الحذر فسوف تسقط الصواري أيضا. لن تصمد السفينة طويلا دون طلاء دائم وصيانة يومية. خطوة خطوة كانت الإخلاص تقترب من ذلك المصير الذي ينتظر أي سفينة تعاني كل ذلك الإهمال، أن تتحول إلى مجرد كتلة من الخشب والأشرعة.

كان ما يجري عملية تخريب منظمة. سفينتي التي بنيتها قطعة قطعة بيدي هاتين وحافظت عليها كأغلى ما لدي تتحول أمامي إلى أنقاض بسبب بعض الجهلة الأوغاد. كنت أفضّل أن تغرق دفعة واحدة على أن تتآكل هكذا بالتدريج. قال برو إن الإخلاص رغم كل ما تجمّع في قعرها من الماء ما زالت تطفو بسلاسة. حقا، لقد حيرني الأمر! كيف تطفو هكذا مع كل ذلك التسرب! فكرت في الأمر ووجدت السبب. لا بد أن مخازن التهريب المخفية هي ما يجعل السفينة تطفو فوق الماء، كأنها طوافة تمسك بنا.

ما يؤسف أننا نحن البحارة لم يعد لدينا ما نتمسك به، فمنذ إبحارنا وبوتر يقلص حصصنا من الطعام حتى لم يعد ما نحصل عليه يكفي قوتا لفأر. لم يعد هاجس الأكل يفارقني وأحشائي ينهشها الجوع على الدوام. وسرعان ما ظهر علينا، فويلسون نحف مع الوقت حتى أصبح هيكلا عظميا، وأنا أخذت أطرافي تنحف بالتدريج بينما راحت وجوه البحارة تضمر إلى أن صارت كوجوه الموتى كما أخبرني برو. كل ذلك والإنجليز يأكلون جيدا كما لاحظت من مظهرهم، بل إنني لا أتردد في القسم على أن كرش سكيغس قد كبر حجمه بمقدار إنش أو اثنين على الأقل.

لكن داء الأسقريوط لم يوفره مع ذلك. كنت أعلم ما سيحدث، فمنذ فترة طويلة لم نحصل على أي قطعة ليمون مجفف وكنت قد بدأت أشعر بنهم قاتل تجاه الخضار. سكيغس كان أول من أصيب رغم بدانته، شحب وجهه واعتكر مزاجه، وفي البداية حسبت أن شيئا ما يشغل باله إلى أن تورم فمه فلم يعد من أي مجال للشك. بعد ذلك تلاحقت الأخبار من برو عن إصابة تلو أخرى بالأسقريوط. ثم أتى دوري، وكغيري لم يكن سهلا على الإطلاق. في البداية هدني تعب شديد كالموت فلم أعد أقوى على فعل أي شيء ثم تورمت لثتي وفمي. كنت أعلم الخاتمة وما ينتظر المصاب بهذا المرض. بعد فترة سينهار كأن طاعونا أصابه ثم تبدأ أسنانه بالتساقط إلى أن يجد نفسه ملفوفا ببقايا شراع ويلقى به في البحر بصمت طعاما للأسماك.

لكن كيف لويلسون العجوز أن يكون آخر من أصابه المرض! حتى الآن لا أدري بالفعل كيف تمكن من النجاة كل ذلك الوقت. ربما كان يسرق الليمون المجفف، فهو ماهر في أمور كهذه ولم تكن

صلواته تنقطع لشكر الرب على حفظه معافى وقويا بينما نحن نتهالك وتتساقط أسناننا. ولا أخفي أني شعرت بالارتياح عندما نال منه المرض أخيرا، لا لأن ذلك قد غير من وضعي في شيء، بل ربما لأن حالته ساءت بسرعة. لم يكن ليهدأ لحظة واحدة وعندما كان يعجز عن ترديد صلواته تنبعث من فمه همهمات غامضة وأصوات وأحيانا ينقر بكفه على الأرضية.

كان الليل يزداد طولا وبرودة في تلك الأثناء. توقف سكيغس فجأة عن القدوم إلينا وحل مكانه هوبر في إحضار الطعام. أخبرني برو أن اثنين من البحارة قد نال منهما الوهن حتى أصبحا عاجزين تماما عن تسلق الصارية. ومع ذلك كنا نبحر بسلاسة. أين العواصف؟ فاجأني الأطلسي منذ غادرنا كيب هورن كأنه يورطنا في لعبة غامضة أو يسيء إلى سمعته بشكل متعمد. لم نواجه في رحلتنا حتى الآن سوى طقس لطيف ليس له أن يعكر صفو رحلة قوارب هادئة.

وأخيرا وبينما كان أحد أسناني يتحرك على وشك السقوط من فمي أتاني صوت برو الهامس عبر ثقب الجدار بالخبر الذي كنت أخشى سماعه.

«لقد اجتزنا أوشنات الليلة الماضية».

لا بد أننا في القنال الإنجليزي الآن ونحن نقترب من شواطئ إنجلترا.

قال كينفيغ كأنه حدس ما أفكر رغم أني لم أتفوه بكلمة: «لا تقلق يا قبطان، لدي فكرة، ونحن لم ننته بعد».

الكاهن جيفري ويلسون، يونيو 1858

إن هـذه الليـالي البـاردة تبـشر بعودتنـا القريبـة. رجـل غـيري كان سـينال منـه اليـأس لـو قـاسى مـا رأيتـه مـن ويـلات، جائـع ومقيـد ينهكنـي المـرض وأُجـبر عـلى ملازمـة مهـرب خمـور وعـلى مراقبـة سـجانيَّ؛ أعـوان الشـيطان يتجولـون حـولي بخيـلاء المنتصريـن. رجـل آخـر غـيري كان أحـس بالخـذلان واليتـم. أجـل، كان يمكـن لرجـل آخـر أن يعمـي الغضـب قلبـه بعـد كل مـا واجهـه مـن فشـل وهزائـم في مسـيرة كفاحـه الطويلـة وهـو يقـاسي الأمرّيـن ويصـبر عـلى المحـن مـن أجـل شيء واحـد، أن يـرضي اللـه في عليائـه.

لكنـي لم أستسـلم للمـرارة ولا ألقـي باللـوم عـلى الآخريـن أو أحمـل ضغينـة لأحـد. أنـا لم أتخـلَّ عـن إيمـاني، وكل مـا أطلبـه مـن ربي أن يهدينـي إلى الطريـق، أن ينعـم عـلي ولـو بإشـارة مـا تقـودني في الاتجـاه الصحيـح.

هـل جنـة عـدن هنـا في مـكان مـا مـن إنجلـترا، وهـل رحلتـي الطويلـة تلـك وكل عذابـاتي فيهـا مجـرد امتحـان؟

ألا يرحمنـي الـرب ويخفـف مـن قسـوة هـذا الجـوع قليـلا؟ لقـد كاد الجـوع يفتـك بي وأصبحـت أرى التفـاح في حلمـي. بـل إن بصلـة واحـدة أو حبـة بطاطـا سـتكون بمثابـة معجـزة لبائـس مثـلي.

الدكتور توماس بوتر، يونيو 1858

أولئك البحارة من آيل أوف مان خونة وغدارون ولا يمكن أن تأمن لهم. سمعت برو المربوط إلى الصارية كالعادة يطلب من قائد الدفة أن ينحرف عن مسار السفينة المحدد. وعندما سألته عن السبب زعم أن ذلك ضروري لتجنب الرياح والتيارات التي من الممكن أن تجعلنا نصطدم بجزيرة في طريقنا. لم أصدق، فمن خلال تفحصي للخريطة كان واضحا لي أننا قد تخطينا تلك الجزيرة، ورأيت سفنا في البعيد تسلك مسارنا ذاته نحو القنال الإنجليزي. لو فعلنا ما يريد لقادنا إلى البحر الإيرلندي أو آيل أوف مان. لا بد أنه يحاول نصب فخ لي. عندما وجهت له اتهامي مباشرة، لم يقنعني رده وحججه الواهية؛ كانت شكوكي وما لدي من أدلة أقوى.

جعلتني هذه الحادثة أعيد التفكير في طريقة قيادة السفينة، وكان علي اتخاذ قرارات صعبة لأواجه محاولات التمرد. قررت أن أسيطر على السفينة وقيادة الدفة ولا أترك مصيري معلقا في أيدي حفنة من المجرمين. لم أتردد ونفذت ما عزمت عليه بسرعة. أمرت بأن يُفكّ برو من الصارية ويلقى به بعيدا، وأصدرت تعليمات تقضي بأني من اللحظة سأتولى شخصيا مهام القبطان ورئيس

البحارة وقائد الدفة، وأن على جميع أفراد الطاقم تلقّي الأوامر مني مباشرة. احتج برو صارخا بأن ذلك سيقودنا إلى كارثة، لكني لم أُلقِ بالا إليه بل أبعدت شاينا عن الدفة أيضا ووضعت هوبر مكانه. قال الأخير إنه أضعف من التصدي لمهمة صعبة كهذه. أجبته بحزم أنه لم يبق أمامنا الكثير، وأن شواطئ إنجلترا أصبحت على مقربة.

أصدرت أول أوامري برفع مزيد من الأشرعة، فالرياح لم تكن قوية، ولا بد أن برو كان يتعمد الإبطاء من سرعة السفينة. لكنه اعترض وقال إن هذا خطير وقد يؤدي إلى تمزق الأشرعة على الصواري. تجاهلته وأمرت برفع المزيد من الأشرعة، وعندما رأيت البحارة يتعمدون التباطؤ في التنفيذ أطلقت رشقة من الرصاص من مسدسي فامتثل الجميع وخضعوا لما أريد. لم تخب توقعاتي، ازدادت سرعة السفينة ولم تقع أية صارية. أرسلت البحارة إلى العنابر.

شعرت بعد ذلك بالتعب فتركت هوبر على الدفة، وهوجس للحراسة ثم ذهبت لآخذ قسطا من الراحة. لا بد أن قلقي يزداد كلما اقتربنا من إنجلترا إلى درجة هدني الإعياء ولم أعد أقوى حتى على إكمال هذا المقطع من يومياتي. استلقيت وهواجس مخيفة تسيطر علي. ما من خيار أمامي، إما الموت وإما الرسو على شواطئ إنجلترا، رغم أن ذلك قد يحمل لي مخاطر ليس أقلها الاتهام والاستجواب والاعتقال من رجال جاهلين. أمر واحد كان يخفف عني ويشكل عزاء فيما ينتظرني أني أكملت كتاب «مصير الأمم» الذي سيخلد ذكراي في العصور القادمة.

القبطان إيليام كويليان كيولي، يونيو 1858

أيقظني صوت تقصف أخشاب لم أسمع مثله من قبل، بطيء وقوي كأن أشجار غابة كاملة تتهاوى معا. وما كدت أجلس حتى دوى صوت لشيء ما يتحطم وشعرت بما يشبه اندلاق قذف بأشياء كثيرة وملأ الهواء حولي بغبار ثقيل. سقطت من الأعلى كتلة رطبة وثقيلة في حجري فكادت أنفاسي تنقطع، وفي ذات اللحظة شعرت بالسفينة تميل على جنبها كأنما يد ما تقلبها ثم تعود لتعدل وضعيتها للحظات قبل أن تميل مرة أخرى. هل تحطمت العارضة الكبيرة؟! إن انقلبت فسيندفع ماء البحر ويملأ كل فجوات السفينة وحجرها. لم أتمنَّ لنفسي يوما أن أغرق، ولكن لا يستطيع المرء اختيار نهايته بنفسه. أحصيت الثواني مترقبا والسفينة تميل وتميل حتى استقرت طافية على ميلان حاد. فكرت لحظتها أن الوقت لم يحن بعد لأتنفس ماء البحر.

بصقت وقد امتلأ فمي بمزيج من القار اللزج والغبار ثم نظرت إلى حجري فوجدت أن ما سقط علي ليس جثة بل كومة من الحبال. انقشع الغبار قليلا حولي وتبينت كمية كبيرة من الأخشاب التي تناثرت في سجننا الصغير بعد أن تحطم الباب. قطع كبيرة لم أكن أتخيل أن أراها هنا بعد أن كانت صواري

شاهقة الارتفاع ومزق كبيرة من أشرعة علقت بها. كان الصاري قد اخترق الأرضية الخشبية ولو كان قد انحرف قليلا لأصابني وشطرني نصفين. نظرت إلى الأعلى فرأيت كيف وصل إلى هنا، فجوة كبيرة في سطح السفينة فوقنا تكفي لمرور بقرتين تراءت لي من خلالها قطعة من السماء مضرجة بلون الشفق الأحمر. أي صباح هذا!

سفينتي المسكينة، كيف تواجه هذا المصير على أيدي زمرة من الإنجليز ما كان يجب السماح لهم حتى بالاقتراب من أي زورق. لكن أليس كل ما يجري نتيجة متوقعة لجنون بوتر. لو كان في سفينة أخرى لما تجاوز الأمر تمزق بعض الأشرعة، لكن مع الإخلاص الأمر يختلف. أتخيل الآن ما حدث؛ صدئت المفاصل والبراغي وارتخت الحبال وتعفن خشب الصواري واهترأت الأشرعة من الإهمال. تكفي هبة ريح واحدة بعد كل ذلك التلف لتقضي على كل شيء. لكن أليس غريبا أن تهوي الصارية الخلفية هكذا! كان برو قد أخبرني عن تعليمات بوتر بمنع رفع الشراع عليها، فما الذي جعلها تسقط؟!

أزحت كومة الحبال عن حجري مثل كلب تنبه فجأة إلى كسله الذي طال أكثر من المعتاد. اكتشفت بعض الخدوش المتفرقة على جسدي، وتنفست الصعداء أنه ما من كسور كما توهمت. سمعت صراخا من الأعلى ورغم اضطراب الكلمات والضجيج علمت أنهما البحاران المقيدان إلى المضخة. سرني أن الصاري الأول لم يقع عليهما وإلا لكان سحقهما. تعالى صراخهما كأنهما يحذران من شيء ما، ولم يطل الوقت حتى علمت ما هو. ارتجت السفينة بعنف وصدر صوت تحطم مدوٍّ من جانبيها. لا بد أن الصاريين الجانبيين قد

سقطا أيضا. لن يطول الوقت حتى ينقلب الصاري الرئيس ويقتلع معه جزءا من أرضية السفينة فيبتلعنا البحر عندها في لحظات.

«شكرا لك أيها الرب لإنقاذي من الكارثة». غمغم الكاهن العجوز متلعثما بالغبار الذي غطى وجهه وكعادته دائما في التوقيت الخاطئ.

انتبهت لحظتها إلى تغيير فاجأني. يعتاد الجسد على قيوده ويتعلم مع الزمن أن يميز ويشعر بأدنى حركة أو تغير فيها ويتآلف تماما مع كل تفصيل فيها كما يفعل مع زوجته. السلسلة التي بين معصميَّ تهتز حلقاتها بخفة مع حركتي بينما تلك التي تربط قيدي بالأرضية ثقيلة تجذبني إليها مع كل حركة. لماذا أحس بها خفيفة الآن؟! نظرت فرأيت أن عارضة الشراع سقطت مباشرة فوق مكان تثبيتها بالأرضية فحطمت الحلقة التي تصلها بالخشب. حركت هذه واستطعت نزعها بسهولة، لكن حلقة أخرى كانت لا تزال ثابتة وصلبة. أي حظ هذا! وبيد مرتعشة رحت أحاول نزعها من مكانها. لم يكن الأمر سهلا، لكني كررت محاولاتي بعناد، ورويدا رويدا راح الخشب يتفتت حولها حتى انخلعت في النهاية مثل ضرس تالف. لحظة غامرة من السعادة... أنا حر رغم ثقل السلاسل التي لا تزال تقيد معصمي.

انشغلت في تلك اللحظة بما يحصل على متن السفينة. صحت من خلال الثقب الذي صنعه برو في الجدار: «هل من أحد هناك؟».

«كلنا هنا». صاح برو، «وكل شيء على ما يرام عدا أننا على وشك الغرق».

اللعنة، ماذا فعل ذلك المجنون بوتر! كيف لم يترك واحدا منهم

على الأقل طليقا ليتصرف في حالة كهذه! «لا تقلقوا سأخرجكم من هنا». قلت رغم أن وعدي بدا أمنيات أكثر منه إمكانية واقعية.

«يا قبطان، يجب أن تساعدني أنا أيضا». أجفلني صوت ويلسون الذي لم أسمعه منذ وقت طويل يتحدث إلى أحد غير السماء. يريد المساعدة الآن! أي سفالة في هذا الرجل! كان يرفض أن يكلمني طوال أسابيع طويلة حتى لمجرد أن يخبرني عن الوقت، والآن يعود إلى الثرثرة فقط لأنه بحاجة إلى مساعدة. رغبت بأن أتركه هناك يلقى المصير الذي يستحقه. لكن عندما تقضي ردحا من الزمن مقيدا مع إنسان آخر يصعب عليك أن تتركه هكذا وتمضي. لا تستطيع إلا أن تضع نفسك مكانه وتفكر ما الذي يمكن أن تشعر به لو فعل بك أحد ذلك. نزعت قفل الباب وكنت أهمّ بالخروج عبر الممر لكني توقفت واستدرت عائدا.

«حسنا يا فيكار». وعندما نظرت إلى سلاسله فوجئت بأن الخشب في جهته كان أكثر تفتتا وتلفا وأن المسامير تكاد تفلت وحدها لو كلف نفسه عناء أن ينظر فقط. لم يكلفني الأمر سوى شدة خفيفة وتحررت السلسلة من مكانها.

لا يمكنني في أي حال من الأحوال وبصرف النظر عما أنوي فعله أن أستمر في حمل السلاسل هكذا. تذكرت أن في الممر خزانة رئيس البحارة التي كان من المعتاد وضع فأس فيها في حالة لزم قطع حبل على نحو عاجل. لم تكن أيامنا هذه عادية، لكني وجدت الفأس.

«شد سلاسلك فوق العارضة». قلت لويلسون على عجل. أذعن على الفور ونفذ طلبي بما يشبه الضحك. لم أكن في قوتي فتطلب الأمر أن أهوي بأربع ضربات بكل عزمي على الحلقة حتى كُسرت

في النهاية وانقطعت السلسلة الكبيرة وأفلتت الصغيرة التي تقيده. وما إن تحررت يداه حتى التقط ويلسون مسمارا من الأرض وراح يحاول فك الحلقتين حول معصمه.

«لا وقت لهذا الآن». قلت له وأنا أناوله الفأس وأجمع سلاسلي متأملا أن يكون لديه ما يكفي من القوة. لكني اكتشفت لحظتها أني تأخرت كثيرا في تعلم الدرس. لا، لا يصح أن تسدي معروفا لإنجليزي. فبدلا من أن يعّبر عن العرفان بالجميل كما يجدر بإنسان سوي، بربر ذلك المخلوق البغيض «لدي ما أقوم به» ثم استدار وأخذ يتسلق عارضة الشراع باتجاه سطح السفينة. غمرني للحظة شعور فظيع من المرارة واليأس ثم تمكنت من الإمساك بإحدى قدميه لكنه ركلني بها على عيني، ومع ثقل السلاسل التي كانت تربك حركتي سقطت وتمكن من الإفلات. لم أوفر نعتا أو شتيمة تناسب فعلته، لكن ذلك لم يوقفه، وعندما نظرت إليه ثانية كان قد وصل إلى الفجوة في السقف وبدأ يحاول الخروج منها.

أضاع ذلك كل شيء، ما تبقى من الوقت الذي كان يداهمني ضاعف من جزعي وفداحة مأزقي. كيف لي أن أحمل الفأس بيدين مقيدتين بالسلاسل! ما العمل؟ لم تكن الاستكانة خيارا متاحا، وكان لا بد لي من فعل شيء مهما كان مستحيلا أو يائسا. جمعت السلاسل بين يدي وحملت الفأس ثم خرجت من الباب المؤدي إلى الممر.

ما إن خرجت حتى وقعت عيناي على خراب لم أكن أتخيله. كنت أعلم أن الأوغاد كانوا يعيثون فسادا في سفينتي، لكني لم أتصور أن تصل الكارثة إلى هذا الحد. كأنها مركب أشباح بطلائها

الـذي حـال لونـه وتقـشر وألـواح الخشـب التالفـة في أرضيتهـا. الصواري عليهـا كجـذوع أشـجار مقطوعـة، بينـما الصـاري الأمامـي عـار ومهجـور تمامـا. لم تعـد سـفينة تمخـر عبـاب البحـر، بـل خرابـة وأطـلال، ولم نعـد سـوى كتلـة خشـبية تالفـة تنتظـر غرقهـا المحتـوم.

مشـهد مـروع آخـر كان ينتظـرني. عندمـا يواجـه بحـار أي شـخص خطـر يتسـبببغرق سـفينته فـأول مـا يبـادر أن يفعلـه لإنقاذهـا أن يتنـاول أول فـأس وينقـضّ بـه عـلى كل مـا يثقلهـا ليتخلـص منـه. لكـن بـدلا مـن ذلـك رأيـت الإنجليـز عـلى سـفينتي مشـغولين كمجموعـة مـن حيوانـات السـمور بإنـزال القـارب الصغـير. كان بوسـعي رؤيـة الشـاطئ يرسـم حـدوده تكـسر الأمـواج عـلى بعـد بضعـة أميـال.

أي جريمـة مروعـة يرتكبهـا هـؤلاء الإنجليـز. جريمـة ألا تفعـل شـيئا أفضـل مـا يـبرع بـه الإنجليـز. بالطبـع قتـل طاقـم السـفينة بكاملـه رميـا بالرصـاص أو سـحقهم حتـى المـوت؛ فعـل دمـوي لا تؤمـن عواقبـه القانونيـة مـن وجهـة نظرهـم، لـذا مـن الأفضـل الفـرار بهـدوء إلى الشـاطئ وتـرك كل شيء في الفـوضى ليغـرق وحـده كقطـط صغـيرة. كل مـا يحتاجـه صديقـي بوتـر الآن أن يغمـض عينيـه للحظـات متخيـلا الأكاذيـب التـي سـيخبرها للفضوليـين عنـد وصولـه، وبقليـل مـن التجذيـف سـتنتهي متاعبـه كلهـا. لا بـد أنـه فخـور بنفسـه الآن. لا عجـب إذن كل ذلـك الـصراخ مـن البحـارة المربوطـين إلى المضخـة. لا بـد أن بقيـة البحـارة في العنابـر يسـمعونهما وهـما يصرخـان ويضربان بقبضاتهـما مـن الرعـب والغضـب.

لم يكـن الإنجليـز مـع ذلـك يحسـنون ارتـكاب جريمتهـم، فـما مـن عصابـة قـذرة أقـل كفـاءة منهـم في العبـث وتخريـب السـفن. كل مـا اسـتطاعوا فعلـه أن ينزلـوا القـارب بغبـاء وتهـور لا مثيـل لهـما.

كان القارب معلقا إلى جانب السفينة على ارتفاع لا يتجاوز قدمين أو ثلاثة ومثبتا بشكل جيد. أما الإنجليز فكان سكيغس الذي شحب وجهه كالأموات يستلقي في قاع القارب ورأسه على مقعد التجذيف، وكل من هوجس وهوبر يحاولان فك بكرة التعليق، بينما وقف بوتر في الأعلى على حافة السفينة وعند قدميه بنادق وحقيبة جلدية. هل يخفي فيها الذهب الذي جنيناه بسفرنا حول العالم؟! يا للوضاعة!

الأوغاد فقدوا السيطرة على أنفسهم من التوتر أيضا، وأخذوا يصرخون كسكارى يتشاجرون على الرشفة الأخيرة في زجاجة خمر. أعتقد أنهم كانوا خائفين ألا يتمكنوا من الفرار وأن يقعوا ضحايا لجريمتهم كالبقية. المغفلون، لو سألوا فقط لأخبرتهم. فمن نظرة واحدة عرفت ما المشكلة. كانت البكرة قد تصلبت بفعل الصدأ وبليت الحبال، وهذا ما جنته أيديهم بإهمال السفينة هكذا وتركها تتآكل.

«علينا أن نقطع الحبل». صرخ هوبر.

«لكن هذا جنون. سيتحطم القارب عندما يرتطم بالماء». أجاب بوتر.

لو استطعت الوصول إلى العنابر وتخليص البحارة فسيكون أمامنا فرصة للنجاة. لن يكون هذا بالسهل مع القيود التي نجرجرها وكل تلك البنادق مع بوتر. كنت أهمّ بالشروع بمحاولتي عندما سمعت ذلك الصوت. «أبانا الذي في السماوات فلتسحق أعداءنا». كنت قد نسيت ويلسون، وها هو يتقدم على سطح السفينة بكل صفاقة. خلت لثانية أنه سيعترض طريقي، لكنه لم يكلف نفسه عناء النظر إلي. كان مستغرقا في نوبة جنونه، ورغم

ذلـك بـدا حضوره المفاجئ عونـا لي إذ إنـه سيشـغل بوتـر عنـي.

«ابتعد من هنا». صاح بوتر وكأنه رأى شبحا.

لم أنتظر وغادرت لحظتها مكاني قرب الدرج بكل ما استطعت من سرعة عابرا الصاري الخلفي المكسور دون أن أتعرض إلى أي طلقة. لكن الوصول إلى العنابر سيكون أكثر صعوبة. أشرت إلى البحارين عند المضخة ليصمتا.

سمعت صوت ويلسون خلفي: «يجب أن أحصل على هذا القارب».

«ابتعد من هنا قلت لك». صاح بوتر.

«الرب يقول إن هذا القارب لي».

«ليس صحيحا».

نظرت ورائي فرأيت بوتر يصوب مسدسه نحو ويلسون، فعل ما كان ليفيد في شيء، إذ إن الطريقة الوحيدة لإقناع مخلوق كهذا أن تطلق النار على رأسه. وفجأة سمعت الكاهن يزعق ثم يركض ويتسلق الدرابزين، ولا أدري كيف فعلها وقفز، لكني رأيته كأنه يطير ويحط داخل القارب. لكن المفاجأة الحقيقية كانت فيما حدث بعد ذلك. فعلى الرغم من أن فيكار لا يتجاوز في ثقله هيكلا عظميا إلا أن الحبال المهترئة انقطعت وسقط القارب. حتى الآن لا أدري كيف استطاع ويلسون أن يتوازن لكنه فعلها وكان البقية أقل حظا منه. ففي لحظة واحدة سقط هوبر وسكيغس وهوجس مع المجذافين في البحر. كنت أسمع صوت صراخهم يتلاشى تدريجيا ونحن نبتعد عنهم. أي معجزة! لم أكن لأتردد في مصافحة ويلسون وتهنئته على التخلص من رجال بوتر بهذه السرعة. لم أتردد في انتهاز الفرصة وأسرعت إلى العنابر. ألقيت بسلاسلي ورحت أنزع

الأقفال التي صدئت وتآكلت.

«كيف تجرؤ؟» نظرت فرأيت بوتر يقف مترددا، ربما يفكر في إنقاذ رجاله رغم أنهم اختفوا. ثم نظر بغضب إلى ويلسون وكأنه يقرر فيما إن كان سيطلق النار عليه. لكنه تأخر، فقد انقطع الحبل الأخير الذي كان يربط القارب الصغير بالسفينة فارتطم بالماء بعنف. هنا انفلت غضب بوتر وأطلق كل ما في مسدسه من رصاص، لكني لم أرَ أنه أصاب شيئا، فالقارب كان قريبا جدا من السفينة.

لم يكن لدي وقت للتفكير فيما يحدث، ولم يطل الوقت حتى تمكنت من فك آخر الأقفال. انفتح باب العنبر إلى الخارج فرأيت وجوها مألوفة تحدق فيَّ. لا، لم تكن مألوفة تماما، فلم أكن قد رأيت في حياتي رجالا نال منهم الجوع إلى تلك الدرجة. كانوا كهياكل عظمية مغطاة بأسمال ولم تكن وجوههم أكثر من جلود شاحبة تستر عظاما. حتى شاينا نفسه فقد نصف وزنه. كان ما رأيت كفيلا بتزويدي بجرعة تزيد عن حاجتي من الغضب. فاجأني أنهم بوضعهم المتهالك ذاك استطاعوا أن يتحركوا، خصوصا الاثنين اللذين فتك بهما داء الأسقربوط، لكن يبدو أن سجنهم بتلك الطريقة وهم ينتظرون غرقهم في أي لحظة شحنهم بالقوة وغريزة المقاومة. وخلال لحظات كنا نحرر البحارين المربوطين إلى المضخة.

احتقن وجه بوتر غيظا عندما رآنا. «عودوا إلى أماكنكم». صرخ وقد ظهر كم هو بدين بالمقارنة معنا.

لم أصدر أي أوامر، لكننا كنا في وضع نعرف ما الذي علينا فعله دون كلام. تقدمنا جميعنا نخطو باتجاهه كل منا يسند من هو أضعف منه.

«خطوة أخرى وأطلق النار». صرخ بوتر.

لم نتوقف، كان الغضب الذي يدفعنا أكبر من أن نخاف، وعندما اقتربنا رأيناه يلتقط كل البنادق ويضع ثلاثا على كتفيه ويمسك بالرابعة بيده بينما يقبض بالأخرى على المسدس. طبيب قاطع طرق، هكذا بدا وهو مدجج بكل عتاده.

«سأطلق النار». صاح وهو يصوب المسدس نحونا، لكننا كنا أكثر من أن يختار هدفه بسهولة. أدخل يده في جيبه للحظات كأنه يبحث عن طلقات، لكنه فجأة انتفض والتقط حقيبته وراح يركض بالبنادق تقرقع على كتفيه باتجاه قمرة المكتب. تعثر بالبنادق التي علقت عند الباب لكنه أفلت قبل أن ندركه. «سأطلق النار لو اقترب أي أحد من هنا». بعد ذلك سمعت صوت أشياء تزاح وصناديق تدفع كأنه يحاول تحصين نفسه.

تركته وشأنه عندما تذكرت أن لدي ما هو أكثر أهمية. «الأنقاض» صرخت بالبحارة في الوقت الذي كان شاينا يتناول الفأس وينهال على حطام الصاري الكبير وما علق به. وخلال لحظات كان الحطام يبتعد طافيا وفارتين كليك يمسك بالدفة لتوجيه السفينة. ألقيت نظرة من فوق الدرابزين على جوانب السفينة. كان حطام الصاري قد كسر ألواح الخشب وأحدث فيها شقوقا كبيرة. لن تصمد وستتفتت أمام أول موجة.

«لن ننجو من هذا». قال برو. كانت الرياح تدفعنا أثناء انشغالنا بالإنجليز باتجاه شواطئ إنجلترا وكنا لحظتها نقترب من أحد الخلجان. نظر برو إلى امتداد صخري ظهر في جهة مسيرنا. «حتى لو تمكنا من رفع الأشرعة على ما تبقى من الصواري، رغم أني أشك في إمكانية ذلك، فإن الرياح تدفعنا في الجهة المعاكسة».

كان محقا للأسف، فلن نستطيع تجنب تلك الصخور حتى لو حاولنا آلاف المرات. أتلف الإنجليز سفينتي تماما. أي مصير مؤلم، الإخلاص التي حملتنا إلى آخر العالم وعادت بنا أيضا ستتحطم على أرضهم القذرة، ولم يعد أمامنا سوى أن نأمل ألا نغرق معها. وضعت سلاسلي على قاعدة الصاري وطلبت من شاينا كسرها بالفأس. فعل ذلك بسهولة ثم فك الحلقتين من معصمي بإزميل كريستيان. شعرت بيدي خفيفتين بعد كل ذلك الوقت في القيود وكانتا لا تتوقفان عن الحركة كأنهما تطيران.

«انظروا إنه الكاهن». صاح كينفيغ.

نظرت فرأيته، ويلسون في القارب على بعد مئة ياردة يداه أمامه يبتهل ويصلي تحسبا لغضب الرب من تجاهله. كان قاربه يطفو بسكينة ويبتعد مع التيار. هذا الرجل له حظ الشياطين، لا شك في ذلك رغم أنه لن ينجو طويلا في البحر دون مجاذيف.

سأل برو فجأة «أين الذهب؟» أي سؤال! كنت أظن أن الإنجليز قد جربوا معنا كل خبثهم، لكن لا، يبدو أن بوتر ينوي أن يسلبنا الآن كل ما نملك. اللص القذر بحقيبته الجلدية تلك. إنه هناك، أراه وقد أوصد الممر المؤدي إلى قاعة الطعام بالصناديق وصوب نحونا بندقية.

«ابتعدوا، خطوة أخرى وسأطلق النار».

ليس من الحكمة الركض نحوه. كان ذلك واضحا كضوء الشمس.

«يمكن أن ينزل إليه أحدنا من فوق مؤخرة السفينة». اقترح برو.

«سيرانا بسهولة».

«لماذا لا نقذفه بالمدفع؟» قال شاينا كلوكاس بصوت كئيب.

بنظرة واحدة تبددت آماله، فقد سقط الصاري على المدفع وسحقه كفأرة في مصيدة. وهنا خطرت لي فكرة. «ماذا عن مخبأ المهربات؟ هل اكتشفها يا برو؟».

لم يكن برو متأكدا. كما ظهر من قصتنا مع الجمارك الإنجليزية هناك فارق بين معرفة وجود ذلك المخبأ ومعرفة كيفية الوصول إليه. في الأمر مخاطرة ولا شك، ولكن من يحسب لذلك ونحن على وشك أن نرتطم بالصخور ونتحول إلى حطام يبتلعه البحر. «فلنحاول».

«دعني آتِ معك». قال شاينا كلوكاس وهو يلتقط الفأس.

سيفيدني في عملية كهذه. أخذت وتدا حادا ومضينا. كان علينا فتح الكوة في المخزن الكبير؛ حركت المزلاج ففوجئت بكمية كبيرة من الماء في القاع تملأ براميل التخزين الفارغة. لم يصل الماء إلى ألواح الخشب التي تعزل المخبأ لحسن الحظ، وما إن سحب كينفيغ حبل القفل حتى انفتح الباب بيسر. أوقدت شمعة ونظرت إلى الداخل فعرفت على الفور لماذا لم نغرق حتى الآن. كان مخبأ التهريب جافا وسليما عدا تسرب بسيط، وما كنا لنستطيع تزويد الإخلاص بطوافات أفضل لو أردنا.

دلفت إلى الداخل فلم أرَ ضوءا من جهة قاعة الطعام مما يعني أن الكوة ما زالت مغلقة على بوتر. هذا جيد إلا إن كان قد انتبه وكمن لنا ينتظر اللحظة المناسبة. مهما كان الأمر لم يكن بوسعنا المغامرة بإحداث أي صوت فهمست للبحارة أن يغطوا علينا بالصراخ في الجهة الثانية وإشغال بوتر بضجيجهم. وخلال لحظات سمعت أصواتهم تعلو بكل ما يعرفونه بلغة آيل أوف مان من

نعوت ولعنات. بدأنا شاينا وأنا رحلتنا الشاقة. كان علينا الانحناء في الأماكن الضيقة والتقدم ونحن نحرك أقدامنا المحشورة تحتنا في مواضع زلقة متعثرين بالفأس خشية أن نثير أي ضجة. ومع توغلنا ازدادت العتمة وروائح البراندي والتبغ، وأكثر ما كان يبعث على التوتر صوت ألواح الخشب تطقطق حولنا لتذكرنا بهشاشة ما يفصلنا عن مياه البحر. هذا عدا خوفنا من مداهمة الإنجليز في أي لحظة. علا ضجيج البحارة وهم يطلقون صيحاتهم باتجاه بوتر وبدأت أصواتهم تتضح كأنها تتسرب من مكان قريب، ثم بعد ذلك سمعنا دوي إطلاق رصاص فعلمت أنهم نجحوا باستفزاز الدكتور ودفعه لخسارة طلقة في الهواء.

وصلنا أخيرا إلى نهاية الممر كأننا محشوران في مدخنة. مددت يدي فوجدت الحبل المربوط بباب الكوة التي تفضي إلى قاعة الطعام. لم أسمع شيئا عدا أصوات البحارة وهم يطلقون صيحاتهم، وفكرت بما أن بوتر قضى كل تلك الشهور يتجول في قمرتي وأرجاء السفينة فلا بد أنه اكتشف كل شيء وأنه الآن ينتظرنا مترصدا. مهما كان الأمر فما من خيار أمامنا ولا بد من المحاولة. لم أسمع المزلاج يصر من قبل فتمنيت في سري أن لا يفعل الآن ويكشف أمرنا. سحبت الحبل بحذر شديد وأنا أمسك المزلاج بيدي كي لا يفلت فجأة أو يحدث صريرا. انفتح بهدوء فدفعت الباب نحو الأعلى ليرتفع معه تمثال فيكتوريا وألبرت بسلاسة.

مددت رأسي ونظرت وقد بهر الضوء عيني فرأيت بوتر ظهره إلي متحصنا مع بنادقه وراء جدار من أمتعته. دوى إطلاق نار لحظتها فيما يبدو أنه استفزاز جديد من أحد البحارة وكان هذا من حسن حظي إذ رأيته ينشغل ببندقيته. قبضت على الوتد

جيدا في يدي وكنت أهم بالدخول عندما سحبني شاينا إلى الوراء بسرعة. لماذا فعل ذلك؟ هل أزاحني عن طريقه ليسبقني أم أنه رمى إلى تحذير بوتر. ألم يكن يشعر بالامتنان له بعد أن عالجه من إصابته! لكن لا، فسرعان ما تبددت شكوكي. كان بوتر لحظة شروعي بمداهمته قد استدار ولا بد أن الرجل سمعه أو انتبه إليه. رغم بطئه لا أعتقد أنه كان يقصد القضاء على بوتر هكذا، فهو لم يضربه بنصل الفأس بل صوب إليه قبضته المعدنية التي أصابته فوق عينه محدثة صوتا يشبه انبعاج برميل. كان ذلك كافيا لقتله فانهار مع بنادقه وعتاده.

رفعت نفسي إلى الداخل وتأملت المشهد وأنا أحك لحيتي. «هكذا، أي نهاية!».

ارتبك شاينا: «لم أكن أقصد».

هززت برأسي: «لا تدع ضميرك يؤنبك يا شاينا. إنه لا يستحق». ثم ناديت على البحارة من خلال فجوة في أكداس الصناديق: «تعالوا، لقد انتهينا منه».

نادى برو من أعلى الدرجات: «الأفضل أن تأتي إلى هنا يا قبطان فنحن نقترب من اليابسة».

انتبهت لحظتها إلى ما أثار اهتمامي. رأيت على الرف كيس الذهب الذي حصلنا عليه مقابل التبغ والبراندي، تماما في المكان الذي تركته فيه قبل شهور. لقد تركه بوتر في مكانه ولا يبدو أنه فكر حتى في فتحه ومعرفة ما فيه. أي رجل غريب كان! لكن ماذا في حقيبته الجلدية تلك؟ لا بد أشياء ثمينة وإلا لما حرص عليها بتلك الطريقة.

«أسرع يا قبطان».

كان شاينا قد أزاح أكداس الصناديق والأمتعة عن مدخل الممر فالتقطت كيس الذهب والحقيبة وأسرعت باتجاه سطح السفينة.

كان البحر الذي ظل هائجا لفترة قد هدأ وسطعت الشمس بدفء تتوق إليه عظامنا بينما اقتربت الإخلاص بهيكلها المتداعي من الصخور. لم نتردد في انتهاز الفرصة فدلينا حبلا فوق إحدى الصخور ونزلنا كلنا.

لم يكن يهمني ما الذي ينتظرنا بعد تلك الصخرة. ولمَ أهتم وقد نجونا؟ فها نحن هنا بمعجزة على أرض صلبة تحتنا أيا كانت المتاعب التي تترصدنا.

لم نكد نجلس ونلتقط أنفاسنا حتى سمعنا صوت تحطم الإخلاص المسكينة. لا بد أن الأخشاب التي كسرها الصاري الكبير قد تهشمت بفعل اصطدامها بالصخور فانقلبت السفينة وابتلعها الماء بلمح البصر. بقي الصاري الأمامي ظاهرا فوق سطح الماء لفترة قصيرة ثم مال واختفى أيضا.

أي لحظة عصيبة كانت أن أودّع الإخلاص، أول وآخر سفينة أمتلكها في حياتي. دائما شعرت بأنها سفينتي حتى في تلك الأيام التي كنت سجينا على متنها وبوتر يحتل مكاني ويعيث خرابا فيها. لقد أنقذت حياتنا وأوصلتنا إلى بر الأمان رغم كل ما جرى لها. أقلقني لحظتها ما يمكن أن يُكتشف في داخلها لاحقا، وتمنيت لو أني لم أصطحب شاينا في تلك الرحلة المشؤومة. لكن ما الذي كان يمكن فعله!

«هل النقود هنا؟» سأل برو مشيرا إلى الحقيبة الجلدية.

كنت قد نسيتها تماما. أي عبث كان أن أحملها معي من السفينة متشبثا بها كأن حياتي معلقة فيها. ولماذا؟ لم أجد فيها عندما

فتحتها سوى أوراق! ما فائدة بضاعة كهذه. ليست سوى هراء كما ظهر لي من نظرة واحدة، خربشات عن الأعراق والخصائص والمصير وكلام فارغ كهذا. لا أدري لماذا كان يحرص عليها.

«أحد ما قادم». قال شاينا مشيرا إلى كثيب رمل وراءنا.

نظرت حيث أشار فرأيت رجلين على حصانين يتجهان نحونا. هذا كل ما نحتاج إليه، نجدة. من ملابسهما بدا أنهما فلاحان. أخذتهما المفاجأة والتأثر حينما رأيا إلى أي مدى نال الجوع والوهن منا.

«ما الذي جرى لكم؟».

«قدمنا من تاسمانيا وقد نفذت مؤونتنا».

كان ذلك كفيلا بإسكاتهما، على الأقل لبعض الوقت. «سأحضر العربة».

كان أفضل ما نفعله أن نبتعد عن ذلك المكان بأسرع وقت ممكن. قد يكونان منقذين أو زبالين أو مجرد رجلين إنجليزيين فضوليين، أيا كان الأمر فهذا جيد. لم يكن من المهم أننا على خطأ أم صواب. المهم أن يصدقانا ونبتعد. أي فحص لركام السفينة سيكشف أسرارا تودي بنا إلى المحاكم الإنجليزية بتهمة القتل والتهريب. لن يتذكر أحد شيئا سوى فضائل الدكتور بوتر.

الفصل الخامس عشر
تيموثي رينشو، مارس - إبريل 1858

وجـدت نفـسي في غرفـة بسـيطة تنسـكب أشـعة شـمس المسـاء الذهبيـة عـلى غطـاء سرير فيهـا وامـرأة لم أرهـا مـن قبل تبتسـم لي كأنمـا تفوهـت لتـوي بنكتـة.

«مساء الخير».

شعرت بشيء يشبه الدوار. «أين أنا؟».

«مزرعة أبي».

«هل أنا هنا منذ وقت طويل؟».

«منـذ يومـين تقريبـا» ابتسـمت مـرة أخـرى. «كنـا قلقـين. لقـد بـدا عليـك أنـك مشـيت لوقـت طويـل في الأحـراش. مـا اسـمك؟».

«تيموثي رينشو».

«أنا ليز. ليز شيبارد».

بـدأت أتذكـر، وبـدا لي كل شيء في مـاضٍ بعيـد أو غـير حقيقـي لم يحـدث قـط. «رأيـت ملائكـة».

تلاشت ابتسامتها. «نعم، أبي ينحتها. إنها في كل مكان هنا».

سـيمضي شـهر قبـل أن أعـرف حقيقـة تلـك الملائكـة. أمـا في ذلـك الصبـاح فقـد كان أبـو ليـز يتسـوق في مـكان مـا وإخوتهـا يصلحـون

السياج فتمشينا سويا نحو الإسطبل، وهناك تركتني أقترب منها وأفك أزرار فستانها وأحل صدارتها. كنت مستغرقا في ملذات دفئها دون عجلة حينما فجأة تغير مزاجها.

«هذا يكفي» ودفعتني عنها لتغطي صدرها المكور بنعومة. «لا يحق لك... إطلاقا».

داهمني شعور طاغٍ من الخيبة والخذلان. «ما الذي جرى؟ كنت سعيدة منذ لحظة فقط!».

رمقتني بنظرة اتهام: «أنت لا يهمك أمري ولست بالنسبة إليك سوى ألعوبة تلهو بها».

للنساء طباع عجيبة تجعلهن جديات في لحظات غير ملائمة.

«لا، هذا ليس صحيحا». قلت وأنا في الحقيقة تدفعني الرغبة لإغوائها وفك أزرارها مرة أخرى.

«لا أدري لما تركتك تقترب مني وأنت لا تسبب لي سوى الألم!» قالت وهي تبكي. ثم أضافت وفي عينيها نظرة توجس وخوف. «لو علمت لما اقتربت مني».

«أعلم ماذا؟».

«عن أبي... إنه من سجناء ميناء آرثر السابقين». تهدج صوتها القوي والنقي. «كل ما فعله أنه أخذ حقيبة رجل عندما نال منه الجوع ولم يجد ما يسد رمقه، واضطر للدفاع عن نفسه. كان ذلك كافيا. لقد تعلم نحت الأحجار في ميناء آرثر وصنع التماثيل لحديقة زوجة الحاكم». استبد بها الغضب. «والآن اذهب. ارحل من هنا، فلا أعتقد أنك تريد أن تمشي مع ابنة سجين سابق».

قبلتها واستجابت لي بنهم حتى لانت تماما بين ذراعي وكدت أصل إلى أقاصي المتعة. استلقت بعد ذلك على القش جميلة تتضوع سحرا.

كنت قد بدأت منذ فترة أساعد في بعض أعمال المزرعة. وفي تلك الظهيرة أسرجت الحصان ومضيت لأتفقد الأغنام لأن والدها كان قد رأى ذئبا يتجول في الجوار. كان يوما بديعا، ألوان الأشجار بدأت تتحول إلى صفرة الخريف وأنا أمتطي الحصان واضعا قبعة عريضة من القش على رأسي لتقيني من الشمس وواقيا على كتفي تحسبا من المطر. شيء ما في هذا المكان ملأني بالحيوية والنشاط لم أعرف مثيلا له في لندن.

لم يكن من السهل تصديق أن السيد شيبارد كان من سجناء ميناء آرثر بكل وداعته وهدوئه. وهكذا فقد قبَّلت ابنة سجين. ماذا ستقول أمي لو عرفت. لا بد أنها ستخجل من ذلك وسط مجتمعها الخاص. كان مجرد التفكير بأمي يجعلني أشتهي العودة إلى المنزل لأحتضن ليز. لم يعد ذلك من شأنها. أجل، لقد أرسلوني إلى هنا حيث كدت أُقتل، والآن علي أن أقرر كل شيء بنفسي. لماذا لا أبقى هنا؟! الحياة تبدو لي جيدة في هذا المكان الوادع. صحيح أن عائلة ليز لا تجني الكثير، لكن الأرض خصبة هنا وبإمكانهم العيش بشكل معقول دون أن يقصم العمل ظهورهم. وليز امرأة جميلة، جسدها منحوت ورشيق، وعدا أنها رعتني وأنقذتني من المرض فهي تغدق علي من العواطف ما لم أره من المقربين إلي في لندن. لم لا؟ بوسعي أن أتزوج ابنة محكوم إن أردت.

السيد پ. ت. ويندرش، 1865
عجائب جزيرة وايت:
الفصل السادس: جزيرة غرائب الأطوار (مقتطفات)

وراء كنيسة القديسة كاثرين في قرية شيل يمكن رؤية أحد أشهر شخصيات الجزيرة. ما إن تدخل تلك الكنيسة الرائعة حتى تطل على مشهد الشاطئ الممتد نحو غابات الغرب، ويكفي أن تنظر إلى المدخل لترى رجلا بشوشا يجلس في أسماله. إنه العجوز الذي يُعرف باسم مسيح شيل.

عُثر عليه على الشاطئ قرب الجرف الوعر الذي يميز هذه المنطقة من الجزيرة. كان في حالة بائسة، يشبه هيكلا عظميا على وشك الغرق، ولا أحد يعرف ما الذي جاء به إلى هناك حتى الآن. كان إلى جانبه بقايا ألواح خشب بدا أنها من حطام زورق لكن دون أية علامات ترشد إلى حكايته؛ وكان هو نفسه غير قادر على الكلام أو التصريح بأي شيء يدل على هويته. قال البعض إن ذلك بسبب ابتلاعه كميات كبيرة من ماء البحر، إلا أن أحدا لا يعرف بالضبط ما الذي جرى له وإن كان ما به يعود إلى طبيعته أم إلى ما واجهه في رحلته.

فعل صاحب الحانة الذي عثر عليه وزوجته كل ما بوسعهما لرعايته وإعادة العافية إلى جسده السقيم، إلا أن عقله بقي في

حالة مضطربة وبقيت أحاديثه المرحة دون معنى. أبدى رغبة مؤثرة منذ البداية بزيارة الكنيسة حتى وهو على فراش المرض، وما إن تماثل للشفاء حتى أصر على أن يجعل بيت الرب ذاك مأواه والمكان الوحيد الذي يهفو إليه. أقام هناك يبتسم على الدوام كأبله ويتحدث إلى العابرين بترهات وتخاريف داعيا كل من ينصت إليه للصلاة من أجل سلام روحه. لم يكن يتوقف عن الكلام حتى عندما يكون وحده ويثرثر ناظرا إلى يمينه كأنما يحادث مخلوقا غير مرئي ناقلا إليه كل ما يخطر في باله من أخبار، من أحوال الطقس إلى حدث سقوط ورقة شجر في حضنه. وما إن يسأله أحد عمن يحادث حتى يرمقه بنظرة غريبة ويردد الجواب ذاته: «إلى ربي الذي في السماوات».

لم يكن يعدم من يقدم له بعض النقود أو كسرات من الخبز، وهكذا كان يحصل على قوته. لكنه لم يكن مرحبا به من الجميع. فالقس روبرتس الذي كان أول من تعاطف معه طلب لاحقا أن يرحل عن الكنيسة ويجد مكانا آخر. وهنا ظهر أن العجوز لديه أصدقاء في القرية. أحد الفلاحين وفّر له مكانا ليسكن فيه وهو عبارة عن حظيرة حيوانات سابقة في حقله. بدا المكان مناسبا جدا له وبقي يعيش فيه إلى يومنا هذا. خلال فترة ذاع صيته في الجزيرة وأثار فضول الزائرين من كل حدب وصوب. كان كلما استقبل زائرا يشير له إلى قطعة أرض معشوشبة قرب مسكنه بجانب الفسحة التي اعتادت الخنازير التشمس فيها قائلا: «هذه جنة عدن».

سر آخر حيَّر الناس في هذا الرجل. معرفته العميقة بالصخور حيث كان يتعرف على أي نوع منها أو من المعادن بمجرد أن تقع عيناه عليها مهما كانت نادرة. لم يخطئ مرة واحدة.

بيفاي، 1858 - 1870

فوجئت بأولئك الرجال في القوارب الأربعة وهم يرسون على الشاطئ ويفرغون حمولتهم. نظرت إليهم من مخبئي السري؛ لم يكن أبي بينهم ولم يكونوا يشبهونه في شيء. أضاءت القناديل وجوههم، أحدهم ذو بشرة بيضاء وعيون فاتحة كغيره من البيض، ولكن كان إلى جانبه وجه آخر ببشرة سوداء كوجه أمي. أما البقية فكانوا مثلي هجينين، بشرة فاتحة مع أنف أسود أو بشرة سوداء مع شعر أحمر. حتى البيض بدوا مختلفين إذ لم يبدُ عليهم الغرور والخيلاء الذي يميز الرجال البيض عادة. لا، لا يبدو أنهم أعداء. نهضت من مكاني وقلت مرحبا.

وهنا كانت المفاجأة الثانية. لم يكن أولئك مجرد غرباء بل إخوتي وأخواتي. الكثير من الإخوة والأخوات الذين لم أتوقع وجودهم من قبل. لم يكونوا كلهم من أبي بالطبع، فقد عاش هنا الكثير من البيض على صيدهم من الطيور والسمك مثله تماما. شعرت بفرح غامر لاكتشافي هذا، غبطة عارمة لم أعرف مثلها في حياتي. فأنا لست وحيدا في هذا العالم إذن، ولدي عائلة لم أتوقع وجودها!

علمت منهم تلك الليلة أن أبي مات قبل خمس سنوات. ميتة عادية وبائسة. ذهب في زورق إلى جزيرة روبسون ليجلب المؤونة،

وهناك سكر ونام خارج المخزن ليعود بعدها إلى بيته محموما. مات في فراشه، ولأنه كان آخر الرجال البيض الذين عاشوا هنا ومكروها من الجميع لم يحزن عليه أحد. دفنوه في مكان بعيد وراء تلة حتى لا يروا قبره ويتذكروه، على العكس من الأمهات اللائي كن من الباولا. قبورهن قرب المنازل ليتذكرهن الأبناء ويلقوا عليهن التحية كل يوم.

أمي عاشت أكثر من أبي إذن. كم كان ذلك سيسرها لو علمت.

وهكذا وجدت نفسي أعيش في هذا المكان، أصحو في الليل ولا أكاد أصدق أني بين الآخرين أصطاد الطيور والأسماك كل يوم ولا أرى البيض إلا عندما نذهب إلى جزيرة الموت تلك، جزيرة روبسون لنبيع بعض الأشياء ونشتري حاجياتنا. أرى هناك لهفة صاحب المتجر على بضاعتنا لكني لا أخطئ الضغينة في عينيه. أصبحت الجزيرة كلها للمزارعين البيض الذين لا يكفون عن إطلاق الشتائم عندما يسكرون. كانت زياراتنا تلك مفيدة لي لأنها ذكرتني بأنه ما زال علينا أن نقاتل. لا يعرف رفاقي الجدد الكثير عن العالم ولا حتى عن أنفسهم، فأبي لم يعلمهم شيئا. وهكذا وجدت أن من واجبي أن أعلمهم ما أعرف. علمتهم الكتابة والقراءة والقوانين وحيل الرجل الأبيض وأكاذيب كتبه المقدسة. أجل، عليهم أن يتعلموا ليتمكنوا من المقاومة والبقاء. ومن يدري، قد يأتي يوم يقاتلون فيه من حرمهم من وطنهم. هذا هو حلمي والرغبة التي لا تفارقني ليل نهار والتي أتمسك بالحياة من أجلها.

القبطان إيليام كويليان كيولي، 1858 - 1859

وصلتني الأخبار بعد وصولي إلى مدينة بيل بأسبوع أو اثنين وتقريع زوجتي لا يزال يدوي في أذني. علمت أن رسالة من جوناه تشايلدز وصلت إلى شركة التأمين في دوغلاس يطلب فيها انتشال السفينة من البحر ويبدي استعداده لتحمل نفقات العملية.

تفرق الجميع لدى سماعهم الخبر وأسرعوا إلى أول مركب يفرون على متنه. التحق برو بسفينة تبحر إلى جنوب أمريكا ووجد كينفيغ مكانا تسلل إليه على سفينة أخرى تبحر إلى نيويورك، بينما وجد شاينا كلوكاس من يقبل به بدور عملاق باخرة تتجول في موانئ العالم. كان بوسعي الانضمام إليهم أو اللحاق بهم، لكنني لم أجد ما يكفي من الرغبة في داخلي. لا أدري إن كان كل ما تعرضت إليه من جوع وإرهاق أثناء رحلتي الأخيرة أم أن ما حدث لي في الصباح الأخير قد أوهن عزيمتي تماما. كانوا سيقبضون علي في كل الأحوال، فليس هناك الكثير مثلي من آيل أوف مان يعملون قباطنة. فما الفائدة من الفرار إلى آخر العالم! لكنني مع ذلك لم أطق صبرا على الانتظار فرحلت إلى دبلن. سلكت طريقا ملتفة، إلى ليفربول أولا فدوغلاس ومن ثم تسللت في الليل مشيا على الأقدام فوق التلال إلى مدينة بيل. وهناك توجهت على الفور إلى بيت ابن عمي توبم

ونزلت بهدوء إلى القبو حيث اختبأت كفأر. لم يكن في إقامتي تلك أي شيء سار، لكنها ضمنت لي النجاة لبعض الوقت، خصوصا أني تعودت على الرطوبة والضجر من أسفاري الطويلة في البحر. كان ابن عمي يزورني كل يوم وزوجتي كل أسبوع لتكيل لي المزيد من التأنيب. احتملت كل ذلك إلا قطة توبم. لم يكن في القبو سوى نافذة واحدة تتخللها مربعات صغيرة من الزجاج تضيء الغرفة بمسطحات من الضوء والدفء كلما سطعت الشمس. لكن تلك القطة لم يكن يحلو لها سوى أن تتمدد بجسدها الثقيل فوق النافذة لتسد منافذ النور وتغرقني في الظلام. صرخت وضربت النافذة بكرسي لأبعدها، لكن من دون فائدة. الحيوانات تعرف من لا يكون له حول ولا قوة.

رحل الصيف وحل الخريف، ثم أتى عيد الميلاد ليتركني البرد في حالة يرثى لها من السعال والزكام وما من شيء أفعله سوى صب اللعنات على هذا السجن الخاص الذي وجدت نفسي فيه. وطيلة الوقت لم يغب عني سؤال محير: لماذا لم يأت الإنجليز بعد بعيونهم الخبيثة للبحث عن إيليام كويليان كيولي؟! لن يخفى علي خبر كهذا إن وصل منهم أحد إلى هنا، فأذنا ابن عمي مفتوحتان جيدا ولن يفلت خبر كهذا منهما، كما أن بيل مدينة صغيرة لا أسرار فيها. لم أشتق إلى رؤيتهم بالطبع، لكن الأمر أثار قلقي وفضولي، عدا أن تأخرهم في القدوم لم يكن يعني سوى إطالة مدة إقامتي في مخبئي.

رحل الشتاء أخيرا وحل الربيع بدفئه وشمسه. لكن مع أول يوم تسطع فيه الشمس عادت تلك القطة اللعينة لتستلقي فوق النافذة وتغرقني في الظلام. بعد ذلك أتتني زوجتي برسالة وصلت

مـن جونـاه تشـايلدز ذاتـه وفيهـا دعـوة غايـة في اللطـف مـع تذكـرة القطـار أيضـا.

ندعـوك لحضـور معـرض لمجموعـة الطبيـب والمستكشـف الراحـل تومـاس بوتـر التـي جمعهـا خـلال رحلتـه إلى مسـتعمرة جلالـة الملكـة في تاسـمانيا وذلـك في كليـة الجراحـين في لنـدن.

بالطبـع فطنـت إلى أن الدعـوة ليسـت سـوى فـخ، لكنـي لم أبـال بالخطـر بعـد أن سئمت حيـاتي وأنـا حبيـس ذلـك القبـو لا شيء أفعلـه سـوى أن أرتجـف بـردا وأنتظـر الخطـر في أي لحظـة. لـن أبقـى حتـى لـو شـنقوني. وهكـذا فتحـت البـاب وخرجـت إلى العـالم وفي طريقـي ركلـت تلـك القطـة اللعينـة. بعـد بضعـة أيـام وجـدت نفسي عـلى مركـب بخـاري يقطـع البحـر الأيرلنـدي، ومـن ثـم في قطـار أقلنـي مـن ليفربـول لأجـد نفسي بعـد سـاعات مـرة أخـرى في زحـام لنـدن المجنـون. أقلتنـي عربـة إلى مبنـى كالـح علمـت أنـه كليـة الجراحـين، وعـلى المدخـل تفحـص البـواب بطاقـة الدعـوة ثـم أشـار إلي بالدخـول.

لم أكـن أتوقـع سـوى عصابـة مـن شرطـة لنـدن تنتظـرني للقبـض عـلي، لكـن لا، كان هنـاك معـرض حقيقـي. دخلـت إلى قاعـة كبـيرة تعـج بـكل الأصنـاف مـن أفّـاقي لنـدن يتجولـون جيئـة وذهابـا بأفضـل مـا لديهـم مـن بـزّات الأحـد الرسـمية وهـم يثرثـرون ويتشـدقون بتعابـير الترحيـب والمجامـلات الطنانـة. في وسـط القاعـة وُضعـت صـورة كبـيرة للدكتـور بوتـر وهـو يبتسـم ووزعـت في أرجـاء المـكان صناديـق زجاجيـة تحتـوي عـلى الجماجـم والعظـام التـي جمعهـا بينـما نُصبـت بعـض الهيـاكل العظميـة وجُعلـت في وضعيـة منحنيـة وأطرافهـا تشـير نحـو شيء مـا كأنهـا مـا زالـت تأمـل في الخـلاص. يبـدو أنهـم تمكنـوا مـن انتشـال السـفينة. لمـاذا لم يعتقلـوني إذن!

«كابتن كيولي». خاطبني السيد تشايلدز بابتسامة عريضة أظهرت أسنانه كلها كأننا صديقان قديمان. «أنا غاية في السعادة وممتنّ لك أنك تكبدت عناء القدوم إلى هنا من مسافة بعيدة. دعني أقدمك..»..

وقبل أن أستوعب ما الذي يقوله وجدت نفسي أصافح ضابطا بدينا من الجيش الإنجليزي قال تشايلدز إنه استكشف الصحراء على ظهر بغل رغم أن ضخامته تحتاج إلى فيل لحمله. كان اثنان من زملاء بوتر إلى جانبه أيضا، وعلمت أنهما من قام بتنظيم المعرض مع تشايلدز؟

«لكن من علينا أن نشكره حقا هو القبطان كيولي». قال جوناه. «فلولاه لما كان بوسعنا رؤية كتاب الدكتور. أنت من أنقذ المخطوطة، وإن كنا ندين لأحد في هذا فهو أنت يا قبطان».

فوجئت بما قال. «أي كتاب؟».

«لا بد أنك تعرف». قال وهو يضحك. «مصير الأمم. أنت الذي أحضرته معك إلى الشاطئ».

تذكرت تلك الحقيبة المليئة بالهراء والخربشات. لا بد أنه يقصدها.

ضحك تشايدز كأنه سمع نكتة جديدة. «يجب أن تكون فخورا بنفسك يا قبطان. لقد أنقذت عملا عظيما. إنه حديث الساعة والمطابع لا تستطيع تلبية طلبات النسخ الجديدة».

خلت للحظات أنهم يسخرون وأن فخا قد نصب لي. هل وجدوا في تلك الأوراق ما يشير إلى أني مجرم ومهرب؟ لم أستطع مقاومة رغبتي بالسؤال. «هل تمكنتم من انتشال السفينة إذن؟».

«لا بد أنك تمزح يا قبطان. لم أواجه في حياتي مهمة شاقة

كهذه. كان الطقس رديئا للغاية رغم أننا في الصيف ثم اكتشفنا أن السفينة غاصت إلى أعماق لم نتوقعها. وما زاد الأمر سوءا أن المنتشلين تركونا وذهبوا إلى ديفن حيث أغراهم عمل أسهل. لم نتمكن في الحقيقة من إتمام المهمة قبل مضي أربعة شهور».

كنت قد وصلت إلى منتصف الطريق ولم يكن أمامي سوى أن أتابع. «وهل وجدتم أية مفاجآت؟».

«هل تعلم؟» قال وفي عينيه نظرة قلقة كأنه هو المتهم: «لم يكن هناك سوى متاع الدكتور بوتر، ولو وجدنا أي شيء آخر لأعلمت شركة التأمين الخاصة بك».

«نعم، بالتأكيد كنت ستفعل يا سيد تشايلدز». هل جرفه التيار؟ لا بد أن السفينة ارتطمت بالقاع بقوة فتحطمت وسقط منها. شعرت بابتسامة عريضة تجتاح وجهي. هناك أمور أكثر مسرة في أمسية كهذه من التفكير بالمشنقة إذن!

«لكن هناك آخرون يجب أن تتعرف عليهم. لم أتوقع أن تستحوذ البعثة على كل هذا الاهتمام من أهم الشخصيات. ذلك الرجل الطويل بالشعر الرمادي عضو في البرلمان، وذلك الذي يقف عند الباب مفكر معروف».

لم أكن أبالي بهم أو بمن يكونون، وكل ما كنت أتوق إليه مساحة خاصة أستمتع بها بأخبار خلاصي من هذه الورطة. «لو سمحت لي، أريد أن أتجول في المعرض فأنا لا أرغب بإضاعة فرصة ثمينة كهذه».

«بالتأكيد يا كابتن، وهو كذلك».

رحت أتجول في القاعة دون أن أنتبه إلى كثير إلى المعروضات وأنا مشغول بالبهجة التي سببتها الأخبار لي. أنا الآن حر ولم أعد

بحاجة للاختباء في ذلك الجحر. أي جنون كان! لم أكد أبلغ منتصف جولتي حتى وجدت نفسي أمام مجموعة من العظام مرتبة على قاعدة معدنية أنيقة ومنسقة بدقة. لم تلفت نظري في البداية لكنني انتبهت بعد لحظة إلى الجمجمة التي رأيت فيها ثقبا كبيرا فوق العين اليمنى. قد تكون مجرد مصادفة... لكن أليس هذا الثقب في الموقع ذاته الذي أصاب فيه شاينا كلوكاس رأس بوتر بفأسه؟ أسفل القاعدة لوحة نحاسية كُتب عليها بحروف منمقة: ذكر مجهول الهوية من سكان تاسمانيا الأصليين.

إلى جانب العظام رأيت علبة زجاجية تحتوي على ما يشبه بقايا جلد ولوحة كتب عليها: تعويذة من صنع السكان الأصليين.

لكن الشعر! كان قصيرا، تماما بطول شعر لحية.. ولونه أحمر أيضا. لا يمكن أن يفوتني هذا! لم يجرفه التيار إذن. لا، انتشلوه هيكلا عظميا، فأربعة أشهر تكفي مخلوقات البحر لتنهي وجبة دسمة مثله. تخيلت للحظة أن تشايلدز ورفاقه سينقضون علي ليرحلوني إلى السجن، لكن لم يحدث شيء من هذا، وتابع الجميع ثرثرتهم ومجاملاتهم وضحكهم. لا أحد يهتم.

المترجم في سطور

د. علي محمد سليمان

- مواليد دمشق 1970.
- دكتوراه في الدراسات المسرحية من جامعة أوكسفورد البريطانية عام 2005.
- أستاذ زائر في جامعة أوكسفورد البريطانية.
- أستاذ المسرح في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق.
- أكاديمي وباحث سوري له العديد من البحوث والمقالات والترجمات المنشورة في دوريات وصحف عربية وأجنبية في مجال المسرح والأدب العالمي.
- له كتاب بعنوان «ظل الوردة: دراسة في مسرح جورج شحادة».
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية وألقى محاضرات في جامعات بسورية وبريطانيا.

د. علي العنزي.

- عضو هيئة تدريس قسم النقد والأدب بالمعهد العالي للفنون المسرحية (2006).
- عميد المعهد العالي للفنون المسرحية (2018).
- له عدد من المؤلفات والتراجم منها: أسفار الموت والمقاومة – نص مسرحي 2017.
- محاضر في الأدب الحديث والمسرح السياسي.
- محاضر في نقد المسرح الحداثي وما بعد الحداثي، وفي النقد التطبيقي.
- عضو هيئة تحرير سلسلة إبداعات عالمية بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، منذ العام 2009.
- عضو محكم للأبحاث والدراسات الأدبية في عدة مجلات علمية جامعية محكمة، منذ العام 2009.
- عضو محكم لجائزة الكويت للقصة القصيرة (جائزة الملتقى).
- رئيس لجنة تحكيم مهرجان المسرح المحلي والمسرح الخليجي.
- عضو جمعية الصحافيين الكويتية.
- نال جائزة الدولة للإبداع الصحافي من وكالة الأنباء الكويتية في العام 1994.
- محاضر في الهيئة العامة للشباب والرياضة في دورات أصول الكتابة والتأليف المسرحي.
- محاضر في فن تحليل الأعمال السينمائية الأوروبية.
- له العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة بمجلات علمية محكمة، وهو عضو في العديد من لجان التحكيم، وقام بمهمة تحكيم أبحاث النقد المسرحي لعدد من المجلات العلمية المحكمة.

صدر من هذه السلسلة

31	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
31	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
31	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
31	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
31	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
31	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
32	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
32	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
32	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
32	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
32	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
32	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
32	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
32	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
32	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
32	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
33	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
33	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
33	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
33	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
33	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
33	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
33	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
33	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
33	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
33	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
34	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
34	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
34	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
34	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
34	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
34	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
34	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
34	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

صدر من هذه السلسلة

34	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
34	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
35	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
35	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
35	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
35	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
35	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
35	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
35	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
35	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
35	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
35	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
36	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
36	الصُّـــــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
36	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
36	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجـي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
36	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
36	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
36	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
36	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
36	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

صدر من هذه السلسلة

36	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
37	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
37	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
37	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
37	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
37	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
37	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
37	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
37	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
37	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
37	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
38	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
38	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
38	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
38	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
38	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
38	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
38	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
38	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
38	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
38	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
39	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
39	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
39	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
39	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
39	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
39	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
39	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
39	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
39	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
39	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
40	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي

صدر من هذه السلسلة

40	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
40	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
40	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليڤي
40	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
40	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
40	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
40	إِنِّيْ أَتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِيْنوس
40	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
40	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
41	الإيـــاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هايْنِهْ
41	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
41	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
41	اليـوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـــو هـــوا
41	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِيْنُوِيه
41	رَاوِي مَرَّاكش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـــــ باتاجاريا
41	فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
41	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
41	آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
41	بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر)	تأليف: أوليف سنيور
42	مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة	تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية
42	جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية)	تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز
42	كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية)	تأليف: جون ماكغرين
42	صوت مُنْفَرِد (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
42	●السيدة أَرنول - ●الجبل (روايتان)	تأليف: جان نويل بانكرازي
42	الأشياء تنادينا (قصص)	تأليف: خوان خوسيه ميّاس
42	ميخائيل زوشينكو (قصص مختارة)	تأليف: ميخائيل زوشينكو
42	مون تايجر (رواية)	تأليف: بينيلوبي لايفلي
42	غطاء دروبادي (رواية)	تأليف: آناندا ديڤي
42	موسم الظل (رواية)	تأليف: لينورا ميانو
43	قَبْلَ أَنْ نَزُورَ الإِلهة (رواية)	تأليف: شيترا بانرجي ديڤاكاروني
43	الغزو (مجموعة قصصية)	تأليف: ريكاردو بيجليا
43	السكينة (رواية)	تأليف: أتيلا بارتيش
43	سيدة أورتوبي.. وقصص أخرى..	تأليف: بيّو باروخا
43	المسافرون الإنجليز الجزء الأول (رواية)	تأليف: ماثيو نيل

يمكنكم الاشتراك والحصول على نسختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		18		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36	24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24	12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24		25

قسيمة اشتراك في إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

أولاً: التوزيع المحلي - دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 24826820 /1/2	00965 /24826823	im_grp50@yahoo.com
ثانياً: التوزيع الخارجي					
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966 /14419933 – 14418972	00966 /12121766 – 1212774	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	00973 /17617733 – 36616168	00973 /17617744	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 43916501 /2/3	00971 /43918354 – 43918019	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	00968 /24492936 – 24496748 – 24491399	00968 /24493200	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	00974 /44621942 – 44622182	00974 /44621800	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 25782700/1/2/3/4/5 00202 25806400	00202 /25782540	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666314 /15	00961 /1653259 00961 /1653260	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	00216 /71322499	00216 /71323004	sotupress@sotup.com.nt
10	المغرب	الشركة العربية الأفريقية	00212 /522249200	00212 /522249214	s.wardi@sapress.ma
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	00962 /6535885 – 797204095	00962 /65337733	alshafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	00970 /22980800	00970 /22964133	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	00967 /1240883	00967 /1240883	alkaidpd@yahoo.com

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب